
هَانِيبَالْ
أعظمُ قائدٍ فى التاريخ
وَ
عَلِيسَة
إمبراطورية قـرطاج
رمـزي المنيـاوي
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

هانيبال..

و

عَلّيسة

اسم الكتاب : هانيبال وعليسة

اسم المؤلف : رمزى المنياوى

المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠١٠/٢١٣٣

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 978 - 977 - 376 - 563 -1

التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكري كوسا

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى

٢٠١٠



سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢

لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

darelkitab@yahoo.com- darelkitab-nassif@hotmail:com

www.darketab.com - info@darketab.com

هانيبال..
و
عَلِّيسَة

◆

رمزى المنياوى

◆

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

تقديـــم

عندما تقلب صفحات التاريخ يخرج عليك القائدُ العسكريُّ القرطاجيُّ هانيبال حاملا اللقب الذى خلعه عليه العالم، وظل يصاحبه طيلة قرون من الزمان وإلى يومنا هذا.. هذا اللقب هو «أعظم قائد فى التاريخ».

نعم هذا هو هانيبال، الذى أذلَّ روما القديمة فى أَوْج قوتها وعنفوانها، حتى أَطلق عليه الرومان «كابوس روما الأسود»، والذى يتوارَى خَلف عبقريته العسكرية قادة عظماء كبار خلدهم التاريخ أمثال الإسكندر الأكبر ونابليون بونابرت.

وعندما تقلب صفحات التاريخِ أيضا ستخرج عليك امرأة ربما تكون الأشهر بين ملكات التاريخ، وستُفاجَأ أيضا أنها كانت مؤسِّسة وملكة مدينة قرطاج، التى قدمت للعالم - فيما بعد - هانيبال العظيم، وهى لا تقل عنه عظمة أو شهرة، حتى إنها احتلت مكانة كبيرة فى كتب التاريخ فى الغرب، وكذلك أخذت حَيِّزا كبيرا من ملاحم شعراء اليونان والرومان كما نرى فى الملحمة الخالدة والشهيرة لفرجيل، والمعروفة باسم «الإنيادة».

هذه الملكة الخالدة هى عليسة الأميرة الفينيقية ابنة (صور) التى وصلت سواحل تونس وأسست «قرطاج».

وهكذا ترتبط مدينة قرطاج بشخصيتين تاريخيتين غيرتا مجرى التاريخ القديم.. عليسة ومن بعدها هانيبال.. وهما موضوع هذا الكتاب الذى يتتبع مسيرة كلٍّ منهما، منذ الولادة والنشأة، والعوامل التى أثرت فى تكوين شخصيتيهما، انتصاراتهما، إخفاقاتهما، وكيف اشتركا فى نفس النهاية المأساوية، حيث فضلا الموت على حياة الذل والضعة والهوان.

رمزى المنياوى

الجزء الأول

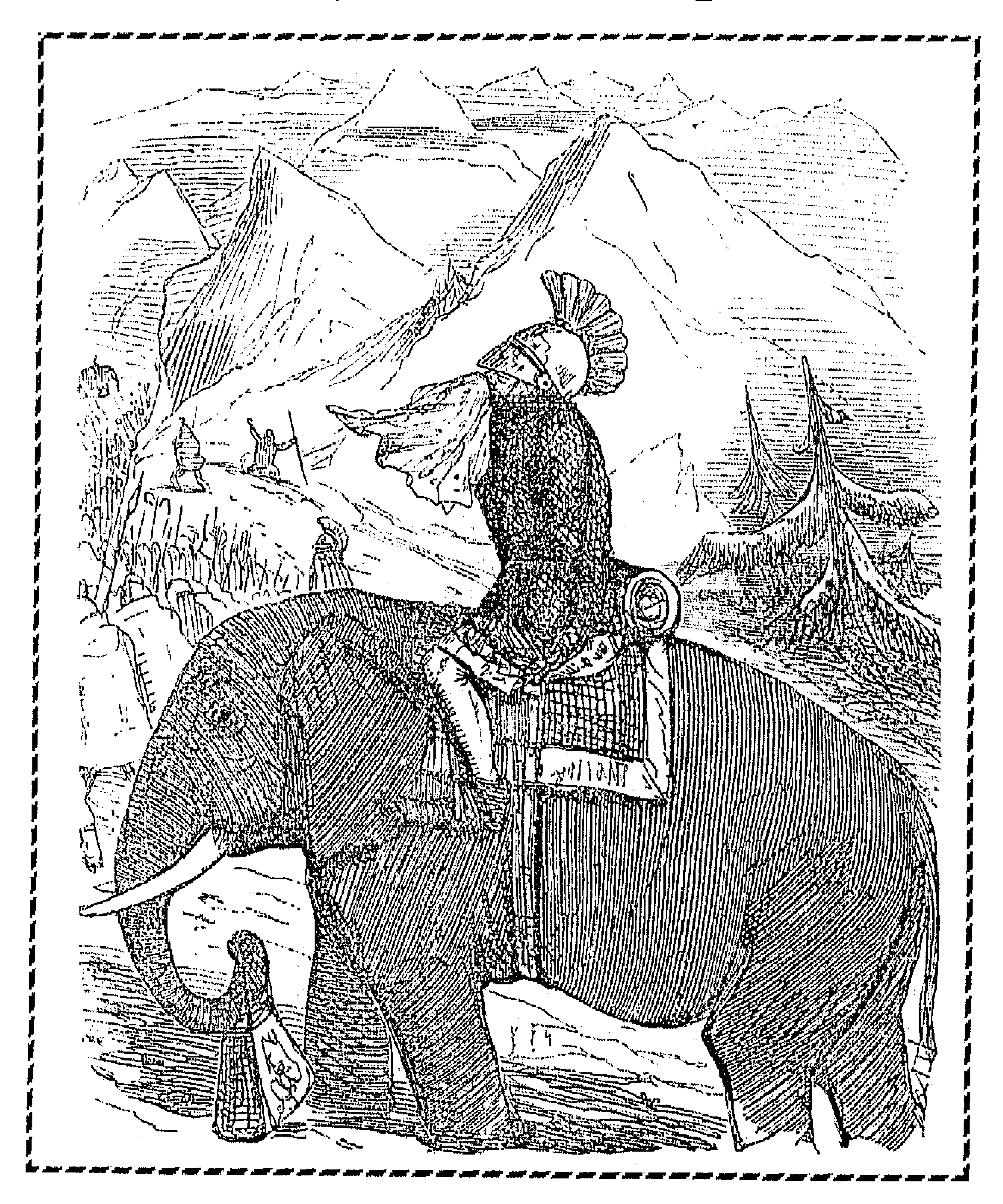


هانيبال..

سيرة رجل عظيم

هانبيال..

طفولة استثنائية !!



1

وُلِدَ "هنيبعل" أو " هانيبال " فى عالم لا يعرف الرحمة، عالم اعتاد الشدة والقسوة. إله قومه المزعوم " بعل " كان يطلب من القرطاجيين - كما اعتقدوا هم - أن يقدموا له أولادهم ذبائح له، وقد كان، وفقًا لما ذكره المؤرخون، وبالفعل على أراضى قرطاجة، اكتشف علماء الآثار عشرين ألف قبر وُجد بداخلها بقايا أطفال. وهذه التنقيبات تؤكد ما كان يشاع عما كان منتشرا فى قرطاجة فى العالم القديم.

كان الكاهن يأخذ الولد من الأهل ويقتله بطريقة غامضة، ومن ثم يقدمه إلى النيران. ولابد وأن هذه التجربة أثَّرت كثيرًا بهنيبعل أو هانيبال الصغير، الذى شهد هذه الشعائر الرهيبة وتأثرت عائلته نفسه بها، حيث ساروا على نهج القرطاجيين وحاولوا أن يكسبوا ثقة الآلهة المزعومة بتقديم الأولاد ذبائحَ لها.

كانت تلك التضحية تتطلب الطاعة الكاملة من سكان قرطاجة إلى قانون ظالم، ربما كان هذا من بين ما علق فى مخيِّلة هنيبال، فقد قدمت عائلته بعض أولادها أيضًا كذبائح.

شب هانيبال عن الطوق كما شب - كثيرون غيره - على كَثْبٍ من البحر، ولم يبرح الجبل حتى الخامسة من عمره وكان هذا الجبل أريكس (أو أركت) يبرز كحصن مراقبة يملكه عملاق، داخل مياه عميقة بجوار خليج ضحل هلالى الشكل، وكان يشرف على المدينة الصغيرة ذات الأسوار التى تقوم على هذا الخليج، وما كان هانيبال يستطيع زيارة المدينة من جراء الحرب القائمة بينها وبين سكان الجبل.

وهكذا كانت أول بيئة يذكرها هانيبال البكر، ابن والديه، تتصل بمعسكر مسلح، على خلاف معظم الآخرين من أمثاله، ولكن الذين حوله لم يكونوا فى العادة، يحملون سلاحا بل كانوا يقومون بترميم أسقف الأكواخ المصنوعة من " البوص " إذا ما أمطرت السماء، أو يراقبون نساءهم وهم يجمعون قطع

العملة الفضية فى عقود للاستعانة بها فى أوقات الشدة، وكان أفراد أسرهم يزرعون الشعير على سفح الجبل، بينما كان أبناؤهم الكبار يعنون بقطعان الأغنام ويقومون على رعايتها كمصدر للحم الصالح للطهى.

وكانت مسألة توفير الغذاء فى بقعة محصنة داخل أرض العدو تجربة غير عادية نوعا مًّا، ولم يكن لهانيبال محيص من التمرس بها قبل كل شىء، وكانت قلاع جبل أريكس العالية تؤمن سلامة الجماعة التى يحكمها هاملكار باركا.

وتعددت المرات التى أصبح هانبيال يسمع فيها الوطء الثقيل لنعال الخوذات والدروع، وهى تتحرك هابطة مسالك الجبل فى جماعات منفصلة، ولكنها لم تكن تأخذ طريقها بهذه المسالك المحفورة بمنحدرات الجبل إلا عند غروب الشمس، لتعود تحت أستار الظلام وهى تسوق الحمير والأسرى محملين بجرار النبيذ والقمح وماشية تستولى عليها من الوداى المترامى الأطراف.

ولما كان هانيبال يخرج لمشاهدة هذه الجماعات فى غدواتها وروحاتها، لم يجد الصبى ابن الخامسة غرابة فى أن يتخاطب هؤلاء القوم النشيطون بخليط من اللغات - إذ كانوا أُجراء من اثنى عشر شاطئاً أو جزيرة، وقد استطاعوا كما هو الحال مع رجال معسكر واحد معرفة لغة الإفريقيين الوطنية الجافة ولغة اليونان المهنية.

وكان الصبى على استعداد لأن يسترق السمع لحديثهم كلما أراد معرفة أى شىء خفى، ولذلك كان الأُجراء دائما يتركون عملهم ليجلسوا إليه ويوضحوا كل شىء لابن السيد هاملكار البكر الذى كان الغضب والهم يعصفان به عصفاً شديداً كلما أعوزهم أى شىء.

ولعل أكثر ما تأثر به هانيبال هو العملاق الليبى ذو الأقراط المصلصلة الذى كان يستطيع أن يحمل فوق كتفيه القويتين مُهْرا، وعلى أية حال فقد أصبح هذا المعسكر مقر حضانة الصبى تحت إشراف أُجراء والده الذين

كانوا يتقاضون عن خدمتهم له مقابل من فضة، أو نصيبا فى جزية.

ولقد كان لهاملكار بركا طريقة بارعة فى استمالة أكثر الناس نفورا وبعدا عن الانسجام بما فى هذا جنود الرومانيين الآبقين.

فمنح الأسرى العبيد حق الزواج وساعدهم فى ذلك كوسيلة تربطهم بحياة الأسرة.

ولقد ترك الجبل طابعه الخاص على هانيبال فقمته التى كان تلسعها الريح، وتلفُّها أحيانا كتل السُّحب المتحركة، كانت تنتصب وحيدة منفصلة عن قمم باطن الجزيرة الداكنة، أما فى الداخل فكانت تتجمع سحب سوداء فى أوصالها لمعات برق خاطفة.

وقد أصبح المراقبون فوق جبل أريكس من بنى البشر جزءا من غضب الأجواء أو رضاها حتى إن هانيبال ظل يعد شديد الحساسية والتأثر بهذه المظاهر الجوية التى قد تتكهن بإرادة إله الأرض فاحتفظ حوله بمنجمين ولكن كشراح لاككهان وعرافين، كى يقرءوا له طوالع الأجواء.

وعند الفجر على جبل أريكس كان الكهنة يستقبلون شروق الشمس بوجوههم وهم يسكبون خمر التضحية من آنيتها أمام تيرافيم خيمة تابوت العهد (التيرافيم كلمة عبرية تطلق على نوع من التماثيل أو الأصنام التى كانت تحتفظ بها الشعوب غير الإسرائيلية فى منازلهم لعبادتها واستخبارها عن المستقبل).

ولما كان هاملكار لايقر له قرار من حيث المسكن فقد احتفظ بأصنام أسرته فى هذه الخيمة الصغيرة، وقد كان جميع القرطاجنيين يتطلعون صوب المشرق لحاجة يحسونها أكثر مما كانوا يدركونها، فهناك تقع أرض ميلاد أسلافهم من الساميين " الفينيقيين " الأرض الحمراء ففى تللك الأيام الخوالى ولعلها كانت هى ساحل الخليج العربى - تلك الأرض التى نزح هؤلاء

الأسلاف منها إلى أرض كنعان وإلى الشاطئ " الخصيب من البحر المتوسط.

وكان القوم بهذه الأرض الحمراء يحصلون على معاشهم من البحر لا من مصايد الأسماك وحدها - كانت صور مقر هذه المصائد أول موانيهم البحرية - أو من مادة الصباغة الأرجوانية التى كانوا يحصلون عليها من بعض أصداف معينة تعيش بمياه (صُور)، إنما من نقلهم البضائع فى بسالة للاتجار فيها عبر البحر وهم يحملونها على سفن من صناعة أيديهم.

ولقد دعاهم النبى حزقيال (حزقيال هو أحد الأنبياء الذين ظهروا فى عهد بنى إسرائيل القدامى وجاء ذكرهم بالتوراة) أمة متاجرة مع جزائر كثيرة "، وإذ كانوا ملاحين يَذْرَعون البحار ذهابا وإيابا فقد شيدوا مدنًا قوية على الجزائر الصخرية المجاورة للساحل وبالرغم من هذا كانت مصونة من الجماعات المسلحة التى كانت تنتشر هناك، أما أقوى مدن الفينيقيين فقد تكدست من فوق جزيرة صور الصخرية، ومن أعماق القارة كان تجار صور يجلبون، عن طريق القوافل، من دمشق وسبأ وأدوم المواد الخام ومن مصر والزجاج من بابل ومن هذه المواد كان مهرة أصحاب الحرف ينتجون مصنوعاتهم.

وليس ثمة شك أن أرض صور الصخرية لم تكن مصدر رزق لأهلها الذين اعتمدوا على فلاحة الأراضى المجاورة للحصول على الطعام.

ويروى المؤرخ " سترابو" أن " غنى (صور) جاء من براعة سكانها " براعة الفينيقيين الساميين التى تركزت فى نقل البضائع ومقايضة المواد الخام ببضائع مشغولة أو العكس، وفى عهد حيرام الملك أنشأوا أسطولا فى البحر الأحمر لحساب النبى سليمان عليه السلام من أشجار أَرْز لبنان الباسقة، وقضبان الحديد المستخرج من جبل طوروس، والقلوع المصنوعة من كتان مصر، وفى مقابل هذا كانوا يستخرجون الذهب من مناجم أوفير وبخور المر والعود الثمين من سواحل سبأ.

وكـان الفـينيـقـيـون أول الأقـوام، وقـد يكونـون آخـرهـم، الذين أقـامـوا حضـارتهم على التجارة، ولذلك كانوا ينتعشون دون عناء فى أوقات السلم، وهـى الفترات التى بين التنازع والغزو، وكان جيش سنحاريب واحداً فقط من بين جيوش كثيرة جاءت لحصار قلعة صور النائية عن الشاطئ.

وعندما استسلمت هذه المدينة الأم لحكم الفُرْسِ عام ٥٣٨ ق.م- قبل أن يصمد هاملكار فى قلعته الجبلية ضد الرومان بثلاثة قرون تقريبا - أمسك الفينيقيون أودهم وحافظوا على مصالحهم بما قاموا به لملوك الفرس العظام من خدمـات عن طريق النقل البـحـرى، ولقـد بقى تخطيط صـور بموانيـهـا المشـيَّـدة دون أن يطرأ عليـهـا أى تغـيـيـر، ولعل ثروتهـا زادت تحت حكم الإمبراطورية الفارسية ولكن أهلها أصبحوا رعايا عاجزين عن أن يواصلوا مزاولة الملاحة التى خُلقوا لها.

"لقد توغل بك الملاحون إلى مياه عظيمة ".. هذا ما قاله حزقيال عن هؤلاء القوم، وقد عنى المحيط نفسه بذكره للمياه العظيمة هذا المحيط الذى راضه الفينيقيون ببناء سفن تدعمها القلاع والمجاديف معا لارتياد مسالك البحر العميقة إلى أقاليم نائية، بدلا من الإبحار قرب السواحل أو على مَرْمَى البصر من جزيرة أو أخرى، وكان ربابنة الفينيقيين السوداء يجعلون مسراها على هدى من أوضاع النجوم، وبهذا أخذوا عن الكلدانيين معرفتهم الأولى لعلم الفلك. " حكماؤك ياصور ربابنتك " فلقد جازفوا حيث لا تستطيع قوارب التجديف الخفيفة البقاء، مستخدمين رياح البحر الأبيض الموسمية، متنبهين للتيارات غير المرئية، واضعين فى أذهانهم كيف أن رؤوساً صخرية تقوم بغير أسماء قد أنتصبت كالديدبانات على طول الشواطئ الغربية، ومحددين المداخل الى الموانى الأمينة ومصاب الأنهار على الخرائط التى كانوا يخفونها فى غيرة عن باقى الملاحين فقد تعلموا كيف يهزءون بالعواصف أو يتقونها، ولقد واجهوا خطراً أعظم وهم فى سفن ملوك جزيرة

كريت البعيدة المدى عندما كانت تطاردها أحيانا أساطيل قوارب التجديف التى تملكها الدويلات اليونانية البربرية.

ولم يكن البحر المفتوح ليقع تحت نفوذ أية إمبراطورية. ولذلك كانت سفن البضائع تحت رحمة أية سفينة قوية التسلح تلتقى بها، وكانت سفن الحراسة الفينيقية، وقد برزت منها مناطحها البرونزية إلى الأمام، تخفر السفن الفينيقية إلى المراكز التجارية النائية لضمان سلامتها.

وكانت هذه المراكز كما كانت صُور نفسها مشيدة فى حماية جزر صغيرة صخرية على كثب من ساحل خصيب أو عند نهاية جزيرة يمكن الوصول إليها عن طريق البحر ولكن يتعذر عن طريق اليابس، كما كان الحال مع قرطاجنة - المدينة الجديدة.

وهكذا كان البحر يجرى فى دم أسلاف هانيبال. فالذين ينحدرون فى سفن إلى البحر يتعودون على اجتياز المخاطر ويصبح الحذر جزءاً من طباثعهم.

وأنه لمن المأثور أن ثَمَّةَ ظمأ إلى الحرية لا يفتأ يلح على كل ملاح يبحر فى سفينة مخلفاً اليابس إلى ماوراء الأفق ولما كان الفينيقيون ممن قد ارتبطوا بالبحر فقد حاولوا بكل وسيلة تجنب أهوال الحرب، إذ كانوا قد وفقوا إلى الاكتشاف العظيم بأن مسالك البحر العميق كانت أكثر الطرق أمانا لربطهم بالشعوب المنعزلة التى يفصمها التناحر عن الشواطئ.

ولهذا أصبح المتوسط طريقهم العام إلى القارات فحاولوا خداع منافسيهم بما راحوا يقصونه عن أهوال هذا البحر الأسطورية - عن الجزيرة التى حبس فيها إله العواصف رياح السماء، وعن الساحل القصى الذى يتساوى عنده الليل والنهار، ويقطنه " الغول " الذى يلتهم لحوم البحارة الغرقى، حتى لقد ساق هوميروس هذه القصص ضمن أساطيره.

وبالرغم من هذا فقد حارب أهل صور المخادعون الراغبون فى السلام،

حتى آخر رمق من حياتهم، دفاعا عن حرية مدينتهم، وعندما فقدواهذه الحرية كانت صور نفسها قد " أرغمت على الصمت وسط البحر " .

وكانت قرطاجة، المدينة الجديدة، حتى هذا العهد، ترسل كل عام منحة مالية إلى معابد آلهة آبائهم (بصور)، وكانوا يفعلون هذا بالرغم من وجود معابد لنفس هذه الآلهة، تانيت وأشمون والثانى وميلكارت، فوق مرتفعات قرطاجنة، وقد جعلت تقاليد ألف عام كهنة هاملكار يتجهون بابتهالاتهم صوب الشرق، وهم يحسون شعورا بالتوجس من الغيب، أما اسم هاملكار فمعناه ابن ملكار، رب المدينة القديم.

أما والد هانيبال، هاملكار باركا نفسه، فكانت له شجاعة الأسد غير المستقرة ولهذا تقاطرت لخدمته الجنود المرتزقة من كل فج عميق، فلم يضن عليهم بالعطاء، ثم أقبل بوجهه إلى شأن آخر له قدره، فكبراء قرطاجة وأشرافهم، من أعرق الأسر التى انحدرت عن أهل صور.

وأسرة باركا التى نزحت من القيروان الذين عالجوا الحياة وعقولهم نَهَبٌ مقسَّم بين ارتباطهم بالتقاليد فى عبادتهم لآلهة كنعان، مستسلمين للتضحية، معزولين عن بقية الشعوب، متوجسين من ترقب القدر المحتوم الذى قد يستلزم منهم التضحية حتى بأرواحهم، فكانوا يتقدمون بابتهالاتهم صوب الشرق مقر أسلافهم.

أما الجانب الثانى من العقل القرطاجى المغاير لهذا، فقد راح ينشد العون من المخترعات محاولا استخدام الظروف لصالحها وتحسينها، حتى لقد فتتت رموز الكلام العتيقة إلى حروف منفصلة تبتدئ بألف باء كما فعل السوريون وبعض اليونانيين.

وقد أسفر هذا التصور القرطاجى لوسائل أفضل عن إخصاب للتربة العادية، وتخطيط طرق جديدة للعمل، للغرب المجهول مع سكانه البرابرة.

وقد سار هاملكار باركا على هذا الاتجاه الجديد بعد أن ضرب صفحا عن التقاليد، وراح ينشد مستقبلا لا شأن له بالقديم ولأمرمًّا، بعد أن احتلت الجيوش الرومانية الظافرة جزيرة صقلية، وجد سبيلا لمواصلة الحرب دون أن يكلف خزينة قرطاجة المجهدة شيئا، بتحصنه فى جبل أريكس مع بضعة آلاف من الرجال الذين كان يدفع لهم أجورهم من جيبه الخاص، ولم يكن من الميسور مهاجمة الأشم، وحتى فى حالة العجز عن إمداده بالطعام الكافى.

لم يكن هاملكار ليسلم حصته عند رأس القنطرة التى تجعله على كَثْب من العدو، وكان صيادو السمك يستحضرون صيدهم من سمك التونا أعلى سفح الجبل، وفى بعض الأحيان كانت تتسرب مركب سريعة داخل الخليج المخفور لكى تفرغ على الشاطىء قبل الفجر شحنة من قرطاجة.

وكان هذا ضروريا للصمود أمام الحصار الذى فرضته سفن روما الحربية وأسطول " سراقوسة " القوية الذى كان من المستطاع رؤيته وهو يقوم على حراسة البحر الخارجى وميناء بافورماس المجاور، فكان هذا هو علة يأس قرطاجة لكنه خلال الصراع المتقطع لمدة ثلاثة وعشرين عاماً سادت هذه الأساطيل الشمالية على سفن الساحل الإفريقى، وبذلك تلاشت سيادة قرطاجة على البحار.

وقد بدا للمستسلمين المؤمنين بالتقاليد القديمة من أهل قرطاجة أن هذه هى مشيئة الآلهة التى لاقدرة للبشر على تعديلها، ولذلك كانت محاولة هاملكار فى جبل أريكس ضربا من التحدى للأقدار ولا بد من فشلها.

ولقد كانت حركة بارعة من جانب المجلس القرطاجى عندما عَيَّن الرجل الوحيد الذى لايرضى أن يكون الداعية إلى الاستسلام لإجراء شروط الصلح مع العدو اللاتينى الذى لا يقل عنه ضعفا واستنفادا لقواه.

ولما كان المجلس مكونا من كبار رؤساء الأسر الثرية، فقد كان يضم

كثيرين من أسرى التقاليد من دعاة الاستسلام ومن خصوم أسرة هاملكار باركا أيضا، وكان السواد الأعظم منهم قد صمموا على الصلح، فإذا استطاع هاملكار باركا أن يكسب شروطا طيبة لهذا الصلح مع أصحاب القوة الذين يدعون أنفسهم بجمهورية الشعب الرومانى، فزيادة فى الخير، أما إذا أخفق فسيحط هذا من شأن أسرة باركا ويصيب كرامتها فى الصميم وكان شيوخ المجلس عادة لايثقون فى قائد مظفر حتى لو كان بمثل حجم هاملكار.

ولقد أدرك الصبى هانيبال النهاية فقط عندما تحركت آلاف الأشرعة من الأفق الغربى وعندما سمح لهم الحراس الرومان بالمرور، وقد أقبل أسطول النقل من قرطاجة كى ينقل الحامية من جبل أريكس ولذلك رسا فى الخليج الهلالى الشكل.

ثم ظهر هاملكار نفسه مع حَمَّالين يحملون جرارا من خمر البلح وزيت الزيتون تتبعهم عربات من الغلال وبهذا الإجراء مثلت خاتمة الجوع والحرب.

ثم وقع حادث تافه فى حد ذاته ولكن لابد أنه ظل عالقاً بذاكرة هانيبال فعند أعمدة مدخل منزله وقف حشدان من الناس على جانبى الطريق، أحد الحشدين، من الجنود المرتزقة يحملون أسلحة قد عنى بصقلها، فى تجمعات عسكرية، وكان بينهم إيطاليون من الجنود الهاربين من حكم الرومان، وعلى كثب منهم وقف عبيد آبقون ما زالت ترسف أعناقهم فى أغلال من حديد، وقد تجمع خلفهم نساء فى خرق بالية، فبرز أحد الجنود من بين الصفوف، وأذن له هاملكار بالكلام، فشرح الرجل فى لغة لاتينية مقتضبة أنه هو ورفاقه سيسلمون أنفسهم للرومانيين بعد خدمتهم الطويلة لهاملكار وعندئذ سيعدمون صلبا.

ثم ألقى العبيد بأنفسهم فوق الأرض ووجوههم فى الثَّرَى إذلم يكن لهم حق الكلام ومن فوق أجسادهم رفع العملاق الليبى عقيرته بالغناء فى صوت عميق مُلْقِيًا رأسه إلى الخلف حتى صلصلت الأقراط بأذنيه، ولما كان زعيما

طبيعيا للإفريقيين فقد كان متمتعا بحبهم جميها كما كان يتصرف دائما على هذا الأساس.

حينئذ أومأ هاملكار برأسه ثم مد ذراعيه صوب اللِّيبىِّ وعندما تكلم كانت زمردة نادرة تظهر، من بين الأحجار الكريمة التى تزين عصابة رأسه، فى وهج الشمس، ثم قال إنه أنصت بما فيه الكفاية وإنه سَيَرُدُّ عليهم جميعا فى صباح اليوم الثالث.

وطلع عليهم كما وعد ووقف بهم عند بهو المنزل بعد تقديم الضحية فى صباح اليوم الثالث، فصفق بكفيه القويتين، ثم راح يخاطب السامعين قائلا.

لقد توفرت روح النَّصَفَة فى الصلح الذى تم ولذلك سنحرص على الالتزام به فالجنود الهاربون لن يسلموا، والعبيد اللاجئون لن يردوا إنما سيرحل الجميع إلى مدينة قرطاجة سيدتهم الجديدة. ذلك لأن سلطانى قد انتهى بتوقيع هذا الصلح.

وقيل أن تهتف الجموع وهى فى غمرة من أفراحها المبهورة كان هاملكار قد عاد إلى منزله. وهكذا بعد ثلاث سنوات هبط رجال حامية أريكس من الجبل إلى السفن التى كانت فى الانتظار، ولكنهم لم يبتهجوا لمغادرتهم الأكواخ من هزالهم نتيجة لما عانوه من الجوع كما أنهم لم يكونوا يحملون سوى قدر ضئيل من الغنائم، وكانوا يقضون أوقاتهم على ظهر السفن يحسبون ما كانوا يستحقونه من أجور قبل كبراء قرطاجة الذين فى جيلهم وسلموه بكلمة واحدة.

وهكذا حدث أن أدت مَظْلمةُ الجنود المرتزقة إلى تألُّبهم الذى أسفر عن ثورة العبيد وأدى إلى الحرب الأهلية، التى قلبت خطط سيدهم هاملكار وسادة قرطاجة رأساًعلى عقب. كل هذا كان من شأنه أن يترك أثرا فى ذاكرة الصبى هانيبال الذى كان لايكاد يدرك ما يدور حوله من أحداث، وبجانب هذا فقد غادر السفن إلى خياة الترف فى قصر بالمدينة العظيمة،

حيث كانت تقيم فتياته وأشقاؤه الصغار، وحيث تلقفه المربون ومعهم الخدم لتلبية طلباته وبالرغم من هذا فلم ينس تماماً ذلك المعسكر الذى كان يضم رجالا مسلحين يلتمسون الرزق .

هذه لمحات من طفولة هانيبال الذى عاش أربعة وستين عاما، وكان على وجه التقريب قبل الإمبراطور الرومانى يوليوس قيصر بقرن من الزمان، وقبل الإسكندر ملك مقدونيا بقرن آخر.

وبالرغم من أن هانيبال كان قد انهزم فى موقعته الأخيرة وسرعان ما أعقب هذا تدمير قرطاجة مدينته ودكها من أساساتها، إلا أن هذا لا يمنع كونه عبقرية فذة قلما يجود الزمان بمثلها، ولا تزال تدرس فى شتى كليات ومعاهد العالم العسكرية وحتى يومنا هذا !!

ومن المسَلَّم به أنه كان عَلَمًا فى الحروب حتى لقد فاق الإسكندر فهماً، وتجاوز نابليون بونابرت قوة وتأثيرا، لقد خلف لخبراء الحرب المحْدَثِين انتصاره فى " كاناى "، هذا الانتصار الذى كثيرا ما حاولوا محاكاته وتكراره.

وأنه لمن غير المألوف أن تصمد ذكرى رجل واحد للأحداث طوال الأحقاب خاصة الغموض الذى كان يقتفى أثره خطوة بخطوة فاختراقه لجبال الألب وهو يقود جيشاً من الفيلة قد اعتبره المؤرخون لغزا، استهوى معظمهم بضعة قرون، ولا يزال حتى يومنا هذا.

وقد ملأت محاولاتهم لحل هذا اللغز مئات المجلدات التى تعج بها دور الكتب أما المؤرخون العسكريون فقد درسوه من جانبهم على أنه من أعلام الحرب البارعين حتى يكتشفوا سر نجاحه مع الجيوش - فهو أشد مراوغة من نابليون - وأن المجلدات التى وضعوها فى هذا الموضوع تكاد تصل إلى مثل عدد الكتب التى وضعها الباحثون عن طريقة عبوره لجبال الألب. أما حياة هانيبال بن هاملكار فمن النادر أن تجدها فى مُؤَلَّفٍ خاصٍّ بها، إلا أن تأتى مختلطة فى سياق وصف وقائعه الحربية.

هانيبال الصغير يشهد أول معركة فى حياته !!



2

كان عُمْر المدينة الجديدة قرطاجنة خمسة قرون، وإذ كانت فى الأصل قد أُنشئت لتكون ميناءً لإمداد الفينيقيين بالمؤن وغيرها وهم فى طريقهم عبر البحر إلى أسبانيا، فقد ظلت محتفظة بمعالم تنبئ عن هذا الأصل .

فعند طرف شبه جزيرة ضيقة بارز فى خليج تونس - عبر قمم الجبل المرتفعة المتشعبة - أقيم مرفأ خلف أرصفته العريضة آثر رومانى من الحجر مساحته أربعمائة قدم، حيث كانت السفن تحتمى عند أرصفته العريضة، من الرياح الغربية الشمالية، أما التلال المرتفعة فوق عنق شبه الجزيرة فكانت تحمى ميناء قرطاجة من أى زحف يأتى إليها عن طريق اليابس.

وثمة مرفأ آخر كان قد تم حفره لإعادة العمليات الحربية ، وكان كعجلة مستدير الشكل، داخل بهو من الأعمدة التى كانت تخفى عن الأنظار حوالى مائتى سفينة راسية هناك، وكان لكل سفينة ترسو أعمدة فخمة من الرخام تلقى عندها بمرساها وتثبت فيها حبالها وكان بروز العجلة مكوناً من جزيرة أقيم فيها مبنى قيادة بحرية .

كما أقيم برج مرتفع كأنه فنار دقيق الصنع لمراقبة المياه الخارجية، وكان يؤدى أيضا عمل برج الإشارات، وخلف مخازن بهو الأعمدة المغلقة تكدست الأخشاب والحبال والأسلحة والملابس الحربية، وباقي المواد اللازمة لعمل أسطول مخزونة بها وكان هناك سور للحراسة يمنع غير المسئولين من التجسس والتقاط الأسرار المتعلقة بهذا الميناء الداخلي الذي أنشئ للطوارئ.

وكانت هناك طريق عامة عريضة تؤدى إلى قلعة برسا القديمة، وقد خصص هذا المرتفع البالغ حوالى مائتى قدم فى مساحة لا تكاد تبلغ نصف مساحة معبد " الأكروبوليس " الشهير بأثينا، للمعابد العظيمة "تأنيت " الأرض الأم، وأشمون" الشافى - وهو أسكيولابيوس الإفريقى - و" ملكارت " و.. انت المساحة محدودة فى قلب قرطاجنة فقد ارتفعت المصانع سبع

طباق حول برسا، مستمدة ضوء الشمس من أبهاء مكشوفة فيها، وماء المطر بواسطة أحواض أقيمت فى أعلاها لتلقيها.

وهنا راح خيرة الصناع وأرباب الحرف الذين أمدوا أسواق البحر الأبيض المتوسط بإبداعاتهم، يعملون وينتجون، وكان لهم جمعياتهم المهنية التى يتلاقى أعضاؤها فى اجتماعات عامة ويدلون بآرائهم فى كل ما يتعلق بشئون المدينة.

وكان هناك طريق عظيم تحفه الأشجار من الجانبين، يمتد سبعة أميال على طول شبه الجزيرة، داخل حدائق تضم مدافن المدينة، وقد تناثرت بينها تحف فريدة من الفن الفينيقى هى قباب القبور، وكانت هناك صوب البحر، حدائق أخرى محاطة بالأسوار، تضم الأسر العظيمة التى أثرت وغنمت كنوزها عن طريق التجارة وقد احتفظت بعض هذه الأسر مثل أسرة "ماجو" الأستقراطية وأسرة "هانو" الحاذقة، بنفوذها فى المدينة عدة أجيال وكان أفراد أسرة هانو هم الخصوم الظاهرون لهاملكار الموفق الذى سطع نجمه فجأة.

وكانت هناك جماهير، ليسوا من مواطنى المدينة الجديدة، يسيرون عبر هذا الطريق المرتفع، وكان النوميديون، فى طيالسهم، يرقصون الخيول الرشيقة على وفق توقيع المزمار، وكان السودانيون يعبرون الطريق المغطى بالتراب، بأكتاف منتصبة بالرغم مما تحمله من أثقال

وكان الفلاحون الليبيون - وهم سكان الساحل الخصب الأصليون - يسوقون عرباتهم فى خضم السائرين وكان العراقيون الإغريقيون ذوو البشرة الداكنة، يفرقعون بسياطهم كي يخلو الطريق لعرباتهم التى توحى بالمهابة رغم طرازها العتيق، وكانت قطعان الجياد الغربية تتواثب فزعاً لدى رؤيتها الأفيال التى كانت تسير محملة بالأخشاب دون أن تعيرها النفاتا وكانت القوافل تلوح بالطرق الجنوبية مقبلة من أرض العبيد فى أعماق إفريقيا.

وفى الواقع لقد أصبحت طرق القرطاجنيين الرئيسية بمثابة الشرايين للقارة برمتها، فقد كانت محصولات إفريقيا إلى المدينة لتحولها إلى شحنات تحملها إلى غيره من ثغور البحر الأبيض المتوسط.

وقد أصبحت قرطاجنة مركزاً حسَّاساً للشعوب، ومدينة عالمية عند حافة البحر، ففى حوانيتها كانت لغة التخاطب الفينيقية تختلط بلهجات التخاطب الإفريقية الوطنية .

وكانت لغة الإغريق المهنية تختلط بلغة الشرق الآرامية وحقيقة الأمر أن قرطاجنة كانت إحدى مدن الشرق، فقد كانت مرتفعات شاطئ إفريقيا الحمراء تماثل تلك الأراضى الحمراء التى كانت على كثب من كنعان، وكانت لقرطاجنة خاصية أخرى، فقد ظلت المدينة دائما متمتعة بحريتها، أما صور فقد استسلمت لحكم الكلدانيين وللفرس من بعدهم، حتى جاء الإسكندر بجيشه المقدونى فدمرها .

أما الناجون من هذا الدمار عام ٣٣٢ ق.م من الشيب والنساء والأطفال فقد هربوا ينشدون السلامة بالمدينة الجديدة.

ومن قبل شاهدت " أثينا " و " كابوا "، أكثر مدن الشمال صلفا الأعداء يغزونهم فى عقر دارهم.ومن عجب أن قرطاجنة لم تكن حولها أسوار لحمايتها، وهى حتى ذلك العهد لم تكن فى حاجة إلى هذه الأسوار، فقد كانت المدينة فى حمى البحر الذى يكتنفها من كافة جوانبها.

وكانت المدينة الجديدة، على خلاف صور تحصل على مئونتها من البقعة المجاورة لها، فقد كانت حافة شبه الجزيرة تطل على سهل قد كسته بالخضرة حقول ممتدة حتى وادى نهر خصيب، والذى كانت تمتد خلفه مواقع الغابات القديمة السوداء، حيث أعادت أيدٍ ماهرة غرس أشجار البلوط والصنوبر بسرعة تعادل قطعها وإزالتها.

ولابد أن هانيبال كان قد صحب أباه غير المستقر فى تنقلاته حتى حدود الأماكن المتحضرة، حيث كان الليبييون يقومون على حراسة الماشية وفق إدارة رئيس القبيلة، ولعلهما زارا سيرنا (قسطنطينة) بين شعوب الصحراء على النهر فى الغرب، بيد أن الثورة العظيمة من عام ٢٤١ حتى عام ٢٣٨ ق.م التى شبت كالحريق بالإقليم المجاور، قد حتمت إقامة الصبى داخل القصر فى قرطاجنة، حيث كان هناك عالم إغريقى من علماء الرياضة يشرف على تحفيظ أشعار الأبطال لأشقاء هانيبال الصغار.

وسرعان ما انقلب الصراع إلى حرب أهلية فقد حاولت الأراضى المجاورة الخاضعة لقرطاجنة أن تخرج من حكم المدينة القائمة فوق شبه الجزيرة، ولكن هذا التناحر المدمر أخذ دورا أشد تعقيدا، فقد ضمت القبائل التى تعيش على السلب والنهب القرى التى كانت تعانى من ضرائب الحرب الفادحة التى فرضها عليهم سادتهم، بينما ظل الباقون على ولائهم لقرطاجنة، أما جنود أريكس القدامى (الذين لم ينالوا أجورهم كما كانوا يشتهون) فقد تزعموا الانقلاب .

ولم يكن للمدينة جيشٌ نظامىٌ يطاولهم ويصمد لهم، وكان الانقلابيون من الجانب الآخر، تعوزهم الزعامة الرشيدة الحازمة، ولذلك عمدوا إلى الإرهاب، وإذ أحست قرطاجنة بالخطر الداهم الذى يهددها فقد سحبت السلطة من أسرةِ هانوا، واستدعت والد هانيبال هاملكار باركا كي ينفرد بالسلطان.

حينئذ استدعى هاملكار قواتٍ جديدةً، فخف لنجدته جموع من فرسان النوميديين، وخرج طابور من الأفيال المكسوة بدروع من الجلد، من باب المدينة متجها صوب دخان القرى المحترقة وبهذه القوات غير المتجانسة أفسد دهاء هاملكار على جموع الثوار انقلابهم ثم حاصر الباقين منهم فى خانق مسدود ثم أفناهم عن آخرهم.

وبعد أن أعيد فتح الطرق المؤدية إلى ساحل إفريقيا الذى ضمد

جراحاتها تناثرت على طول هذه الطرق أعمدة لاقى فوقها زعماء الثورة حتفهم، ومن بين الجثث التى كانت الطيور الجارحة تحلق فوقها جثة العملاق الليبى الذى كان كثير المباهاة بأقراطه، ولابد أن هانيبال ابن الثمانية أعوام قد شاهد شيئاً من آثار هذه الحرب الضروس .

ولعله إلى ذلك الزمن المبكر تعود فى عزوف هانيبال عن شئون الحرب وفى تردده فى الزج برجاله إلى ميدان الوغى وهو ما اتسم به هانيبال فى السنين الأخيرة.

ولقد ابتليت قرطاجنة وهى منهكة بفزع جديد وهذا ما جعل عام ٢٣٨- ٢٣٧ ق.م حاسما بالنسبة للمدينة.

فقد وصل طلب جديد من روما التى كانت قد عقدت الصلح حديثا وكان هذا الطلب يتعلق بانسحاب القرطاجيين من جزيرتى سردينيا وكورسيكا وعودتهم إلى دفع التعويضات الحربية وقدرها ألف ومائتا وزنة من العملة الفضية، وهى ماسبق الاتفاق عليها وفقاً لشروط الصلح الذى عقد بينهما عام ٢٤١.

فهاملكار كمندوب عن قرطاجنة كان قد قبل تلك الشروط على أنها معقودة بين نِدَّين حيث تتنازل قرطاجنة عن جزيرة صقلية بأكملها، وتدفع تعويضا عما تكلفته روما فى هذه الحروب، وتلتزم كل من الدولتين منطقة معينة لنشاطها التجارى عبر البحر، وألا يحاول أى منهما التعرض بالسوء لحلفاء الآخر.

وقد رفض هاملكار أيضا رجاء القادة الشماليين تسليم الجنود الهاربين والعبيد الآبقين، وبينما الثورة الإفريقية وشبكة الانتهاء كانت قد وقعت مناوشات بين الحاميات القرطاجية بموانى الجزائر الأخرى التى فى البحر التيرانى - سردينيا وكورسيكا اللتين كانتا فى الواقع على كثب من الساحل الإيطالى.

وقد تدخل مجلس الشيوخ الرومانى على غير توقع مستغلا حالة ضعف قرطاجنة وإنهاك قواها للمطالبة بانسحاب هذه الحاميات - وهذا يعنى تسليم الثغور - وفى حالة الرفض استئناف القتال مع قرطاجنة وإعلان الحرب عليها من جديد عقاباً لها.

وكان تسليم سردينيا وكورسيكا فى رأى المجلس المشْرِف على برسا، له معنى أكبر من ضياع بعض واردات الخشب والمواد الخام فهو يعنى ضياع الموانى التى تيسر الوصول إلى جانب الغربى من البحر الأبيض المتوسط .

وكان فى تسليم صقلية الواقعة فى وسط الطريق بين أقصى أطراف إيطاليا وشبه جزيرة قرطاجنة سد السبيل أمامهم كقوة بحرية لها اعتبارها بالجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط، إذ لن يبقى للمدينة الإفريقية أية منطقة نفوذ بعد نفوذها وإحرازها قصب السبق قرابة ثلاثة قرون - ما لم يقع أمر ليس فى الحسبان وكانت مسألة دفع تعويضات مضاعفة من المنغصات الهينة إذا قورنت بتسليم هذه الجزر ذات الموقع الاستراتيجي الهام.

وكان من أعضاء المجلس ممن يؤمنون بالقضاء والقدر، كتلك التى حدثت بقصر بابل، أما أولئك الذين أطار الغضب صوابهم فقد أعلنوا أنه كان لزاما على هاملكار ألا يغادر أريكس، بينما أدرك السواد الأعظم استحالة شن حرب جديدة على قوات روما التى قد أنعشتها الهدنة ثلاث سنوات كاملة .

ويبين سِجلُّ التاريخ أن قرطاجنة سحبت حامياتها، وتخلت عن الجزر وجمعت العملة الفضية لدفع تعويضات الحرب، بيد أن غضب القادة الذين رضخوا لهذا الإنذار النهائى وبحثهم العاجل عن منطقة جديدة لنشاطهم فوق البحر الأبيض المتوسط، ظهر فقط بهذا الإجراء الذى اتخذوه ذلك العام.

وبهذه الطريقة وفى هذا الوقت اتخذت أولى خطوات صوب التناحر الأعظم فى سبيل السيادة عن منطقة البحر الأبيض المتوسط، ذلك التناحر

الذى عرفته الأجيال التى تلت بأم الحرب الهانيبالية .

وقد شاهد هانيبال، وهو فى التاسعة من عمره، أول الاستعدادات فقد دكت الخوازيق فى الأرض لإقامة أسوار ثلاثية الطباق، وقد صمم السور الداخلى على أن يكون ذا أبعاد بالغة الضخامة - عرضه عشرون خطوة وارتفاعه قدر ارتفاع الرجل سبع مرات - وعلى بعد رمية قوس من هذه الأسوار التى لايمكن اختراقها، كانت ستقام الحصون، وفى الجانب الداخلى تبنى حظائر للفيلة المدربة وإسطبلات لآلاف الخيول، ومخازن لحفظ علف هذه البهائم، وكانت هناك رقعة أعلى السور الفسيحة ستستخدم كدعامة تثبت فوقها أحدث آلات المنجنيق الحربية وكان من شأن هذا السور عند إتمامه أن يجعل المدينة عزيزة المنال، منيعة عن أن يطولها أى هجوم برى، أو هكذا كانوا يؤملون.

وقبل الشروع فى العمل بحالة مرضية، تأهب هاملكار للنزوح إلى أرض جديدة فى الغرب، تقصر عن أن تطولها القوة الرومانية وكان سيذهب مع هاملكار زوج ابنته الكبرى وبعض الضباط وقدامى الجنود الإفريقيين .

وقد علم هانيبال أنه لم يعد هناك جيش من الجنود المرتزقة كأولئك الذين عرفهم فى جبل أريكس. وكان طريقهم صَوْبَ الشمس الغارية، فى الخلاء بين أعمدة هرقل إلى ساحل المحيط وكانت الرحلة ستتم فى هدوء على سفن متفرقة تنشد مقرّاً لم يفض به إلى أحد. وقد استعاد هانيبال العظيم إلى ذاكرته، بعد هذا بزمن طويل كيف أن والده قام بزيارة جميع النبلاء والضباط ليؤدوا قسما فيما لو اختاروا أن يصحبوه، وقد توجهوا كى يفعلوا هذا، إلى معبد ملكارت على قمة برسا حيث راحت حمائم "تانيت " تحط حواليهم، وقد خرجوا من وهج أنوار القصر الزاخر بالجموع إلى ظلام المحراب، وعند المذبح راح هاملكار يصلّي للإله الذى اشتق منه اسمه ثم ذبح حمل الضحية وهو يحمل فى يده قدحا كبيراً.

وقد روى هانيبال ما حدث قائلا :

لقد سكب والدى دم الضحية المقدسة للإله، وكنت واقفا قرب المذبح، فلما فرغ من تأدية الطقوس الدينية أمر جميع المشتركين فى الضحية أن يعودوا قليلا إلى الوراء، ثم استدعانى إليه وسألني فى رفق بالغ عما إذا كنت راغبا فى اصطحابه فى رحلته، وكصبى صغير وافقت بل توسلت إليه أن يسمح لى بهذا.

وحينئذ أخذنى من يدى، وقادنى إلى المذيح، وأخبرنى أن أضع يدى الأخرى على حمل الضحية، ثم طلب منى أن أقسم على ألا أكون صديقا قط للرومانيين وقد فعلت هذا .أما القسم الذى أداه أفراد أسرة هاملكار لدى نزوحهم إلى أسبانيا فقد أصبح ذا شأن حيث جعل هاملكار جميع أبنائه يقسمون على ألا يكفوا، عن معاداة الرومانيين .

ومنذ ذلك الوقت، وحياة الأبناء وخاصة حياة هانيبال قد كُرِّسَت منذ ذلك العهد لتنفيذ قسم صباه ولكن ضباطاً قرطاجيين أيضا قد أدوا هذا القسم.

ويبدو أن هانيبال بالذات يذكر هذا القسم على أنه من أحداث نزوحهم فى سبيل المهمة الجديدة التى سبق البت فيها وزيادة على هذا فروايته لعبارة القسم لها معنى محدد مغاير بعض الشىء فعبارة " ألا أكون صديقا قط للرومانيين " لا تذكر شيئا عن عداوة العمر بأكمله.

فقد كان للمصطلح اللفظى (عند مجلس الشيوخ والشعب الرومانى) في ذلك الحين مفهومٌ سياسىٌّ واضح مثله مثل مفهوم كلمة " حليف " فإذا أنت أصبحت صديقا لروما فقد رضخت للحكم الرومانى، وأنت تفعل هذا أيضا كحليف ولكن فى هذه الحالة يبقى لك بعض المزايا وقد بسط " يوليبياس " الأمر كما يلى :

" عندما ينتهى الرجال إلى شروط للصلح بعد تحطيم روحهم فقد يوثق

بهم كأصدقاء ورعايا ".

وقد طلب هاملكار وأقسم هانيبال ألا يستسلم للحكم الرومانى، وكان غضبهم هو علة هذا القسم لا نتيجته. وقد بسط "بوليبيباس" هذا أيضا على طريقته الخاصة فقال: " علينا أن نلاحظ العلة الأولى للحرب وقرطاجة (الهانيبالية) ونردها إلى غضب هاملكار والد هانيبال " .

فقد أعلن الرومانيون أنهم لديهم نية شن الحرب على قرطاجنة من جديد كانت هذه المدينة مستعدة للتفاوض فى كل نقاط النزاع القائم، ولكن عندما رفض الرومانيون إجراء مفاوضات اضطر القرطاجانيون إلى الرضوخ للأمر الواقع، بالرغم مما أحسوه من ألم وضيق إزاء هذا الإذلال المهين .

كانوا ضعفاء عاجزين، ولذلك انسحبوا من سردينيا ووافقوا على دفع اثنتى عشرة ومائة وزنة زيادة على المبلغ الذى أُرْغِمُوا على دفعه من قبل... فعلينا أن نعتبر أن هذا هو السبب الرئيسى الثانى لهذا الصراع ذلك لأن هاملكار قد طغى عليه الغضب الذى اشترك فيه جميع مواطنيه .

وقد أضاف المؤرخون الإغريقيون معلومات جديدة فقالوا : لابد من التسليم بأن السبب الثالث هو نجاح المشروع القرطاجى بأسبانيا .

وعند حلول فصل الربيع بطقسه الملائم للإبحار، أصدر الربابنة أوامرهم للإقلاع فسحبت سفينة هاملكار العظيمة من قيادة البحرية عبر القناة إلى المياه التجارية.وقد أضيئت المصابيح أمامه بقمرة السفينة وفقا للطقوس الدينية ثم رفع البحارة شراع السفينة.

وعلى رصيف الميناء راح أعضاء المجالس ورجال القضاء فى ملابسهم الفضفاضة يرفعون أكف الضراعة سائلين للمسافرين سلامة الترحال.

أقلعت السفينة ذات المجاديف العشرة والخمسين بحاراً من الجبل المقدس وقد أخذ وميض الرخام يسطع فوق مرتفع برسايخبوا فى زرقة

السماء فوق خط الشاطئ الأحمر.

ولم يكن فى استطاعة الصبى هانيبال وهو يراقب كل شىء من موقعه عند مؤخرة السفينة الظليل أن يصدق أن ستة وثلاثين عاما ستنقضى قبل أن يشاهد قرطاجة مرة ثانية.

وقد ظلت هذه السفن ستة أيام وست ليالٍ تضرب فى فيافى البحر صوب الغرب ضد رياح غير مواتية بعيدة عن مرامى البصر من ثغور التموين القرطاجية بالجانب الإفريقى ومتوغلة فى بُعدها عن جزر الصنوبر وجزر البليار بالجانب الأوربى ثم تلقفتها أمواج المحيط الخارجى فمرت بعمودى هرقل التوءمين (جبل طارق ومرتفع سوتاى) ثم جنحت السفن شمالا إلى جزيرة صغيرة على الساحل الأوربى.

وعندما رست سفينة هاملكار حياه أعضاء المجالس فى أثوابهم الفضفاضة مقتصرين فى حسن ضيفاتهم له على العبارات الرسمية إذ كانوا يريدون أن يقفوا أولا على سبب مجيئه إليهم.

وقد رد هاملكار تحية أهل جاوس فى أدب جم وبالرغم من أنه كان يحمل وثيقة ممهورة تثبت مرتبته (حامى حمى، قرطاجة فقد أبرز معها خطاب ضمان يؤكد لأهل جاوس أنه سيدفع قيمة ما ستتكلفه المهمة المنوط به تنفيذها).

وكانت مهمته هذه فى فتح أرض أسبانيا وتحويل هذا الطرف الغربى للقارة الأوربية فى أقصر وقت مستطاع إلى بقاع جديدة لقرطاجة وعندما يتم تحويلها حينئذ تستخدم للتوسع فى التجارة على طول سواحل المحيط الغربية.

وكان فى هذا البيان الذى أدلى به هاملكار كثيرٌ من الصِّدّق لا الصدق بأكمله لأن شبه جزيرة إسبانيا العظيمة كانت أمنع من أن يطولها نفوذ روما ففى الداخل كانت تعزلها أسوار جبال برانس حيث كان يجري استخراج ثروة

جديدة من مناجمه كما كان يمكن إعداد جيوش جديدة من سكان إسبانيا غير المتحضرين. وبهذه الوسيلة تصبح أرض إسبانيا خطا للدفاع عن قرطاجة المنهوكة القوى.

وبهذا أصبح من المحتمل قراءة لقب هاملكار (حامى قرطاجة) على وجهين وعلى أية حال فلم يبق سوى وقت قليل لإتمام هذه المهمة لم يكن الأطلسى سرا مغلقا على البحارة القرطاجيين بالرغم مما تحملوه من عناء فى سبيل إخفاء هذه الحقيقة .

وقد ظلت جاوس أو (أغادير) محط تجارة المحيط الأطلسى حيث كانت تستقبل السمك المجفف والعنبر والصفيح لأهميته فى صناعة البرونز .

ولم يستطع منافسو الفينيقيين أن يعرفوا من أين كانوا يَأْتون بمعدن الصفيح الثمين وعندما اشتد عود قرطاجنة فى القرن السادس أُستخدمت القوة فى سبيل المحافظة على أسرار تجارة المحيط الأطلسى .

وأصبحت جاوس مركز الرقابة على الخليج المؤدى إلى المحيط الخارجى ومن الواضح أن هذا الحصار البحرى للمخارج كان مصوناً تماما فعندما خرق أحد المنافسين وهو القبطان " بيثياس " من أهالى " مرسليا " هذا الحصار، وعاد ليروى حقيقة ما شاهده اعتقد العلماء الإغريق أن قصته كانت حديث خرافة.وقد أصبحت نهاية هذا الجزء اليابس من أوربا تعرف باسم هسبانيا " أى القطر الخفى ".

وخلف هذا الحجاب من التكتم راح القرطاجنيون يذرعون المحيط الأطلسى حتى جزر (كاناريا) وربما جزر (أزور) وقد قام أحدهم المدعو هيميلكو بمسح السواحل الشمالية محدداً الشواطى الحقيقة بتجارة الصفيح وهى كورنوول وبريتانى على امتداد المرتفعات البيضاء بالجزيرة العظيمة المسماه (البيون) (هو الاسم الذى كان يطلقه قدماء الإغريق والرومان على

بريطانيا) والجزيرة المقدسة الأصغر منها المسمى أيرلندا.

وقد انضمت قصة هيميلكو على هذا البحر الراكد الآسن إلى قصص الفزع التى كان يحمى بها القرطاجيون أسرارهم.

وفى نحو هذا الزمان عام ٥٠٠ قبل الميلاد قاد قرطاجى آخر يُدْعَى هانوا اسطولا بحريا هبط به من أعالى إفريقيا .

ولم تكن هذه رحلة سهلة ميسرة فقد حملت السفن ـ التى كانت يتألف منها هذا الأسطول ـ ثلاثين ألفا من البشر العاديين والبحارة والمستعمرين .

وكان هانوا بصدد تنفيذ مشروع محدد واضح المعالم ولذلك كان ينزل عند مصاد الأنهار الخصيبة وهو فى طريقه صوب الجنوب كما كان يلتقط المترجمين لخدمته عند مقابلته للأهالى فى المرحلة التالية .

على أية حال فقد كان لقرطاجة، فى عهد هاملكار، موانيها التجارية على ساحل إفريقيا الغربى - حيث لم يعد الملاحون الأوربيون إلى الظهور.

وكان القرطاجيون الفينيقيون فضلا عن هذا، أول شعب سَجَّل له التاريخُ قيامَه بإنشاء مستعمرات عبر البحار، وقد فعلوا هذا فى مغامرات حرة، وبذلك قطعوا الخطوة الأولى نحو عصر جديد وطريقة جديدة للحياة تربط بين مدينة ذات ثقافة والشعوب الهمجية فى الخارج وكان السبيل لإنشاء إمبراطورية حتى ذلك الحين قائما على الغزو، إما عن طريق الإذلال الأشورى الخالى من الرحمة، وإما عن طريق سيادة المصريين الهينة الرقيقة أما قرطاجة نفسها فلم تحكن فعلا سوى امتداد الساحل ما بين سيرتا التى تسكنها قبائل البدو وصحراء سايرتس الصغيرة ولم تحتفظ قرطاجة ـ كما هو الحال مع الدولة الهولندية ـ بأكثر من نواة فى أرضها الرئيسية، تدعمها مستعمرات مترامية الأطراف، فلم تحاول هذه المراكز التجارية أن تحكم الاراضى التى تجاورها، بل كانت تساعده وتنظم شئون التعدين والزراعة فيها.

وتصف كلمات حزقيا التالية مثل هذا الثغر التجارى القديم : ترشيش

التاجرة بحكم ما لها من شتى ضروب الغنى بالفضة والحديد والقصدير والرصاص تاجرأهلها مستبدلين بها سلعك .

وقد ظل أهل (تريش) هؤلاء عزوفين عن الاختلاط بأصحاب السلع، يعيشون على نمط خاص من الحياة بقرب جاوس على ساحل المحيط الأطلسى. وهكذا استدعى هاملكار كى يغير لأول مرة هذا النظام العتيق الخاص بالروابط المغرقة فى إقليمتها وليخضع كل شبه جزيرة إسبانيا مع سكانها الكثيرين لحكومة قرطاجة .

وقد ظل هاملكار باركا قرابة تسع سنين وهو يلهب نفسه مع من جاءوا معه للعمل دون إشفاق فماكان هذا الرجل ليطيق أن يرفه عن نفسه أو غيره بأى ضرب من ضروب الراحة فى سبيل معالجة شئون الأفراد، وكان سقوط قطرة الماء فى الساعة المائية المعروضة ببهو مقره الرسمى كدقة ناقوس الخطر منذرة أن الزمن ينقضى، وبقدر الكسب الذى الذى كانت توفره قوة هاملكار الدافعة الكبيرة كانت الخسارة التى يتسبب عنها نفاد صبره.

وقد فطن هدرويال، زوج ابنته الكبرى، الأريب إلى ميزة ونقيضة " برقة " الذى كان دائما قائدا لقوم شاكى السلاح، وكان هدلرويال المغامر على حسب تسميتهم له يمتلك مشروعات للتعدين وفرت الثراء، أما هانيبال الذى ظل ملازما لوالده بركة، فقد كان على علم بالفارق بين الاثنين ولكنه كان فى تلك السن يكن لوالده ولاء أعمى.

وقد وجه القرطاجيون قاعدة للعمليات تنتظرهم بأسبانيا، وبإبحارهم إلى أعالى نهر بيتيس (جواد الكبير) من جاوس دخلوا أرض الجنوب الجميلة ذات المراعى النضرة والمدن الهادئة.وقد استقبلهم أهالى البلاد بجرار الخمر والأوانى الفضية المليئة بالفواكه. بينما أخذ الراقصون يتواثبون برقصاتهم حتى كانت أطراف ثيابهم الفضفاضة السوداء تتطاير على وقع المزمار والأغنية التى كانوا ينشدونها .

هؤلاء هم سكان جنوبى أيبريا : كانوا نصف مثقفين ونصف قرطاجيين فى عاداتهم، قد انحدروا عن أسلاف من البرابرة الذين نزحوا من إفريقيا عبر المضيق الضيق، وكان ثغرا (ملفا، وأبديرا) بهذه البلاد يحتلهما القرطاجيون.

وكان يقوم بالحراسة خارج الأبواب تماثيل حجرية لأبى الهول مع رجال ضخام ملتحين وكانت هذه التماثيل تؤلف حرسا غريبا عرف طريقه إلى بلادهم، منذ زمن قد طواه النسيان من نهر النيل أونهر دجلة.

ولعل الصبى هانيبال كان قد قرأ هوميروس وهو يجوس خلال وادى نهر بيتيس البهيج كيف أن هنا في أقصى الغرب كان قد يقع وادى الأليزيوم (الأليزيوم فى أساطير اليونانية هو المكان الذى تذهب إليه أرواح الأبطال بعد الموت) حيث يحيا الأبطال ويكسرون شوكا الموت... " ستشيعك الآلهة إلى وادى الأليزيوم حيث نهاية الأرض وحيث يقيم (لرادامنسوس) (جاء فى الأساطير اليونانية أن رادامنسوس هو أنه الإله زيوس وأن هناك ثلاثة قضاة يحاسبون الموتى عند انتقالهم للعالم الآخر) ذو الشعر الجميل، وحيث الحيا ميسرة إلى أقصى حدود اليسر فلا جليد هناك ولا عواصف .وقد يصدق بعض هذا فى عالم الواقع. فقد تقدم هاملكار بطلبات تتعلق بهذا السهل الأيبيرى لدى اختياره لحالته، فقرر أن يزاد عمق المناجم حتى تبدو ما فى باطنها من أملاح مترسبة. وأن تشق القنوات بين رءوس الأنهار، والأخشاب تقطع من غابات البلوط.والشباب الذين كانوا يمثلون المعارك وهم يلعبون ويلهون، ويُدَرَّبُون على الحرب وينتظمون فى كتائب .

وقد استحضر هاملكار مهندسين وضباطا لمعاونة أيبريا على تأسيس دولة عظمى. وكانت الجبال الفضية ترتفع شامخة عند منابع نهر بيتيس، وكانت هذه الجباتل (سييرامورينا) تحوى فى أحشائها كنز أسبانيا وكان هذا الكنز عظيما حتى إن ربابنة السفن من أهل مسيلا أقسموا أن مركبا قرطاجيا أقلع يوما من الساحل بمجاديف من الفضة النقية .

وقد اكتشف مهندسو هدرويال خامات صخرية تحوى سبائك طبيعية من الذهب والفضة وتحت إمرتهم انتصبت مداخن أفران جديدة للصهر كما حولت ينابيع الجبل صوب الصخور التى يلمع فيها الذهب كى تغسل هذا الذهب وتنقيه من الرواسب.

أما كاستيولا فكانت قلعة الجبال التى تتوج سلسلة من المرتفعات المشيدة بكتل حجرية ضخمة وقد دخل هاملكار هذه القلعة كضيف لسادة كاستيولا فمكث هناك ليملك عليهم ويحكمهم.

وإلى شمال هذا الحاجز امتدت هضبة مترامية جافة كان قدهبط إليها أبناء الفاتحين الكلتيين وقد مستهم ثقافة أيبريا حيث أقاموا فى بيوت مستديرة مسقوفة بالبوص بين قطعان من الماشية الصغيرة بيد أن دمهم الكلتى كان يسوقهم إلى أن يؤثروا الغزو والإغارة على التجارة وقد ظهر هاملكار بينهم ظهور البرق الذى اشتق منة اسمه فأخذ رهائن من رؤساء القرى وهاجم القلاع الحجرية القديمة المنعزلة فوق المرتفعات التى يحتلها ملوك تجرى فى عروقهم الدماء الكلتية والإيبيرية معا.

وكان هاملكار يتجرد من الرحمة فى معاملته للراغبين فى الحرب وكان هؤلاء الإسبانيون البرابرة يمتطون صهوات جيادهم وهى مسرجة وبالرغم من أنهم كانت تعوذهم براعة رجال هاملكار النوميديين فقد كان لديهم الاستعداد الطبيعى كى يكونوا من خيرة الفرسان وكانت حشائش الأسبارتو الطويلة التى تنمو بوديانهم صالحة لعمل الحبال .

ولقد جهز ملكا جيشا قويا من الفرسان لطرد القرطاجيين إلى البحر فتقدم هاملكار لملاقاة العدو ومعه حاملو الأعلام فوق الحراب وهم بفرقعون بسياطهم والنوميديون يصكون الآذان بصوت مزامارهم ثم أطلق عشرين من أفياله المدربة، المكسوة بدروع جلدية استعداداً للحرب وكان لهذه الحيوانات أثر نفسى على الرجال الذين لم يعتادوا عليها، كما أنها كانت

تفزع الخيل، وسرعان ما تبددت جموع الكاتبريين، ثم طورد ملكهم حتى قبض عليه، وأخيرا ساقوه إلى هاملكار فأمر بسمل عينيه ثم صلبه، أما بقية الأسرى فقد ألحقهم بجيش أسبانيا الناشىء.

ومن المتواتر أن هاملكار وقع هو وهانيبال وابن صغير فى كمين دبره رجال القبائل الذين دعوه لعقد محالفة، ولم يكن الكمين بعيدا عن كاستيولا - القامة البيضاء - وقد تخلص مع ولديه ولكنه طورد حتى أسفل الجبل، وعند أَحَدِ المنحنيات بالطريق عبر الجبال أمر " باركا" ابنه هانيبال أن يأخذ هو وشقيقه الأصغر طريقا آخر، وقد تبع الأسبانيون هاملكار وقتلوه عند نهر كان قد وُفِّق فى الوصول إليه.

أما هانيبال فقد ركب رأسا إلى الساحل وهناك فى مركز قيادة الجيش اجتمع أفراد أسرة باركا، وبعد إضرام نيران الحداد بالمعابد، انتخب قواد القرطاجيين هدرويال الأريب لقيادتهم بدلا من هاملكار، ثم سار جيش أسبانيا بأفياله للأخذ بثأر هاملكار المحبوب. بتدمير وسبى الأهالى الذين تسببوا فى قتله. ومرت ثمانى سنوات أخرى .

وأخيرا وقع تغيير بجنوب أسبانيا خلف ستار التكتم الذى أقامه القرطاجيون (داخل المياه المحرمة على السفن الرومانية وفقا لشروط المعاهدة).

وقد تخلى هدرويال السياسى الحصيف بفطرته، عن خطة هاملكار فى إذلاله للرعية مستعيضا عنها بسياسة الفتح الأدبى، فأنشأ صداقة بينه وبين رؤساء العشائر الأيبيرية بما كان يغدقه عليهم من فاخر الهدايا .زيادة على أنه أخذ لنفسه عروسا من إحدى أسرات أيبيريا .وبتعبير يتفق مع هذا العصر، لقد عمد هدرويال إلى تدعيم ماحصل عليه هاملكار من كسب - متحاشيا أخطاء الجندى العجوز.

وقد تناثرت على صفحة النهر أشرعة زوارق خفيفة من الجلد وغطت عيدان القمح النامية الخضراء أراضى الوديان، أما المعادن الثمينة التى كانت

تنتقل فى سلال فوق ظهور الحمير أو فى عربات تجرها الثيران، من الجبال الى مراكز الملاحة فقد زادت ثلاثة أضعاف، فكانت أيبيريا ترسل هديتها من رقاق الفضة إلى خزائن قرطاجة، واستعد هدرويال لصك عملة جديدة خاصة به .

وعلاوة على هذا فقد أهمل هذا الرجل - الذى خلق دولة إسبانية - مدينة جاوس على الساحل الغربى ليقيم بدلا منها ميناءً جديدا على الساحل الشرقى، ساحل البحر الأبيض المتوسط، على مسافة من أرض الوطن تقطعها السفينة فى مدة لاتزيد على أربعة أيام. وفوق خليج جميل يحميه مرتفع صخرى، وضع مساحو هدرويال تخطيطاً للميناء على رقعة يزيد محيطها على ميلين، وكان أهل أيبيريا يطلقون على هذا الموقع اسم (ماسيا) وكان لهم هناك معبد قديم، وعمد القرطاجيون إلى العمل متحدين الزمن فشقوا قناة تمر بمرتفع المعبد منحدرة إلى بركة ضحلة مغلقة راكدة الماءوانشأوا ساحات للسفن حول البركة الحصينة، وفوق مرتفع المدينة المزمع إقامتها شيدوا معبدا لأشمون وقصرا صغيرا لهدرويال على جناح الميناء الداخلى وكذلك وضعوا أساسات سور للدفاع وبمجرد أن أصبحت أرصفة الميناء معدة للاستعمال أصدرت دار صك النقود قطع العملة الجديدة.

وعلى أية حال فلم يكن من المستطاع أن تلاحظ السفن ميناء لها مثل هذه الأبعاد عندمرورها بها وكان الشبه عجيباً بين هذه الميناء وميناءات قرطاجة بإفريقيا ولذلك سرعان ماحمل التجار اليقظون أنباءها إلى روما على أنها قرطاجة الجديدة وواضح أن حركة الشحن ستدب الى أحواضه.

وكان لهؤلاء التجار المسيلين (المنحدرين عن بحارة الإغريق) ميناء تجارى فى أقصى الشمال على مصب نهر إبرو العظيم عند ساحل، الأرض الخفية، الشرق كما كانوا يحتفظون فى خيالهم بصورة حية للقرطاجيين المخادعين وهم ينهبون التجارة الساحلية .

ولما كانت مدينة مرسيليا حليف الجمهورية الرومانية فقد التمست العون من حاميتها وعندما حل الوقت المناسب لم يتخذ الرومانيون قط أى إجراء قبل مناقشته فى مجلس الشيوخ مثل مندوبون من نهر التيبر أمام هدرويال ملتمسين منه أن يتعهد القرطاجيون بعدم تخطى حدود الإبرو وهم يحملون السلاح.

وقد أعطى هدرويال الكَيِّس الأريب هذا العهد بالإنابة عن قرطاجة وبهذا العمل قطع دولته المزمع إقامتها عن خط أسبانيا الطبيعى وهو جبال البيرانس، وبهذا اعتراف لروما بالنفوذ على بعد ٦٥٠ميلا من نهر التيبر هنا على نهر الأبرو. وقد اكتسب بهذا دون شك وقتا ثميناً جداًلإتمام استعداداته.

وقد ذكر الجواسيس فى تقاريرهم إلى مرسيليا ومنها إلى روما، إذ أبدى مهارة رائعة عجيبة فى إغراء قبائل الأهالى الوطنيين على الانضمام إلى إمبراطوريته. ولكن الوقت كان يمر بسرعة فبعد خمس سنوات من توقيع معاهدة الأبرو اغتيل هدرويال.

والمتواتر عن هذا الحادث أن خادما كلتيا قتل عاهل إسبانيا الجنوبية، ومثل هذه الفعلة تتفق فى روحها تماما مع طبيعة محارب كلتى يجتر غيظه، وبعد هذا يبقى الاحتمال، الذى لايدعمه دليل، بأن هذا الاغتيال جاء بإيحاء من أعداء القرطاجى المردة الأقوياء.

وقد أثار هذا الانتخاب بعض المناقشة بالمجلس فى قرطاجة فمشروع إسبانيا قد أسفر عن نجاح ملحوظ.كما هيأ لأرض الوطن موارد لم تكن فى الحسبان.

ولكن خصوم باركا ادعوا بأن هدرويال الغريب كان قد جعل من نفسه ملكا عَبْرَ البحر فى كل شىء أنه لم يكن قط من بين حُماة قرطاجة.

أما عن الصبى هانيبال فلم يكن هناك من يعرف شيئا عنه، ولذلك فقبل إسناد الحكم الجديد إليه، ومع ذلك فقد بقى هذا السؤال: ماذا يرتقب من ابن هاملكار الشابِّ؟

هانيبال ابن العشرين ومولد قائدٍ أسطوريٍّ !



3

يشترك كل قادة الحرب العظام عبر التاريخ أن كلا منهم قد كان يتمتع بعبقرية فَذَّةٍ تصل أحيانا إلى حافة الجنون، لكن تظل قدرتهم على الابتكار فى مواجهة المواقف العصيبة هى معيار تفضيل أو تفوق أحدهما على الآخر، حيث تجعل هذا البطل دون غيره ذا فكر خاص وفريد يستحيل على سواه أن يلجأ لمثله. ورغم التشابه الكبير بين كل هؤلاء الأبطال عبر ساحة التاريخ إلا أن كُلا منهم يعد في حد ذاته نسخة فريدة لا تتكرر .

كان هانيبال فى الحادية والعشرين من عمره، وهى سِنٌّ كافية لكى يتم صاحبها فيها تكوين طباعه، ومما يروى عنه أنه ألقى بنفسه يوما فى نهر يعج بمياه الفيضان ثم قطعه سباحة خلال صخور يدوى فيها تيار الماء ليدعو آخرين خلفه.

ولقد قالوا إنه لم يكن يهوى حياة الترف الناعمة داخل أبهاء القصر. ولذلك كان يؤثر النوم فى رداء من جلد الأسد متوسدا الثرى فى حراسة ديدبان .

وكان يخف إلى العمل دون تردد إذا ما اعترضته الصعوبات كما كان يظل ثابت الجنان قوى الجأش عند الملمات، وكان يحتمل الحر ويتحمل المشاق دون أن يبدو عليه الإرهاق.

وقد كان هانيبال قد كشف عن بعض خصائص غريبة فقد كان مُقِلا فى طعامه وشرابه وكان يرتدى ثيابا فضفاضة ولباسا للرأس من الصوف العادى الأسود ويضع فى قدميه حذاء الركوب الطويل الذى كان يستخدمه الأسبانيون، ولهذا فلم يتميز فى منظره إلا بروعة أسلحته المرصعة وسرج جواده المطهم ولم يكن هذا مألوفا لدى القرطاجيين خاصة هدرويال الأريب وكان فى هذا يشبه الأيبريين.وكذلك الفرسان والصيادين وهم فى طرادهم فوق الأراضى الجبلية الوعرة.

وكان هانيبال يميل إلى الضحك والتفكه حتى يستغرق نفسه ومن معه بالسخرية والدعابة، وهذه هى الأخرى صفة كان يشاركه فيها سكان الجنوب من أهل إسبانيا وهم غير منطوين على أنفسهم مرحون يمتطون صهوات جيادهم ويخرجون فى سفرات بعيدة للمشاركة فى المهرجانات والاحتفالات ولاترهبهم آلهة القدماء وكانت لهجة التخاطب عندهم شديدة الشبه فى سرعتها باللغة القرطاجية .

وقد مضى هانيبال فترة حياته وهو مراهق فى وديان أندالوسيا .وقد عرف نساء يبهرن الأنظار، يغطين خصلات شعورهن السوداء المعقوصة بقلنسوات لامعة. وقد اختفت آذانهن وراء ثنيات مرصعة بالجواهر.

وقد تزوج بإحداهن وهى إحدى أميرات كاستيولات من قوم "أولكاد" ولم يعرف التاريخ عن الزوجة سوى اسمها " أمبلس" .

وقد قال شاعر إن حبَّهما كان قائما على الذكريات.ولعل هذا الزواج كانت له صبِّغَةٌ سياسية، لأن قوم أولكاد كانوا حماة الحدود القائمة بين جبل الفضة الذى يملكه الأيبريون والهضبة الوسطى التى يستوطنها الكاربيتانيونيون البرابرة الذين لايدينون بالولاء لأى عامل على الإطلاق.

وهناك مايشير إلى الاحتمال بأن إسبانيا قد أثرت على خلق هانيبال وطبيعته أكثر ما تكشف عن سجلات التاريخ، وليس ثمة من ينكر أن الأرض الخفية، وقد استحوذت على مشاعره، ولقد خص حتى قوات أيبيريا المسلحة فى السنوات التنالية بإعزازه .

ولعله قد فكر لدى وصول نبأ موت هدروبال إليه فى هذه البلاد كما لو كانت بلاده ووطنه بصرف النظر عن قرطاجة وعداء البحر المتوسط .

ولذلك قام بحركته الأولى سريعا كيما يمد سلطانه إلى الشمال.وقد قسمت شبه جزيرة أسبانيا كما حدث ببلاد الغال عند فتح يوليوس قيصر

لها فيما بعد إلى ثلاثة أقسام أى أن سكان البلاد كانوا على ثلاثة أنواع.

وقد لاحظ البعض أن قيصر الذائع الصيت أبدى فهما ضئيلا لطبائع الشعوب الغالية حتى ليثير العجب أنه قد استطاع أن يروضهم فى يوم من الأيام.

ولم تكن هذه هى الحال مع هانيبال بن هاملكار الذى شب بين الإسبان وتزوج واحدة منهم، واجهد نفسه - كما سيظهر عاجلا ليعرف أكثر ما يستطيع عن جميع سكان شبه الجزيرة الآخرين وكانوا كثيرين دون شك .

فأول وأصغر ثلث فى أسبانيا كات يتألف من التارتسيين والأيبريين المقيمين بالساحلين الجنوبى والشرقى .

أما الثلث الثانى فكان مُكَوَّنًا، دون انسجام من الغزاة الكلتيين الذين استوطنوا هناك، وقد مزجوا تقاليد بلادهم بالطرائق والوسائل التى نالوها عن الحضارة الأيبيرية، فهؤلاء البرابرة المتهورون العاطفيون ذوو الأذرع والسيقان الطويلة، كانوا قد اعتادوا أن يحرقوا جثث موتاهم، بينما كان الإيبريون يدفنون موتاهم ومعهم الهدايا لعالم الأرواح فى مقابر متقنة الصنع مثل القرطاجيين المتفوقين عليهم .

ومن ثَم فقد أخذ هؤلاء الذين جمعوا بين الدم الأيبيرى وبين دم القرطاج بكلا التقليدين إذ استمروا على حرق موتاهم، ولكنهم أصبحوا يدفنون رفاتهم فى آنية دقيقة الصنع مع عطايا من جميع الأسلحة التى يملكها أولئك الموتى.

وقد استوطن هؤلاء القوم سهولَ (ميسيتا) حول منابع نهر ناجوس حيث تقع توليدو فى الوقت الحاضر.

وقد احتل الكلتيون الذين وفدوا أخيرا الثلث الأخير من إسبانيا فى الشمال وقد اجتاز هؤلاء القوم حواجزجبال البرانس بجماعات من الأقوام الجرمانية العتاة الذين طردوهم من أنهار بحر البلطيق.

وكان هؤلاء الكلتيون المحاربون الذين أَطْلَقُ عليهم المراقبون الرومانيون اسْمَ الغاليين فى ملابسهم الصوفيه الملوَّنة .

وكانوا يرفهون عن أنفسهم بموسيقى القرب ويستحضرون بطبول كهنتهم آلهة الغابات التى كانت لآبائهم والتى كان من بينهم واحد غريب يجمع بين الإنسان والخنزير فى منظره.

وقد تركوا هؤلاء الكهنة خلفهم فى مكان ما خلال أسفارهم ولكنهم ظلوا على تمسكهم بتوجهات المجالس المكونة من المسنين منهم .

ويتصرفون فى أنفسهم بالفأل والطِّيَرَةِ، وفى الليلة التى يكون فيها القمر بدرا يرقصون.فى غير رشاقة، حول نيران يضرمونهافى مهرجاناتهم ويغذونه بأبدان أسرى الحرب وهم أحياء وكانوا أقوياء بعديدهم فإذا ماأثيروا ركبهم شيطان مريد .

كان هذا كله وأكثر منه معروفا لهانيبال الذى لم يكن لديه من الوقت ما يسمح له بأن يتم فتح أسبانيا .ولذلك راح يتقدم من نور المدينة بالمدن الساحلية إلى الأراضى الجبلية البدائية بمعاونة مجلس أركان حربه الهزيل العدد من القرطاجيين المتعلمين يدعمه الإفريقيون المدربون وكتائب الأيبيريين نصف المدربين وطابور الفيلة الذى تتخلع منه القلوب.

وكان عليه بهذا العمل أن يؤدى مهمة مزدوجة فهو كرئيس لأسرة باركا كان القائد الأعلى الذى يراعى مصالح مجلس قرطاجة.

أما فى نظر الأقوام الكلتيين فكان من الواضح أنه ملك ذو ثروة طائلة وجيش مناسب من المحاربين ولكن الضرورة ألجات هانيبال إلى أن يلعب دور ملك من العصر الحديدى فى كلمته الحد بين الحياة والموت .

وقد مرت سنون طويلة قبل أن يستطيع هانيبال التخلى عن لعب هذا الدور.

وقد رأى هانيبال بعين رأسه أسبانيا وكأنها صندوق الدنيا لما فيها من شعوب متنافرة غير المتجانسة لا تكف عن التناحر والقتال تُغِيرُ على محاصيل الآخرين لتُضَاعف محاصيلها وإلى جانب هذا لاتفقه شيئا-حتى رجاله الإيبيريين عاشوا مترفعين فى وادى نهر بينيس -عن ماهية الحكومة المركزية ولذلك كان هانيبال يرى التأثير عليهم والاستحواذ على مشاعرهم ثم يسوق إليهم ما يوضح به هذا فيما بعد.

وكان عليه أيضا أن يقود الصفوف بنفسه فى كل مرحلة تتقدم فيما قواته وقيل إنه أول من كانوا يلقون بأنفسهم فى المعمعة عند الحرب .

ففى هذه السن ينبغى على القائد أن يكون حاضرا بنفسه مع أية جماعة عاملة وحتى رجال هانيبال الإفريقيون كانوا دائما يؤثرون ان يكون بنفسه على رأس جموعهم حين يتقدمون إلى أية بقعة تنفيذا لأوامره وصحيح أن هدروبال كان قد انتدب هانيبال للإشراف على إمداد الجيش الجديد بالجنود بعد أن يشرف على تدريبهم .

وكان الجنود يطيعون ابن هاملكار فى ولاءٍ، ولكن شخصية هانيبال لم تكن قد ازدوجت بعدُ ومن المحقق أن مهربال الجندى العجوز نفسه لم يستطع أن يفرض قانونا ونظاما غير مرغوب فيهما بأسبانيا التى كانت تعمها الفوضى.

ولقد قال عنه المراقبون: (لقد كسب صداقة رؤساء العشائر بدهائه إذ أخضعهم بالوعد والوعيد معا).

وفى مدَى عامٍ من تأديته لهذا الدور المزدوج، كملك يستطيع أن ينزل العقاب، ويهب الثوابَ وفق إرادته، كان قد حط بأواسط (تاجوس).وبينما كان يجند الشباب لجيشه فى أثناء تقدمه، ويهاجم المدن المعادية، قام بنشر جموعه المتزايدة فى أرجاء (سيدا جواداراما) حتى يظهر على غفلة بين قوم

"الثاكيين" الذين تصلهم بفرسان الكاربيتانيين رابطة دم بعيدة .

وقد طلب هانيبال من هؤلاء القوم ثلاثة أمور فقط: جزية صورية، وطعاما لقواته، ومجندين من الشباب الصلب العود تحت إمرته، الذين سينعمون بفوائد جمة من لحم مطهى كل يوم، ومن أجور تدفع لهم بعملة فضية.

ولكنه لم يكن لديه من الوقت إلا أقله ولم يستطع القوم البدائيون أن يدركوا مثل هذا التغيير فى التقاليد المنحدرة اليهم عن آبائهم ولذلك كانوا فى حاجة إلى بضع سنين للتفكير والبت فيما يجب عليهم فعله بهذا الشان فلم يستطيعوا ان يفهموا لماذا ترك هذا الرجل القوى غير المستقر خيمته ليتحدث إليهم فأخذوه من يده ليرشدوه عند عودته إلى مقر قيادته، حيث يستطيعون الجلوس فوق فرش من جلود الحيوانات، ويتذاكرون فى كلماته الغريبة (كان قد تعلم لغة المولَّدين من الكلتيين والايبيريين) وقد استقر عزم قبائل الشمال على التضامن لمقاومته كما حدث من قبل لهاملكار فى أقصى الجنوب.

وقد شرع الثاكيون ومن المحاربين بنوع خاص يتجمعون فى حشود كبيرة من الفرسان. وقد تلقى هانيبال النصيحة من ضباطه بأن يشن الحرب دون إرجاء، ولكنه كره أن يفعل هذا .

وكان من المحتمل ألا يتيسر خروجه مع مشاته لملاقاة زُرَافَاتٍ من الفرسان الطليقين الهائمين فوق هذه السهول المغطاة بالحشائش .

ولذلك فقد استعاض عن هذا بقيادته لقواته فى حركة تقهقر عائدا إلى نهر تاجوس السريع الجريان فخفت جموع (السلتيبريين) وراءه فى حشود متزايدة إلى حيث وجدوا أن القرطاجيين قد انسحبوا على طول الشاطىء الجنوبى للنهر.

وعندما اندفع فرسان البرابرة ليعبروا النهر، وجدوا أنفسهم يصارعون

مياها عميقة بينما راح حاملو الحراب المدربون يصدونهم عن الشاطىء.

كما انتشرت الفيلة التى تلقى الرعب فى القلوب على طول النهر، وتحطم ضلوع الفرسان وترسل الخيل تعدو ملتاثة لا تلوى على شىء.

وقد فر جيش القبائل مذعورا فتبعه القرطاجيون للقضاء على فلوله، وانتشرت هيبة الغزو القرطاجي من السهل الأوسط إلى الساحل الشرقى، حتى نهر الإبرو دون أن يلتحم الخصمان فى موقعة معينة.

وقد أُقيم على ذلك الساحل مركز للمقاومة حول مدينة قديمة محاطة بالأسوار فوق مرتفع صخرى أطلق عليها الأيبيريون الذين شيدوها اسم (آرس) بينما سماها الرومانيون الذين اهتموا بها أخيرا (ساجوتم) وهذه الحركات الحربية بالأراضى المجاورة كلفت هانيبال القَلِق الشىء الذى كان يهمه جدا أن يحرص عليه وهو الوقت.

كان زعماء العصر الهلينى. (نسبة إلى هلاس وهو الاسم الذى كان يطلق قديما على بلاد الإغريق أو اليونان) كانو ذوى مواهب جمة، وبعد أن شق الإسكندر الأكبر والمقدونيون طرقا، وصلت إلى الشرق حتى جبال الهند خرجت من مدن آسيا العظيمة نظريات جديدة فى العلم والزراعة إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط، وانتشرت التجارة على طول الطرق الجديدة، وساعدت على نمو مراكز الاتصال مثل رودس وأفسس والإسكندرية، التى كانت قد أنشئت حدبثا قرب مصب النهر.

ومن تلك البقاع وصلت التجارة والأفكار سواءً بسواءٍ الى الموانى الغربية مثل سراقوسة بجزيرة صقلية " مجد بلاد الإغريق، وأصبحت لكنة التخاطب الإغريقية معروفة من مرسيليا حتى الهند.

وفى عهد خلفاء الإسكندر، تنبه رجال من البحر الأبيض المتوسط إلى الآراء العالمية التى قللت من شأن فلسفة المدارس القديمة، حتى من المدرسة

الرواقية التقدمية نفسها، فقد كان زينو، شيخ الرواقين فينيقيا إلى حدمًا.

وفى سراقوسة، كان أرشميدس الكهل يعالج مسألتىْ القُوَى الرافعة والثِّقل النوعىِّ للمعادن.

ولكن لإصرار هيرو حاكم سراقوسه المطلق، راح أرشميدس يضع خلال ساعات فراغه تصميمات لسفينة شراعية متناهية الضخامة وعمالقة آليين للدفاع عن ميناء سراقوسه عند الحاجة .

أما فى الإسكندرية، حيث ضمت دار الآثار مكتبة عالمية فإن خبيرا آخر من علماء الرياضة هو أرتوستينيز، من إفريقيا أعد جداول فلكية من الحقائق العلمية التى وصل اليها الكلانيون، كما وضع مؤلفا فى علم تقويم البلدان عن العالم كما كان معروفا حينذاك .

وقد بت " أراتوستينيز " فى مسألة حجم الأرض الصحيح، التى طال النقاش حولها، بإجراء تجربة على ظل الشمس عند الظهيرة فى بئر عميق جاف، ولقد قالوا عنه إنه كان له خمسة عيون فى بدن واحد.

وقد أظهر هدرويال الأريب هذا التعدد نفسه فى المواهب عند تنفيذ مهماته كمستغل للمناجم وبناء المدن وسياسى وصانع يدوى ماهر، وكحاكم أيضا ود انتقال جميع هذه المسئوليات المنوعة إلى عاتق هانيبال،وهو أصغر فى السن كثيرا.

فهانيبال لم يبد تفكيره كماهو معلوم فى مشروعات للبناء أو معاضدة للتجارة بل ترك مثل هذه الشئون لشقيقة الأصغر الذكى .

أما هانيبال فقد راح فى خضم ذهنه يرتاد شواطىء البحار التى حوله، ولعله درس الخريطة الساحلية لرحلة "ارون " كما جاء بالأساطير الإغريقية أو سجل رحلة هيمليكو، البحرية ولعله كان قد طالع المؤلف المفقود الذى وصفه الإفريقى الآخر " أراتوستينيز" فى الوسائل والطرق عن الموارد

الطبيعية وارتقائها العلمى .

لقد جاء أرتوستينيز من القيروان وهى مواطن أباء أسرة باركا، لقد سخر أرتوستينيز الإسكندرى من أساطير هوميروس قائلا : " سوف نهتدى إلى طريق أوديسيوس عندما نعثر على الإسكافى الذى صنع حقيبة الرياح .

وقد استدعى هانيبال المدير الطبى سنهالوس الإسكندرى، لا طبيبا من جزيرة كوس حيث كان الأطباء يعالجون المرضى عن طريق عمل المعجزات .

وقد أظهر هانيبال إلى جانب هذا اهتماما كبيرا بتاريخ الشعوب التى حوله وخاصة ما يتصل منها بالرومانيين الذين لم يكن قد عرف بعد من تاريخهم سوى القليل، وقد يصح الجزم بأنه درس نظام حياة بيروس الجندى المغامر الكبير الذى لم يكسب شيئاً من الانتصارات التى أحرزها ضد الرومانيين.

وعلى أية حال لم تكن هناك كتب كثيرة مدونة لمطابقتها وكان لهانيبال كغيره من رجال ذلك العصر يحرق زيت مصابيحه فى الماء منصتا لربابنة البحر العائدين والتجار الوافدين والشعراء الجوالين وجواسيسه الذين يذرعون الأرض وهم جميعا يفضون إليه بما صادفهم على السواحل الأخرى.

وكانت نزعة حب الاستطلاع عند هانيبال تبدو دائما متأججة فهو يسأل: ماذا كانت العادات خارج بلاده، وأية محاصيل يجمعونها .وما هى مواعيد جمعها؟ أية تقاليد كانت سائدة بمرسيلسا، وأية معادن كان القوم هناك يستخرجونها لصناعتها، وما طريقة صناعتهم لها؟ ثم أين ومتى وجدت قبائل الكلتيين طريقها عبر الجبال المسماة بالألب؟

وقد امتد حب الاستطلاع عند هانيبال فشمل قوما يكتنفهم الخفاء مثل الاترسكانيين وحراسا للحيوانات يحيطهم الغموض مثل الليغوريين وكان يستجمع فى ذهنه صورة من الحقائق عن البحر الأبيض المتوسط،.

وفى نفس الوقت خلال الشهور الثمانية من عام ٢٢٠ كان يجتاز السهول الوُسْطَى، ويفكر فى الإمكانيات بين الكلبتيريين الذين لم يكن قد تم إخضاعهم بعد فبالرغم من أنهم لم يكونوا أقوياء البدن كالليبيين، فقد كانوا يستطيعون الصمود أكثر إذا ما اهتموا بالأمر - كانوا قصار القامة سمر اللون سريعى الحركة متوثبين كالنمر الأفريقى - فهم لهذا كانوا يصلحون لأن يكونوا فرسانا لانظير لهم إذا ما تيسر تدريبهم وقيادتهم.

وكانت ترعى فى الشمال قطعان من الخيول الضامرة الطويلة التى تتميز بقوتها وسهولة خطوها فهناك كان القوم يعبدون "أيبونا" إلهة تربية الخيل .

وكان هانيبال يرجو امتلاك هذه القطعان، فذهنه لم يكن ليغفل عن أصغر الأمور وكان طولُ السيف الذى يتقلده المحارب الكاتيبيرى قدمَيّن، له حَدَّان وكان مُعْوَجّاً بعض الشىء وكان من المستطاع أستخدامه برميه حرة من فوق ظهر الجواد.

وبعد ذلك فى ربيع عام ٢١٩ قبل أن يصبح الطقس صالحا للملاحة تماما ظهر مندوبان عن حكومة روما بميناء قرطاجة الجديدة يريدان مقابلة هانيبال فقابلاه .

وقد التمسا منه أن يلتزم بميثاق هدرويال فلا يعبر نهر إبرو وكذلك لايقترب من ساجونتم التى أصبحت حليفة للشعب الرومانى.

وكانت ساجونتم نفسها حصنا على الساحل فى نحو نصف المسافة بين قرطاجة الجديدة ونهر الأبرو، وكانت تبعا لذلك داخلة فى المنطقة الخاضعة لقرطاجة وكان بها جالية من تجار وحزب موال لقرطاجة .

ولذلك فقد ميزت المؤامراتُ والمؤامرات المضادةُ هذه القلعة المطلة على البحر،ولن يعرف قط ماذا حدث داخلها فعلا، ولكن يظهر أن أهل ساجونتم قتلوا بعض النازحين المقيمين قريبهم من التاريسسين، ثم استفزوا روما

يلتمسون حمايتها كحليف لبلدهم .

ولقد أجاب هانيبال بقوله إنه لم يكن للرومانيين كما ينص الميثاق، أى سلطان جنوبى الإبرو، وإنه بخصوص أهل ساجونتم فهم ظلموا التارينسسيين ولابد أن يحُاسَبوا على ذلك، لأن من عادات قرطاجة الموروثة، أن يَخِفُّوا لنجدة أى شعب مهيض الجانب.

وهكذا رفض هانيبال الصغير السن طلب روما وعاد المندوبان إلى سفينتهما لنقل الرد إلى مجلس قرطاجة تنفيذا للأوامر الصادرة إليها من روما .وكذلك أرسل هانيبال تقريره الخاص عن الموقف إلى قرطاجة.

■ ■ ■

هانيبال القائد..
البحرُ لا يكذبُ!



4

شخصية هانيبـال مـزيجٌ من الرعب والقـوة والفن والذكاء والشـخصـيـة الكارزماتية والتصميم والشباب المغامر.

ويعتبـر هانيبـال من أوائل مؤسسي علم الجاسـوسيـة في العـالم فقـد كان يوظف الجواسيس لحشد المعلومات ويستخدم طرقا ذكية للغاية وكان هانيبال نفسه يعمل على تغيير شكله وشعره ويذهب إلى روما وإسبانيا ويدخل القرى والمدن للحصول على المعلومات الدقيقة .

وكان يعامل الأسـرى مـعـاملة حسنة ولم يبـعـهـم رقيـقـا ولا عـبـيـدا وكـان يساوي بينهـم وبين جنوده فـأحبـتـه كـثيـر من المدن التـي فـتـحـهـا .كـان هـانيبـال مـثـالا للقـائد العظيم والمتواضع فـي آن واحـد، ولم تكن له خـيـمـة تميـزه عن باقي الأفراد.

وأكبـر الظن أن ميـاه البـحـر المتـوسط نفسـه هـى التى كشـفت عن العِلَّة فيما وقع ابتداء من عام ٢١٩ ففـى هذا العام وصل الصـراع أشده بين قـوتين رهيبـتين جشـعين من بنى البـشر للسـيادة على هذه المياه واسـتـغـرق فى مـائة وعشرين عاما.

وليس ثـمـة شك أن خطأ غيـر مـرئى كـان يفـصل دائمـا جنـوبى البـحـر المتـوسط عـن شـمـالـه يفـصل الكتلة القـارية بأفـريقـيـا عن أوربا والسكان المصـريين من السـامـيين عن الغـزاة الأرابين الذين اكـتـسـحـوا شـبـه الجـزيرة الإغريقية وجزيرة كريت الجميلة .

وقـد انضم الفنيـيقـون الذين بالجنوب إلى الفُـرْس الذين بالشـرق ضـد الإغريقيين الدوريين، وكان لايزال باقيـا بعض العرف المشـترك بين مستوطنى الشاطى الجنوبى وغيرهم من المقيمين بالشاطئ المالى.

وكان ارتوسثينيز (كجغرافى) قد رسم تخطيطه الرئيسى عن البحر الأبيض المتوسط مخترقا مضيق جبل طارق وجزيرة صقلية معتليا جزيرة ردوس.

وكانت السواحل نفسها مختلفة تمام الاختلاف ففى الشمال كانت هناك بحار صغيرة بين أشباه الجزر وأنهار كبيرة قد غمرت الأراضى المجاورة وخلجان مأمونة تدعو السفن إليها بينما امتدت سلاسل الجزر حتى المواطن الناتئة.

أما فى الجنوب فقد امتد شاطى أفريقيا المُوحَش الى مالا نهاية وقد خلا تقريبا من الموانى ماعدا مصب نهر واحد عظيم نهر النيل .

وفى الشمال أيضا كانت الأمطار الت تهطل بغزارة تنبت المراعى للحيوانات وتمد جموع البشر المتزايدة بالغذاء.

أما فى الحنوب فقد اضطر القرطاجيون ألا يزاولوا الزراعة إلا لماما وأن يظلوا معتمدين على البحر .

فقد ازدهرت الزراعة بين سكان نهر التيبر اللاتينيين وظلوا زمنا طويلا -كما يبدو -قانعين بهذا.

وكان البحر المتوسط نقطة اتصال واحدة تتلامس عندها جميع السواحل حيث امتدت به شبه جزيرة إيطاليا، عبر مضيق مسينا صوب جزيرة صقلية التي كان طرفها الغربى لايبعد عن قرطاجة بأكثر من مائة وعشرين ميلا .

وكان هذا الحاجز الأرضى بدوره يفصل النصف الشرقى الكبير من البحر المتوسط عن النصف الغربى، وكان لاجئون من شعوب مختلفة ينزحون من وقت لآخر من الشرق الى الغرب الذى كان لايزال همجيا غارقا فى الجهل.

كما نزح الاتروسكانيون من آسيا الصغرى إلى شمالى غربى إيطاليا والفوكيون إلى مصب نهر الرَّاينْ عند مرسيليا .

وقد حمل المستعمرون من مدن أرض الوطن الإغريقى معهم مشاحناتهم وانتصاراتهم إلى الموانى الهادئة فى مؤخرة إيطاليا وإلى تارينتام (تاراس) وسيبارس المترفة وحول طرف الجزيرة الأمامى حتى المدينة الجديدة تابولى حيث لاقوا عندما حان الأوان التجار الاتروسكانيين وقد بنوا مدينة

سراقوسة، فى عهد مبكر جدا على ثغر مغلق محصور من ناحية اليابس.

وبهذا خَلقوا من جَنُوبِى إيطاليا ذى الشمس الدفيئة ومن شرقى صقلية أرضا إغريقية عظيمة أطلقوا عليها اسم "ماجنا جرايكا " (معناها المستعمرات اليونانية فى إيطاليا) وقد أطلق هذا الاسم قديما على المدن التى أنشأها المستعمرون الاغريقى جنوبى أيطاليا وظل مستعملا حتى استولى الرومانيون على المستعمرات الإغريقيه عام ٢٧٢ قبل الميلاد ".

وقد نشطت مع الوافدين تجارة الشواطى الشرقية النامية، وفى سبيل التنافس على إحراز الثروة الجديدة راحت سفن اتروسكا ومسيليا وسراقوسة تتدخل مرتادة مسالك البحر البعيدة، وتتناحر فوق سطح الماء لتجد أخيرا أن البحرية القرطاجية قد فرضت سيادتها على غربى البحر الأبيض المتوسط (لانعزال مارسيليا عن الخلجان وكان تجارها يحملون معدن الصفيح الثمين من شواطىء المحيط الأطلسى منحدرين من نهر الرومان) .

وبالرغم من أن عتاة سراقوسة دافعوا بمرارة عن شواطئهم ضد الأساطيل القرطاجية فإنهم لم يستطيعوا أن يصدوا الأفارقة عن الطرق البحرية العميقة فى الغرب بعد ان زادت أهميتها نظرا لأن معدنى الذهب والفضة الثمينين كانا قد راحا ينفدان من مناجم الشواطئ " الشرقية وكان الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط فى حاجة متزايدة إلى المواد الخام.

ولكن بعد انتهاء القرن الثالث تم القضاء على محاولة بايروس ملك أبيروس لإنشاء إمبراطورية بجنوبى إيطاليا.

كان هانيبال يقوم بدراسة كل ما حدث فى هذه السنين.فلابد أنه عرف فى وضوح أكثر مما نستطيع معرفته هذه الأيام كيف أن معظم إيطاليا كانت تتحكم فيها مدينة روما وحدها.

وعن طريق الإصرار الشديد والكفاح المتواصل بسطت روما وحليفاتها

نفوذها على أواسط إيطاليا، وأخضعت كابوا أغنى مدن الإغريق الجنوبية وأكثرها حضارة، وعندما اشتدت قبضتها الحديدية على "بايروس" حتى أعادته مدحورا إلى سفينته زادت سرعة زحفها صوب البحر - سقطت تارينتم الشهيرة عام ٢٧٢ ومدينة ريجيام على مضيق مسينا عام ٢٧٠ ق.م.

وبعد هذا التاريخ بست سنوات تبعت بعض شراذم من رجالها عددًا من الجنود المرتزقة الذين دعوا أنفسهم "رجال إله الحرب" عبر ذلك المضيق غير الآمن الضيق.

وعلى غير ترقب من المشتركين فى مسالة مسينا، كان ثمة انقلاب مسيطر على امتداد البحر الأبيض المتوسط، فالدويلات القديمة كانت قد كفت عن الاحتفاظ بمراكزها كقوات جبارة.

وكان سلطان الولاة المستبدين أو الحاكمين بأمرهم فى طريق الزوال ولعل "بايروس" كان آخر هؤلاء الحاكمين.

ومن ثم، فقد أخذ التوسع الرومانى طريقة فوق اليابس بينما امتدت زعامة قرطاجة فوق الماء.وقد صح معهما المثل القائل بأن النزاع لا يقع بين أسد وحوت وإذ كانا على علاقات ودية كل فى دائرته فكثيرا ما ارتبطا بمحالفات سياسية حرة، وظلا هكذا حتى عهد انتصارات (بايروس) فقد عرضت قرطاجة أن ترسل أسطولا لمساعدة مجلس الشيوخ الرومانى (وحتى تبعد جيش أبيروس عن جزيرة صقلية ذات الموقع الحربى الممتاز)

وأخيرا تلامست الدائرتان عند مضيق مسينا، فتغلغلت المناوشات إلى داخل هذه المدينة ومهدت المؤامرات الطريق لأعداء الجيوش، وقد صمم هيرو الثانى آخر عاهل لسراقوسة على أن يعمل لنصرة الكتائب الرومانية فعرض عليهم أن يتخذوا من مدينته الحية قاعدة لأعمالهم الحربية، وأن يستخدموا أسطوله لنقل عتادهم، أما سلطان قرطاجة على نصف الجزيرة

الغربى فقد تحطم، ولم يفطن مجلس ببرسا إلا متأخرا إلى أن مفتاح الجزيرة للبحر المتوسِّط قد يَضيعُ.

وكانت المدينة الإفريقية حتى هذا التاريخ تتبع سياسة تحديد الحروب وحصرها فى نطاق ضيق، وإعداد الأساطيل الحربية عند الحاجة إليها فقط.

وكانت قرطاجة تعتمد على الجنود المرتزقة الجانب فى تكوين جيش يمكن حله بعد دفع أجور رجاله وتأدية مهمتهم، وكذلك كانت تنهى الحرب بمجرد تحقيق أى هدف لها.

أما فى روما، فكانت سياسة الدولة هى التى تخدم الجيش، وقد كسبت روما استقلالها من جيران أقوى منها فقط بفضل كتائبها التى كونت منها جيشا قوميا رائعا.

وقد قال بايروس فى مرارة "إن هؤلاء البرابرة ليسوا برابرة على الإطلاق فى الشئون الحربية".

ولأول مرة فى جزيرة صقلية وجد القواد الرومانيون أنفسَهم وقد اعترضتهم قيادة بارعة وموارد منوعة لقوة أجنبية.

فقد كانت كُلٌّ من قرطاجة وروما أجنبية عن الأخرى.إحداهما شبت وترعرعت بإفريقيا، وهى أعرق ثقافة وتتبع آلهة الشرق الضاربين فى القدم.

أما الأخرى فقد برزت من بين قبائل أوربا وحولت تقاليد أسلافها إلى شرائع ولاتطبق أى مسللك للحياة سوى مسلكها .

ولهذا فقد تطور صليل السلاح فى مسينا إلى ما يطلق عليه التاريخ اسم " الحرب البونية أو الفينيقية، ولكنها كانت فى الحقيقية بداية النزاع فى سبيل السيادة على عالم البحر الأبيض المتوسط.

وفى الأعوام الثلاثة الأولى ازداد الأمر وضوحا لدى مجلس الشيوخ

والشعب الرومانى حيث من غير المستطاع الاستيلاء على جزيرة منعزلة قبل التحكم فى المياه المحيطة، وعندما انكشفت العداوة حينئذ أسر القرطاجيون قوة استطلاعية رومانية فى إحدى الخلجان بحجة لم توضح علانية أن الملاحين غير المدربين كانوا قد أصابهم دوار البحر عقب هبوب عاصفة بحرية فلجأوا إلى هذا الخليج للاحتماء فيه .

وفى ظرف عام واحد، اجتمعت روما وجهزت مائة سفينة كبيرة وعشرين سفينة استكشافية صغيرة.وهذه المغامرة من جانب رجال يكرهون البحر بدت كمعجزة.

وقد راجت قصة خيالية لتفسيرها لا تزال متداولة حتى الآن ومفادها أن بعض الرومانيين عثروا على سفينة قرطاجية مهجورة جنحت بها الأمواج إلى الشاطىء فصنع الرومانيون على نمطها سفنا .

وكان المركب الحربى آنئذ عبارة عن سفينة ضعيفة لا تماثل سياق كبير الحجم، يعلوه إطار مستطيل يسع ثلاثمائة بحار للتجديف ومثل هذه المراكب يسوء حالها فى حالة هياج البحر، ولذلك كانت تخف إلى ملجإ أمين عند هبوب العواصف .

أما سلاحها فكان يتكون من ناطح أو آلة صدام مزدوجة من الحديد أو البرونز تنتصب رأسيا فى مقدمة السفينة كي تهشم مركب العدو، وتحطم المجاديف لشل حركة السفينة .

وكان من المحتمل أيضا أن تحاذى هذه السفينة مركبا أخرى لتمكين رجاله المسلحين الذين لا يجدفون من الانتقال إلى ظهرها ومنازلة العدو .

وكان الشراع يخفض عند الالتحام لتجنب كسره عند التصادم العنيف وبالجملة كانت المركب الحربى فى حاجة إلى بحارة مدربين لقيادته .

كما أنه لم يكن من المستطاع أن يظل طويلا فى العراء من فيافي

البحر.وكانت السفن الشراعية التى تستخدم فى النقل وغيرها من السفن التجارية معرضة،إذا ما هبت رياح شديدة لمقاومتها أو الفرار منها .

أما فى حالة هدوء البحر فكانت فى العادة مهيضة الجناح لاحول لها ولا قوة إزاء هجمات أى مركب حربى بآلة الصدام الحديدية التى فى مقدمته.

أما ما صنعه قواد الرومانين فعلا فى سبيل تكوين أسطول حربى فهو أنهم كانوا يقومون بزيارة الموانى الرئيسية التى كانت تملك سفنا حربية - تارينتم ونابولى وبيزا التى للأتروسكيين، دَعْك من ذكر أسطول سراقوسة ..

وجهزت كل مركب حربى بخطاف حديدى ضخم لتثبته بالسفينة المعادية حتى لاتفلت وبقنطرة خشبية عريضة يتيسر فوقها التحام ستة رجال فى قتال وجها لوجه وكانت الخطة هى استدراج سفن العدو والالتصاق بها حتى يتيسر للجنود الرومانيين منازلة بحارة العدو فى اشتباك يلتحم فيه الخصوم على ظهر السفينة وقد نجحت الخطة وأعطت ثمارها إذا تلاقت الاساطيل الحربية لأول مرة على كثب من شبه جزيرة مايلا على مسافة غير بعيدة من مسينا عام ٢٦٠ .

وكان الأسطول القرطاجىُّ معتادًا على العمليات الحربية وكان يحمل عددا ضئيلا من الجنود ومن المحتمل أن المفاجأة قد لعبت دورا فى تقرير النتيجة فمعظم سفن القرطاجيين أسرت أو أغرت وقد حمل القائد الرومانى معه بعض آلات الصدام البرونزية لوضعها حول الفورم (أكبر مساحة فى روما) كغنائم حربية إذا كان هذا أول نصر حربى أحرزه الرومانيون .

وليس ثمة شك فى أن انتصار الرومانيين عند (مايلا) لم يوطد قوتهم البحرية فى يوم أوبعض يوم، فإن أساطيل قرطاجية أخرى عاودت النزول وأحسنته بل إنها خربت ساحل إيطاليا، فإن قواد الرومانيين لم يستوعبوا تقاليد البحرولم يتمرسوا على علومه ولذلك أدى بهم عنادهم وعدم خبرتهم

معا إلى كوارث بحرية أغرقت فيها سفنهم ومعها عشرات الألواف من الأرواح بيد أن ماحدث عند مايلا كان له أثر على عزيمة قادة القرطاجيين فى البحر فقد بدا عليهم من مايشبه الخور حتى لكأنهم أصبحوا يرهبون التحام سفنهم مع أية سفن إيطالية فى موقعة بحرية تختبرفيها قوة القرطاجيين .

وقد تحقق لها ملكار أن تفوق مدينته البحرية لم يعد له وجود ولابد أيضا أن هانيبال قد تحقق هو الآخر من أن جيشه لم يعد باستطاعته أن يقدم على القيام برحلة عبر البحر المكشوف .

وقد وفدت على ذهن هانيبال ذكرى أخرى صارت جزءًا من تكوينه، وهى كلمات رجل يدعى رجيولاس التى تصادف أن كان قنصلا لروما، فانتصار الرومانيين عند " مايلا " كان قد فتح أفقا جديدا لمستوطنى التلال السبعة إذ هيأت لهم طريقا إلى شواطىء أخرى غير شواطئهم، ولاجدال فى أن الآباء بمجلس الشيوخ الرومانى قد رأوا من المستطاع إنهاء القتال الصقلى بالاستيلاء على قرطاجة.

وفي مغامرة فريدة، أبحر أسطول بحرى عدته ٣٢٠ سفينة صغيرة من "مسينا " حاملا أربع فرق من الجنود المسلحين، وقد شق طريقه جنوبى صقليه مخترقا الأسطول القرطاجى بعد اشتباكه معه .

ومن ثَمَّ انتقل بالقتال إلى إفريقيا دون أن يصاب بأذى .

وكان القنصلان رجيولاس وفالسو يتزعمان قوات الحملة، وقد بدا أنه لم تكن هناك قوة تعادلها للوقوف بينها وبين المدينة التى لم يكن يحصنها فى ذلك الوقت أى حاجز من الأرض .

وعندما توجه مندوبو مجلس قرطاجة إلى المعسكر الرومانى لتوقيع شروط الصلح استقبلهم رجيولاس بما يشبه التحقير، لقد أثار ظهور الجيوش الأوربية فجاة شعوب الساحل الإفريقى غير المستقرة وألبها فتذكرت

السلطات الرومانية هذه الواقعة بعد خمسة عشر عاما .

ولذلك سمح لها ملكار باركا أن يصطحب معه من جبل أريكس الجنود الهاربين والعبيد الآبقين الذين زادوا نيران حرب الجنود المرتزقة الأهلية ضراما واشتعالا.

وحينئذ قال رجيولاس : دعوتم أنفسكم شجعانا فإما أن تقهروا العدو أو تقبلوا ما ينال المقهورين ".

وكان روجيولاس يتكلم بصفته القائد الحربى للقبائل الأوربية وكرجل يتميز بالشجاعة والإقدام ويحارب حتى يَقْتُل أو يُقْتَل، أما الإفريقيون المثقفون فقد زهدوا فى كلا الأمرين.

وعندئذ عرض عليهم رجيولاس فى جفاف ودون استعداد للمناقشة شروطا لتأمين مدينتهم جاءت كما يلى: خضوع جزيرتى صقلية وسردينيا وتسليم الأسرى الرومانيين دون مقابل مالى ودفع فدية عن الأسرى القرطاجيين مع تعويضات لروما عن خسائرها الحربية، تدفع على أقساط سنوية، وأن تتعهد قرطاجة ألا تعلن حربا أو تعقد صلحا دون موافقة حكومة روما، وتوافق قرطاجة على ألا تعد أسطولا حربيا سوى مركب واحد تحتفظ به لهذا الغرض .

وكان على قرطاجة أن ترد على هذه الشروط التي كانت تعنى القضاء على المدينة فأبحرت السفن لاستحضار هاملكار باركا مع قدامى جنود المرتزقة بالجهة الصقلية (كانت المراكب الحربية الرومانية قد ألقت مرساها فى خليج تونسبينما وعسكر قادتها على الشاطئ). وقد تم إعطاء جندى محنك آخر هو اكسائيباس قائد جنود المرتزقة الاسبارطين عددا من فرسان النوميديين وعددا من الفيلة وفق طلبه للقاء فرق رجيولاس فى سهل مكشوف مستخدما خططا حربية جديدة .

وفى زهو بالغ، خرجت فرق الرومانيين لصد قوات أكسائيباس وهاملكار المختلطة ولكنها كانت كالباحث عن حتفه بظلفه، فقد أسر رجيولاس مع حوالى نصف رجاله أما الباقون فقد طوردوا إلى الساحل وإلى الناقلات.

وقد وصلت مراكب حربية أخرى للعودة بهم، ولكن بعد إبحارهم فى طريقهم إلى روما أصر الضباط الرومانيون - ضاربين بنصيحة الربابنة المجربين عرض الحائط - على أن يأخذوا طريق عودتهم بحذاء شاطىء جزيرة صقلية الجنوبى فهبت عليهم عاصفة لدى مواجهتهم لهذا الشاطىء واقترابهم منه فغرقت معظم المراكب الحربية والناقلات (٢٨٤ سفينة بكل ما عليها).

وعندما ذاع خبر هذه الكارثة بالتفصيل، أمر مجلس الشيوخ الرومانى بتمويل مشروع لبناء أسطول جديد، وخلال ثلاثة أشهر تم تجهيز ٣٢٠ سفينة ورست عند الساحل الإيطالى على تمام الاستعداد، في الوقت الذي تم فيه تأسيس أحواض دائمة لصيانة هذا العدد الكبير من المراكب الحربية.

وبعد سنوات طويلة، وافقت القوات المتخاصمة على خضوع جزيرة صقلية لروما مع دفع تعويضات حربية قدرها ١٢٠٠وزنة (كانت الوزنة فى ذلك العهد عملة نقدية تعادل حوالى ٢٣٥ جنيها ذهبيا) كان هذا هو الصلح الذى عقده هاملكار عام ٢٤١ حينما كان يدافع عن جبل أريكس وقد خلف قرطاجة قوة مطلقة دون قيد على أسطولها ولكنَّ الرومانيين نكثوا بهذا الصلح قبل انقضاء ثلاث سنوات على الصلح .

■ ■ ■

هانيبال وبداية الصِّدامِ الرهيب مع رُوما !!



5

وصف الرومان هانيبال بصورة مُرّعبة، وقد يكون لهم العذر فقد كان بحق اسوأ كابوس عرفته عبر كل تاريخها الملئ بالحروب والمجد والانتصارات !!

بدأ الصراع الرومانى- القرطاجى كصراع تجارى ثم أخذ أبعاداً عسكرية وكان أول احتكاك بين الطرفين عندما احتل الرومان جزيرة صقلية عام (٢٦٤ق.م) واعتبر القرطاجيون هذا الغزو مساساً مباشراً بمصالحهم الاقتصادية والسياسية.

وهذه الواقعة كانت البداية الأولى بين الرومان والقرطاج وقد استمرت الحرب البونية من عام (٢٦٤ق.م) إلى عام (٢٤١ق.م) وفى الحروب البونية خاض الطرفان سلسلة من المعارك البرية والبحرية حسم بعضها وبقى الآخر دون نتائج حاسمة .

ولكن كان غالبية حسم المعارك للرومان وخصوصاً المعارك البرية أما المعارك البحرية فكانت غالباً نتائجها للقرطاجيين حيث كانت معظم قواتهم بحرية بخلاف الرومان الذين كانت قواتهم برية.

وقد حقق الرومان أول إنجاز لهم عندما أخرجوا القرطاجيين من صقلية عام (٢٤١) قبل الميلاد، ثم تلا ذلك أن تمكن القائد الرومانى (ماركوس ديجولوس) من هزيمة الأسطول القرطاجى عام (٢٥٦ق.م) .

وكانت هذه المعركة أول معركة بحرية يخوضها الجيش الرومانى، ولكن القرطاجيين لم يستكينوا للرومان وقرر قائدهم فى هذه الحقبة من الزمن هانيبال الاستمرار فى مدّ رقعة السيطرة القرطاجية على الساحل الأسبانى.

وقد وصلوا إلى مرسليا عاقدين العزم على غزو الأراضى الإيطالية من الجهة الشمالية الغربية.. وبدأ القرطاجيون حملتهم الجديدة على الرومان، ومن هنا بدأ ميزان القوى يميل ضد مصالح (روما) فبعد أكثر من عشر

سنوات من الحروب المستمرة مع أعداء مختلفين على جميع الاتجاهات لشبه الجزيرة الإيطالية، قويت حملة (هانيبال) المدروسة والمعد لها جيداً وأصبحت مثل رأس الحربة .

فى وجه الطموحات الرومانية، خصوصاً أن هذه الحملة قد ظهرت مع ظهور عدد من الأطراف المعادية للرومان وأصبحت الدولة الرومانية فى رعب وخوف من التحالفات التى سوف تقف فى وجه المخططات التوسعية.

ففى عام ٢١٩ أبحرت بعض مراكب الرومانيين الحربية عبر مياه الادرياتيك لعبوره مرة ثانية وإنزال فرقهم الحربية على ساحل ولماسيا لضمه إلى روما وبسط حمايتها عليه .

وكان ديمترربوس من أهالى فاروس هو التأثر الوطنى الذى تألب عليها. وقد لاذ بالفرار إلى مقدونيا ينشد فيها السلامة وليس ثمة شك فى أن القوات الرومانية كانت قد أثيرت بطرق شتى ولكن ديمتريوس والكلتيين - يطلق عليهم فى إيطاليا اسم الغاليين - وسكان سردينيا الجبليين لم يحملوا السلاح إلا فوق أرضهم .

وقد رسمت التغييرات على الخريطة صورة ما كان هانيبال ليستطيع نسيانها ففى الشرق أصبح بحر الأدراياتيك بحرا رومانيا مغلقا.

وفى غربى إيطاليا تم بسط نفوذهم على البحر الأبيض المتوسط بينما قرطاجة كانت لاتزال تلوذ بالطرف الغربى من ذلك البحر حيث يتلاقى الساحلان الإفريقى والأسبانى وفى منتصف الطريق صوب هذا الطرف تقع جزائر الصنوبر والبليار وميناء ساجونتم.

فى ذلك الوقت، دخل المندوبون الرومانيون الى إسبانيا للمطالبة بإعلان الحماية على ساجونتم.ومن خلف هؤلاء المندوبين احتشدت قوات جرارة داخل إيطاليا ومائتا مركب مقاتل نزلتا إلى البحر من الأحواض متأهبة للإبحار.

وفى مستهل صيف عام ٢١٩، استقر رأى هانيبال على العمل فحاول جيشه وكان معظمه مكونا من المجندين الإسبان، أن يهاجم القلعة القائمة فوق مرتفع ساجونتم فأخفق إذ لم تكن لديه آلات للحصار .

كما أن جنوده كانت تعوزهم المهارة الفنية لشق طريقهم عبر المنحدرات الصخرية وأخيرا حاصر هانيبال ساجونتم، وترقب أن يستسلم المدافعون عنها .

وقد انتظر سكان ساجونتم أن يصلهم العون من روما حليفتهم الرسمية ولكن دون جدوى.

وبعد ثمانية شهور اخترق القرطاجيون أسوار المدينة القديمة الضخمة، وبذلك انتهت مقاومتهم، فأمر هانيبال أن توزع العطايا على اتباعه، وأن ترسل كنوز الفضة، ومعها غنائم الحرب إلى قرطاجة .

ثم وصلت الأنباء من قرطاجة عما حدث بقاعة مجلس الشيوخ فى روما حيث أُثيرت مناقشة حامية الوطيس عن مسألة قرطاجة عقب عودة الأسطول من بحر الادرياتيك .كما أن موقف هانيبال ضد ساجونتم قد أثار اعتراضا شديدا .

وقد حبذ بعض كبار النبلاء من الكلوديين والسيبويين (انحدر الكلوديون من أسرة أباطرة الرومان التى كان منها كاليجولا ونيرون اما السيبيويون فكانوا أولاد عمومتهم.) فكرة التعبئة العامة ضد قرطاجة بينما دعا بيون (نسبة إلى فابيوس فيروكوس الذى كان يدعو إلى مطاولة العدو فى الحرب وتحاشى مواجهته اكتسابا للوقت).

وقد بدا أن هذا كان من العهود التى اختلف فيها مجلس الشيوخ صاحب السلطة مع الشعب الرومانى، فقد كان أفق البحر الجديد قد سلب لب كثيرين من القادة .

فخلف شواطىء بلادهم كانت تقبع موارد لم تستغل بعد ومعها نصيب

فى تجارة ما وراء البحار التى ظلت حتى آنذاك حراما على نبلاء الرومانيين فلا يزاولونها (صدر قانون عام ٢١٩ يسمح لمن هم فى مرتبة الشيوخ الرومانيين بمزاولة مثل هذه الأعمال للمرة الأولى).

ومن الناحية الأخرى ظهر أن حشود القبائل الشعب الرومانى قد تذكرت جيدا الخسارة الفادحة فى الأرواح التى أسفرت عنها أعوام الحرب ٢٦٤-٢٤١ والانحطاط الشديد الذى مُنِيَتْ به الضياعُ المزروعة فى أثناء انعدام الأيدى العاملة من الرجال.

لقد أراد القوم أن يزرعوا القمح ويحصدوه لنفسهم دون أى اعتبار لأن يستورده أصحاب السفن من جزيرة صقلية التى استحوذوا عليها حديثا، وقد اتخذ هؤلاء المشتغلون بفلاحة الأرض هذه العبارة شعارا لهم:- "الفلاحة وإيطاليا للإيطاليين".

وقد حبذت المجالس الشعبية وممثلوها العمليات الحربية وأمدتها بالعون على غير رغبة من المذعورين الذين كانوا يعتقدون أن قتالا آخر مع القرطاجيين لن يسفر عن أى نفع محسوس أو يدفع أى شر مرتقب.

وهكذا استمر الجدال وطال بينما ظلت معابد بانوس مغلقة فلم يرسل الرومانيون أسطولا لمساعدة ساجونتم .

ولكن نبأ سقوط المدينة فى يد هانيبال أتاح لحزب الكلوديين السيبويين بمجلس الشيوخ مادة لتدعيم دعوتهم الى إعلان الحرب بحجة أن حليفا لمجلس الشيوخ وللشعب الرومانى قد هوجم .

أما فيما يتصل بالمكسب والخسارة فمناجم الفضة بإسبانيا تستطيع سداد التكاليف وهكذا راح مندوبون عن سكان ساجونتم المثخنين بالجراح يحاجون ومعهم حليف آخر هو مرسيليا المستنفرة .

وفى أوائل عام ٢١٨، تراضت أحزاب مجلس الشيوخ الرومانى فيما بينها

على ميثاق ودى مؤداه أن يرسلوا مندوبين عنهم وفق رغبة الغابيين لمفاوضة قرطاجة فإذا فشلت المفاوضات أعلن المندوبون الحرب.

وكان هناك احتمال كبير بأن يرضخ القرطاجيون لإنذار نهائى فقد كان بينهم فريق ينشد السلام فى إصرار وهم الذين سبق أن طلبوا الصلح عام ٢٤١ فتنازلوا عن جزيرتى سردينيا وصقلية ومعهما الجزية .

وبعد ثمانية أعوام لا أكثر وافقوا على معاهدة الإبرو فلعلهم الآن يلجئون إلى المفاوضات التى اتضح أنهم يجيدونها ويحسنون الإفادة منها. فأبحر خمسة مندوبين (مفوضين) من روما فى مارس عام ٢١٨ كان ثلاثة منهم أعضاء بحزب الكلوديين السيبيويين .

أما شيخهم وكان تبعا لهذا هو المتكلم بلسان الوفد فكان فابيا ولكنه كما اتضح لم يكن فيروكاس الذى سبق أن حذر مجلس الشيوخ بأن الأمور تختلف تمام فى ساحة الوغى. وفوق مرتفع برسا وداخل قاعة مجلس قرطاجة ، وجه فابيوس رئيس المفوضين هذا السؤال " أتسلم جمهورية قرطاجة الآن هانيبال بن هاملكار للسلطات الرومانية ؟

فكان رد المجلس "لا" .. حينئذ سأل فابيوس عن طريق مترجمه ما إذا كانت جمهورية قرطاجة قد صادقت رسمياً على تصرفات قائدها هانيبال بن هاملكار؟ فلم يشأ المجلس أن يتنصل من تصرفات هانيبال .

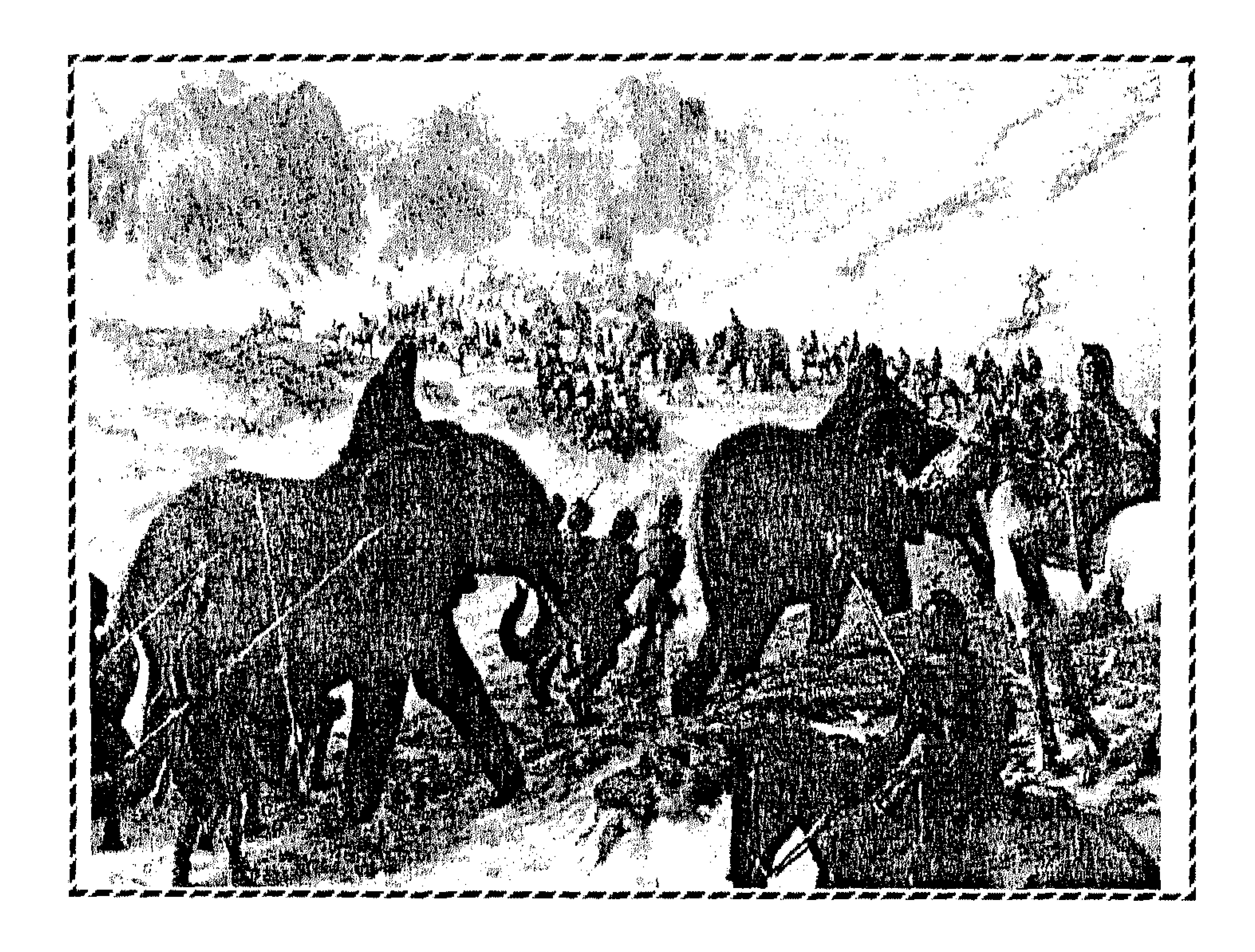
ولكنه بدوره راح يمطر فابيوس بأسئلة قانونية؟ أيؤثر مجلس الشيوخ الرومانى أن يستمسك بتحالفه مع ساجونتم على أن يحرص على اتفاقه القديم مع قرطاجة؟ ومنذ متى أصبحت ساجونتم حليفة لروما؟ فان كل هذا التحالف قد تم فقد أوجب هذا لميثاق كل حق لأهل ساجونتم لوجودهم جنوبى نهر الابرو أما إذا كان هذا التحالف قد تم بعد.. فانتفض فابيوس واقفا وهو يقول هذه العبارات تستنفد صبرى ثم ضم كلتا راحتيه فوق صدر

عباءته وراح يقول. إنى أحتفظ فى هذا الثنية من عباءتى بالحرب أو السلام فاختاروا أيها القرطاجيون أيهما تشاءون فاستأذن أكبر حماة قرطاجة فى الانسحاب مع مستشاريه فأذن فابيوس وعندما عاد القرطاجيون إلى المجلس واحدا بعد كان رد كبير حماة قرطاجة غير مرتقب فقد قال لفابيوس " تخير أنت بنفسك " فأجاب فابيوس "لتكن الحرب إذن" فَعَلَتْ بضعة أصوات معدودة " نحن نقبلها " .

وقد طار نبأ إعلان روما للحرب إلى هانيبال فى الحال بوساطة عدائين راحوا يقطعون ساحل إفريقيا على بساط الريح إلى معبر الماء عند المضايق وعندما عاد المندوبون الخمسة إلى نهر التيبر قدموا تقريرهم الى مجلس الشيوخ الرومانى ففتحوا بوابات معبد بانوس فى عنف حتى يطل الاله ذو الوجهين عله يشاهد شروق الشمس ومغربها وحتى يعرف الرومانيون أنهم قد ياتوا فى حالة حرب .

■ ■ ■

رحلة فوقَ جبالِ الألب
التاريخُ يصنعُه الشُّجعانُ!!



6

بعد اليوم الخامس عشر من شهر مارس وقد حل عام جديد أصبح بيليوس كورنيليوس سبيو قنصلا من النبلاء.وكان يتميز بقدرة فطرية جادة على وزن الأمور، وقد أنجبت أسرتا كونيليوس وسيبو، جماعة المحاربين الأكفاء قادة ناجحين خدموا الدولة أجيالا بعد أجيال.

ولعل هذا الظرف الخاص هو الذى أتى بيبليوس عند إجراء الانتخاب. وقد اقترع هو وزميله على قيادة الجيش فجاءت قرعته مع الجيش المتأهب لغزو أسبانيا.

وكان هذا فى نظر الرأى العام هو الوضع الصحيح ذلك لأن الحزب الكورنيلى السيبونى بمجلس الشيوخ كان قد تبنى فكرة التوسع فيما وراء البحار مستهدفا حيازة أسبانيا وضمها الى أملاك روما وهو المشروع الذى كانت قد عطلته مقاومة المجالس الشعبية حوالى عام كامل.

والواقع ان هذا التعطيل جعل تغيير خطة الحرب فرضا لازما فلم تعد ساجونتم ترقب مجيئهم كقاعدة لنزول قواتهم الى الساحل. ولهذا عزموا على إشعال نار الحرب فى جبهتين فقوة الحملة الكبرى كانت ستبحر من قاعدة صقلية وتحط رحلها على الشاطىء الإفريقى ثم تتقدم بأسرع ما يمكن لحصار قرطاجة نفسها.

أما الحملة الصغرى فكانت ستبحر بقيادة ببليوس عن طريق مارسيليا الصديقة للاستيلاء على خط الدفاع بجبال البرانس وهذا من شأنه فى كلتا الحالين أن يحاصر الجيش القرطاجنى كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإما أن يعود إلى إفريقيا لمساندة أرض الوطن وإما أن يصبح فى معزل عن قرطاجة.

وكانت أحدث المعلومات التى تصل من المراقبين بمرسيليا تذكر أن الجيش القرطاجنى بقيادة هانيبال كان فى طريقه عبر نهر الأبرو على الحدود.

ومع تغيير الخطة واستعدادات آخر خطة لم يأخذ بيليوس سبيو أهبته

للإبحار، إلا أن فصل الصيف حل، فأبحر من ميناء مدينة بيزا الجديدة التى شيدها الاتروسيكون ومعه فرقتان وضعفهما من القوات المتحالفة جميعهم ٢٤٠٠٠ وستون مركبا حربيا، ولكن الرياح العاتية كانت تتلاعب بقطع الأسطول وتدفعها دفعا شديدا، وأصيب معظم جنود فرق الجيش بالدوار لعدم تعودهم على البحر.

ببليوس على أية حال سره أن ينشد مجالا لأسطوله فى أقرب مصب لنهر الرون العظيم حيث كان ينتظره كما توقع فى أبراج المراقبة فوق الشاطىء ضباط من مرسيليا قلقون لإبلاغه بأن هانيبال هنا على نهر الإبرو فهو لم يكن ليستطيع ان يصدق أن جيش اسبانيا القرطاجى كان فعلا على نهر الغليين هذا على مسيرة يومين من حيث حط رحله، ولكنه أوفد فصيلة من الفرسان لدراسة الموقف، وقد خندق حول المعسكرالذى كان قد أودع فيه جنوده المرضى لدى تماثلهم للشفاء .

وعاد إليه فرسانه بعد خمسة أيام يؤكدن له وجود معسكر قرطاجنى على النهر وأنهم شاهدوا فيلة بين العربات وجماعات من الرجال يحملون فئوسا يستخدمونها فى صنع صنادل نهرية .

بيليوس تعجب من وصول القرطاجيين إلى البلاد التى وراء جبال الألب، فاستدعى أركان حربه لمناقشتهم فيما يجب اتخاذه من خطوات.

وقد كان واضحا للجميع أن القرطاجيين أعداءهم الظاهرين كانوا يقومون فعلا بعمل ما بأعلى النهر، ولذلك فمن الحكمة عدم الانتظار بل جر الخصم إلى الحرب .

وعلى هذا فقد أصدر بيليوس أمرا بتقدم الفرق استعدادا لشن الحرب، فانتقلوا فى حذر إلى أعلى النهر، ولكنهم وجدوا معسكر العدو مهجورا.

وقد تعذر القتال أو استحال ذلك لأن القرطاجيين كانوا قد عبروا النهر

وطوتهم الأرض عبر الشمال قبل ثلاثة أيام، ولكن إلى أين ذهبوا؟.. واجه القنصل الجديد موقفا لاسابقة له فما اختبره خلال تجربته العسكرية القصيرة فقد رحل العدو إلى مكان مجهول بدلا من التحامه معه فى القتال.

ولقد كان النهر ينبع من الجبال المسماة بالألب وخلف جبال الألب هذه تقع إيطاليا وطنه فوجد بيليوس نفسه فى موقف محير لا يحسد عليه حتى لكأنه بين المطرقة والسندان، فإما أن يكر راجعا متحملا تبعة تصرفه أو أن ينفذ مهمته فيواصل السير قدما مع أسطوله .

وقد حل القنصل هذه المشكلة بتصرف منطقى معقول إذ أمر جنده بالتقدم إلى أسبانيا فى حماية سفن الحراسة التى لمرسيليا، أما هو فقد عاد إلى بيزا مع المراكب الحربية السريعة حتى يؤدى مهمته هناك، كقنصل مسؤول. وهذا القرار الذى انتهى إليه سيبو العملى النزعة ستكون له نتائج عظيمة الشأن.

لقد كان واجبه الأول هو الدفاع عن حدود روما فإذا تعذر تأدية هذا الواجب على نهر الرون فسيؤديه بيليوس كورنيليوس سيبو على نهر البو.ولابد وأن يكون قد ساورته الفكرة بأن طريق عودته كان طويلا .

ولقد تكشفت فى وضوح بسجلات روما لعام ٢١٨ تلك الخطوات التى اتخذها بيليوس. أما عن الجانب الثانى من الأحداث فقد طوى الصمت تصرفات هانيبال بن هاملكار كما حرص كثيرا على أن تظل نواياه فى الكتمان. وبالرغم من هذا فيستطيع المرء أن يقع هنا وهناك على آثار من خططه.

فقد توقع إعلان الحرب خلال عام من مقابلته مندوبا روما فى قرطاجه الجديدة، ولذلك قام بتعديلات فى مواقع قواته المسلحة خلال فصل الشتاء الذى أعقب هذا فأرسل بعض المجندين الإسبان إلى إفريقيا واستدعى بعض الحاميات منها.

كما أعطى للإسبان تصريحا خاصا بقضاء فصل الشتاء فى بيوتهم، وكذلك أرسل مندوبين يحملون الهدايا إلى الأقوام البعيدة خلف البرانس من رؤساء عشائر الكلتيين فكان على هؤلاء المندوبين تقديم تقارير عن مقدار ومواعيد المحصولات التى على طول طريقهم وعن طبائع الشعوب وما إذا كانوا يميلون الى الحرب أو ينفرون ويعادون روما أولا يعادون .

وقد قام هانيبال أيضا بسياحة فى إسبانيا الجنوبية او الإيبيرية خلال الشتاء، حتى لقد زار فاروس فى أقصى الإقليم وهناك شاهد للمرة الثانية أمواج المحيط الخارجى على طول أفقه البعيد فاستخيله لحظة وهو هناك فوق درجات المعبد حيث لانساء حاضرات، إنه أطول من القرطاجيين العاديين به انحناءة خفيفة تحت عباءته السوداء المسدلة فوق لباس الحرب الإسبانى، وقد قص شعره المجعد فى رأسه ولحيته معا وله عينان يكتنفهما الغموض فى وجه نحيف قد لوحته الشمس، وقد علا أنفه شفتين صارمتين.. إنه رجل لا يميزه لباسه عن الآخرين ولايقر لبدنه قرار، ولكنه يلين ملانته ويستكين.

وفى مستهل الربيع، ركب هانيبال عائدا مستبشرا وقد راح يخترق وديان أندلوزيا وقد وجد علماء الآثار القديمة شواهد من مخلفاته فى الأبراج المشيدة من اللبِن المجفف التى عرفت فيما بعد باسم أبراج هانيبال .

وفى القلاع المبنية على عجل، من أحجار مربعة قديمة أعيد رصها وتكوينها فى طراز جديد .. وقد دعمت أيضا سلطة الأمراء الأيبيريين على طول الساحل الشرقى المعرض للخطر.ولم تكن قد بدت بعد أية بادرة بأن هانيبال قد ساورته أية نية على ترك أسبانيا التى أصبحت وطن باركا مدة عشرين عاما.

أما الخرافة الرومانية التى رويت فيما بعد عن أسرة باركا فتذهب إلى أن الأبناء ارتبطوا بقسم على أن يكونوا أعداء لروما وأن الأب قد نزح إلى أسبانيا ضد إرادة قرطاجة، وأن هانيبال نفسه هو الذى أشعل لهيب الحرب

العظمى وان هاملكار أعد أسبانيا للوثوب لدى زحف أبنه البرى مخترقا جبال الالب لمهاجمة روما وتتجمع الخرافة فى انسجام منسق لتبدو نابضة بالحياة كإحدى مآسى يوريبيدس (يوريبيدس شاعر أثينى ذائع الصيت، عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وانتج للمسرح الاغريقى أروع المآسي الشعرية، حتى لقد شغف به أرخيلاس ملك مقدونيا شغفا شديدا فأفرد له جناحا من قصره طوال الأعوام الأخيرة من حياته إلى أن مات فى عام ٤٠٦ ق.م) ولكنها بالرغم من هذا ليست هى الحقيقة.

فقرطاجة هى التى أرسلت باركا لتنوب عنها هناك.ولايوجد دليل على أن هاملكار قد وضح تصميم الزحف بعيد التصديق داخل أحشاء أوربا، وإنه أوصى لابنه بهذا التصميم أو أورثه إياه مثل التصميم الذى وضعه فون شليفن فى عصرنا الحديث كى يسلمه كل جيل للجيل الذى يعقبه بل إن هناك تواترا مدعما أن هاملكار قد حذر هدرويال الأريب وأبناءه قبل موته مؤكدا أنه متهم فى أسبانيا وشيكة الابتداء ولكن القوة مازالت تعوزهم للصمود أمام قوات روما المسلحة.

وبعد ان أنهى هانيبال رحلته التفتيشية عرج على قصره المشيد فوق ميناء قرطاجة الجديدة الذى كان يعج بالناس وكانت التجارة قد أخذت فى الازدهار بهذا الميناء عاما إثر عام فقطارت عربات النقل كانت تستحضر إلى ميناء من مناجم الفضة غلة سنوية تكفى لسداد كافة مصروفات قرطاجة نفسها والقسم الذى اداه أمام مذبح ملكارت جعل عليه وعلى أشقائه أمرا لازما ألا يستسلموا للحكم الرومانى وأين يستطيع أن يفعل ذلك فلا يسر فى غير أسبانيا النائية؟

ولم يجد هانيبال علاوة على هذا محيصا من ان يعتمد على سواعد جنوده الأيبيرين والكلتيين كلما أقدموا على أى عمل. فما كان ليعجز اى قائد له ألمعيته عن أن يفطن إلى الطبع الغالب على الاسبانيين مما له صلة

الحنين الى الوطن فهؤلاء القوم سكان جبل الفضة والسهل العظيم يحاربون كالشياطين دفاعا عن منازلهم ومدنهم فاذا انتقلوا إلى مكان آخر أعوزتهم الشجاعة وزايلتهم البهجة وسرعان ما جاءه الدليل على صدق هذا الطبع الغالب على الأسبانيين الذين كانوا عماد جيشه الجديد.

وواضح عند هذه النقطة أن هانيبال كان يستعد للدفاع عن سواحل أسبانيا وفى شهر أبريل جاء العداءون من أسبانيا يحملون نبأ إيثار فابيوس للحرب فأمر هانيبال بعودة الجنود من أجازاتهم الى المعسكرات التى حول قرطاجة الجديدة.

ولابد انه عرف من العملاء القرطاجيين أن أسطولا كان يتجمع هناك لغزو الشاطئ الإفريقى على بعد مائة ميل إلى الجنوب.

والواقع أن مراكب الأعداء الحربية كانت تشن بعض الغارات على الساحل قرب قرطاجة لاستطلاع قواتهم عودها .

وكان هاملكار وأولاده ـ بصرف النظر عن القسم قد كرسوا أنفسهم لشىء واحد ـ هو خدمة جمهورية قرطاجة... ألم يرفع البطل المغوار باركا قبضته الفوية عن جبل أريكس للمفاوضة الصلح وفق إرادة مجلس قرطاجة؟ ألم يعد هذا إلى خدمة بلده فى محنة تألب الجنود المرتزقة عليها؟

هذا وقد وقع صدع هدرويال بالأمر الذى أصدرته إليه أرض الوطن فعند ميثاقه مع أولئك الأعداء أنفسهم ومهما كانت الآمال التى داعبت هانيبال بعد ما أحرزه فى وطنه الجديد أو لمملكته المستقلة وفق ما أعلنه خصومه داخل المجلس فقد واجه الآن خطر غزو صقلية من جزيرة صقلية.

ولم يكن لدى قرطاجة أسطول يستطيع أن يصمد للغزو ولكن كان لها حامية داخل أسوار قوية دون جيش سوى جيشه قادر على أن يصد قوة رومانية مدربة فإذا عاد هانيبال عبر المضايق للدفاع عن المدينة الأم فإنه

يتخلى عن أسبانيا للعدو.

وليس هناك شواهد تكشف عن أفكاره ولكنه أقدم على العمل دون إبطاء فبعث بزوجته أمبلس وراح يرقب السفينة وهى تمخر عباب الماء من الميناء مارة بالفنار إلى حيث ابتلعها الظلام الذى احتفظ بسر عبورها الى الساحل الافريقى فى طى الكتمان.. فهل أقصى أسرته لحمايتها من الخطر أم لإيداعها كرهائن ضمانا لسلوكه فى المستقبل؟

لقد أصبحت أسرته على أية حال وثاقا يشده إلى المدينة الإفريقية. وفى شهر مايو أمتطى هانيبال صهوة جواده ليلحق بجيشه الذى كان قد شرع فى زحفه إلى الشمال حذاء الساحل.

وتحركَ الجيش دون عجلة فى فيالق منفصلة فبدأ فى الواقع كما لوكان مؤلفا من شعوب تختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا فالنوميديون والمراكشيون ذوو البشرة السمراء كانوا يمتطون جيادهم دون لجم ومعهم مزاميرهم. بينما ترعى خيولهم حشائش الطرق الزراعية وقد احتفظ فرسان البادية هؤلاء بعزلتهم وكان من العسير إرضاؤهم لاختلافهم على التافه من الأمور فهم يصرفون ساعات فراغهم فى تضفير شعر رءوسهم وتنظيف أسنانهم وتلميع حليهم الذهبية.

وكانوا يركبون وهم ملتفون فى عباءات بيضاء وتحتهم جلود النمور وعند النزال يقذفون بحرابهم الطويلة إلى صدور الأعداء من بعيد حتى ليعجز هؤلاء عن الاقتراب منهم .

فإذا ما اقتربوا منهم أخيرا والتحموا بهم، راحوا يستعملون فى براعة دروعا صغيرة من جلود الفيلة وسيوفا طويلة ويستخدم كل منهم كلتى يديه ضد عدو يستخدم يدا واحدة لاضطراره أن يمسك مقود جواده باليد الأخرى.

ولكن سرعة هؤلاء البرابرة هى أخطر ما يتميزون به فقد كانوا

يستطيعون اللحاق فى يسر بالفرسان الذين تعوزهم خفة الحركة أو يفرون منهم إن شاءوا وكانوا هم ومشاة الليبيين يسيرون فى خطوات نظامية ويلزمون المسالك المطروقة ويرتدون الزرد الحديد، وكذلك يضعون على رءوسهم خوذات من الجلد وعلى أكتافهم دروعا طويلة معلقة بالحراب ويخضعون لقيادة السيد مهوبال الصارمة وهو الذى سبق أن خدم هاملكار.

وبالقرب من صفوف المشاة الثقيلة كانت تسير جماعات من البليريين الرماة يحملون على أكتافهم أو يشدون الى أواسطهم مقاليع من الجلد ذات ثلاثة أبعاد، مثل قذائفهم كرة نارية من القار الملتهب والأخرى كرة من الرصاص الثقيل تستطيع ان تحطم الدورع البرونزية.

وكان الفرسان يشكلون جانبا كبيرا إلى حد غير عادى من الجيش الزاحف.

وكان المحاربون المسيليون يغطون رؤوسهم وأعناقهم بقلاس من الجلد الملبس بقضبان من الحديد وبينما كان النوميديون سريعي الحركة يعتمدون على جراب ملىء بالحراب الطويلة كان الفرسان ثقيلي الحركة يعتمدون على طول القصاب المنتهية بالنشاب التى يحملونها وعلى طريقة تصويبهم لها.

وكان الكلتيبريون يقذفون بالمزاريق فى براعة، قبل أن يلجأوا إلى استخدام سيوفهم المنحنية القصيرة .

وفى ساحة الوغى كانوا يحيطون خيولهم بدروع جلدية تحمى صدورها. وبينما كانت الفرق الافريقية تكون أحشاء الجيش كان الإسبان هم قلبه النابض الجيليون من رجال كاستولو ومسيتا وعشائر فاكيا اوكساها اتلذينم يستخدمون رؤوس الذئاب والأسود كخوذات على رؤسهم ويرقصون حول النيران إذا لعبت الخمر بهذه الرؤوس فى إحدى الليالى وقد انضمت قبائل أخرى رلى أهل باليار بأسلحة خفيفة لمناوشة العدو واستدراجه .

ولم يكن هناك من يعرف النظام ويلتزمه سوى الأيبيريين الذين كانوا يسيرون فى فيالق وهم يحملون أعلاما رسمت على رقعتها الشمس بشعاعها والقمر هلالا وكانوا يقومون بحراسة قطارات من عربات النقل المحملة بالذخيرة والعتاد .

أما هانيبال الذى كان يسمح لهذه الجماعات الحربية أن تؤدى احتفالاتها الشعبية فقد حرص على أن يُحمل قطارات عربات النقل بالفائض من الأسلحة وبالآلات والحبوب والأدوية وبرصيد كبير من الفضة فى صناديق مغلقة.

وكان يعوز هذه الجموع الزاحفة النظام والانسجام وكانت فى مجموعها قد وصل عددها إلى خمسين ألفا من الرجال وأربعين فيلا.ولكن كانت هذه هى المرة الأولى التى اجتمعت فيها بصعيد واحد. وكانت هذه الجماعات تستطيع أن تقطع الفيافى وتتحمل شظف العيش الأمر الذى ألفته فيما بين أعيادها، ولكن كيف يستطيعون العمل كجماعة واحدة؟

ولم تحضر من قرطاجة سوى فئات قليلة على رأسها جماعة من المهندسين وفصيلة من الفرسان المنحدرين من عائلات عريقة يميزها لباس أحمر بهى.

وكانت مهمة هؤلاء الضباط الصغار تنحصر فى أن يكونوا دائما متأهبين للعمل لدى الحاجة إليهم كما أنهم كانوا يعملون أيضا كمترجمين لهذا الجيش المتعدد اللغات.

أما هانيبال فلم يكن حاملو الأعلام ليتبعوه إذ كان ينتقل إلى أى مكان بين الزاحفين الذين كانوا يستطيع مخاطبتهم بألسنتهم المختلفة دون أن يعرفه مخاطبوه حتى يتبينوا ملامح وجهه، شعاره المنقوش بالذهب فوق أسلحته أو بالفضة بمقود جواده، أما صندوق ذخائره الدينية وصنم التيرافيم

فكان ينتقلان معه فى ترحاله ويودعان فى خيمة صغيرة.

وأخيرا، اعترف خصوم هانيبال بعظمة جيشه قائلين لقد ظل ستة عشر عاما محتفظا بقواته فلم يسرحها أو يبعدها عن ساحة الوغى، وبالرغم من تجميعه لهذه القوات فقد وفق فى أن يسيطر على هذا الجيش العَرَمْرَم، فلم يتألب ضده قط أو يدب الخلاف إلى صفوفه مع أنه لم يكن مكونا من شعب واحد أو حتى من جنس واحد. وكان هذا الجيش يضم ليبيين واسبانيين وقرطاجيين وليغوريين وكلتيين وليليريين وكذلك إيطاليين ويونانيين وكان الجميع يعيشون معا .

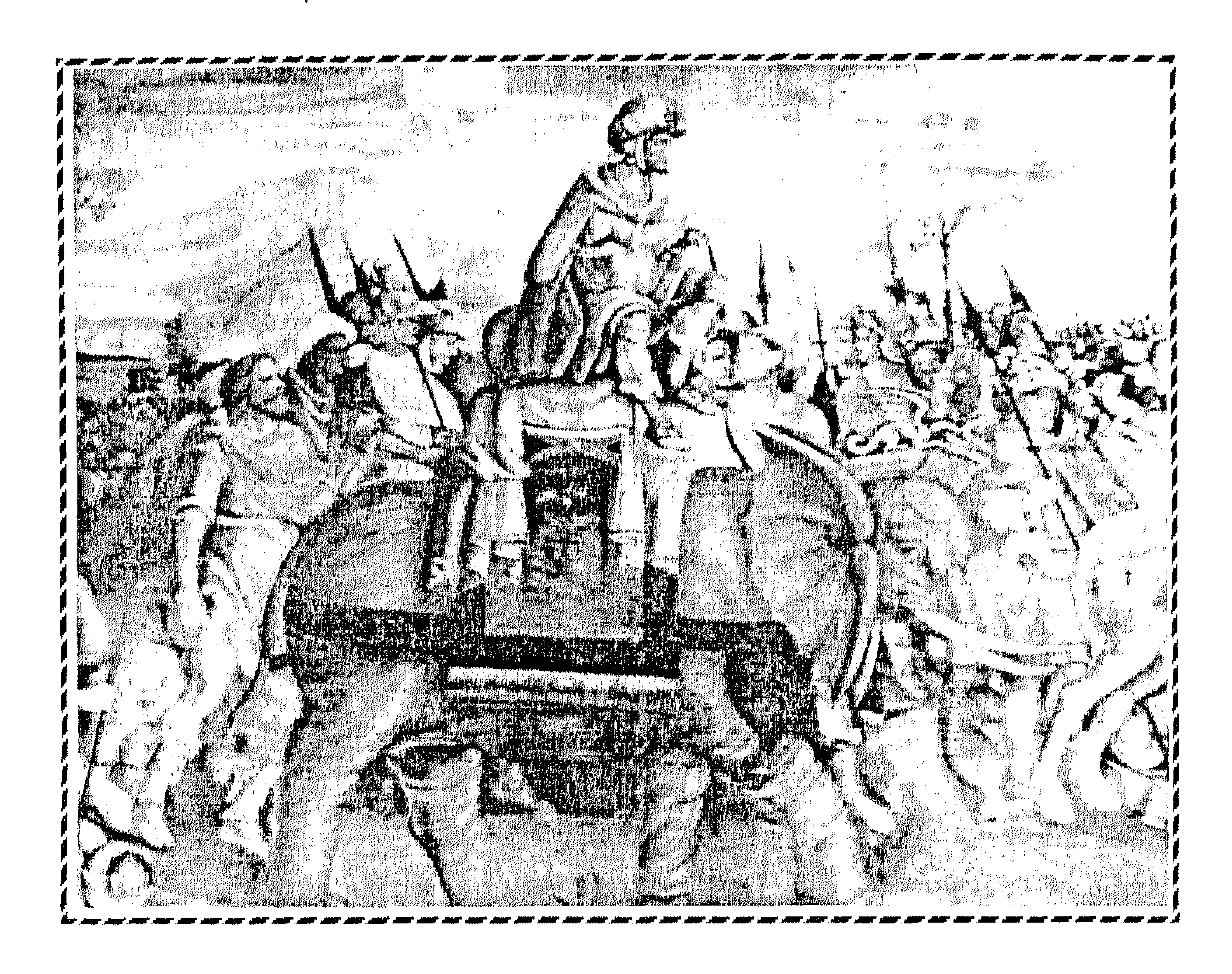
وبالرغم من هذا فإن نهاية قائدهم كانت تفرض على هؤلاء القوم المختلفى الطبائع والمشارب الإذعان لإرادته التى لاشريك لها .وقد مس كتائب الرومان سر الجيش بهذا القول الذى قذفوا به دون إدراك.

فقد كانت شعوب شواطئ البحر الأبيض المتوسط هى التى تمده بالرجال من سايرتس حتى المضايق عند نقطة التى تصل الى نهر الابرو وكانوا يتجمعون فى وحدات شعبية تذهب عند النقطة التى تصل إلى نهر الأبرو وكانوا يتجمعون فى وحدات معه بدوافع قومية محضة (لم يكن اليجيريون والإيطاليون واليونانيون قد انضموا اليه بعد).

وعبر الجيش مصب نهر الأبرو العريض دون عقبة ما، ولابد أن سخرية الأقدار قد تبدت لهانيبال فى عبور القرطاجيين نهر المعاهدة وأسلحتهم فى أيديهم بعد أن أنهى الرومانيون معاهدة الصلح.

■ ■ ■

عظمة هانيبال..
قبلَ النصر العظيم!



7

بعد أن عبر الجيش نهر الأبرو وقع أمر بالغ الغرابة، فالجيش الذي كان في طريقه إلى عبور جبال الألب قبل فصل الشتاء، ضَيَّع ثلاثة أشهر ونصفاً متسكعاً بين النهر وممرات جبال البرانس وهي مسافة مائة وثمانين ميلاً كانت في استطاعة الجيش أن يقطعها في ستة أيام.

وكان الساحل غير بعيد، والسكان - الكلتيون الليجيريون - لا يألفهم القرطاجيون، وكان الثغران الرئيسيان، أمبوريا وتاراكو (تراجونا) معاديين إذ كانا من مراكز التجارة لليونانيين المسيليين، بيد أن هذا كله لم يكن بالعقبة الكأداء التي تقف في سبيل الزحف، فلا بد أن هانيبال نفسه كان هو المسئول عن هذا التأخير.

وأن السبب ليكتشف عند التمعن في وضوح تام، فلم يكن هانيبال قد بت بَعْدُ في أمر دخوله إلى أوربا، وبدلاً من هذا كان يقوم بما كان لا محيص عن القيام به، فهذا الثلث الأخير من أسبانيا عبر نهر الأبرو، بسكانه الليجريين البرابرة شريبي البيرة، وبموانية المعادية، كان لابد من إخضاعه لسلطان قرطاجة حتى تكتمل مهمة هاملكار، ففي سبيل الدفاع عن أسبانيا كان لابد من فتح طريق الساحل للنقل والتجارة ومن تأمين ممر جبال البرانس الشرقي.

وقد ترك هانيبال شقيقه هيدروبال للإشراف على قرطاجة الجديدة والحاميات الجنوبية، وبالرغم من أن هسدروبال كان في الثالثة والعشرين من عمره فقط فقد كان عبقريّاً في إقدامه وركوبه للأهوال دون إبطاء المتريثين، مع تصور سريع لما يلزم القيام به، ولكن كان يعوزه إصرار هانيبال الغلاب الذي لا يلين أو يقهر.

وكان "ماجو" شقيقهما الأصغر مبارزاً كثير الشغب، أثيراً إلى قلوب الجنود، لا يفتأ متنقلاً يطوي الأرجاء في عربته الخفيفة وقد تطايرت أطراف ردائه الأحمر القاني في الهواء، ولذلك خلفه هانيبال بالمدينة مع

شقيقه ليحد من نزقه، وكان الأشقاء الثلاثة صغار السن جداً إذا قورنوا بقادة الرومان.

ولم يكن هانيبال نفسه ضمن حماة قرطاجة، فكان يرأس الجيش بأسبانيا دون أن ينال أي مدد من أحد، وكان مطيعاً لإدارة المجلس - الذي كان يصادق على تصرفات أسرة باركا مادام هانيبال نفسه مطيعاً للمجلس بإفريقيا.

وكانت هيئة معاوني هانيبال تتكون من قرطاجيين، فمهربال، وهانو، ابن أحد حماة قرطاجة القدامى، وبوملكار، أحد جنود الحرب الماضية المخضرمين. كانوا من دهاة المقاتلين وممن لا تنطفئ جذوة كراهيتهم للرومانيين، وهيرت المسن، مخضرم آخر كان يحضر مؤتمراتهم، وإلى جانب هؤلاء كان هناك ضباط أقل شأناً من رؤساء عشائر الأسبانيين أو الليبيين السابقين، وكذلك إخصائيون كانوا يفدون من جميع الأقطار - سينهالوس المصري كبير الأطباء، وإغريقيان هما سوسيلوس وسلينوس اللذان كانا رئيسين للكتبة، بينما وفد بوج، منجم الحملة. من آسيا، أما سوسيليوس الإسبرطي فقد علم هانيبال اللغة اليونانية القديمة.

وكان يعاون هذه الهيئة المستحدثة غير المألوفة رجال ظلت أسماؤهم في طي الكتمان إذ كانوا يتجسسون بمواني البحر الأبيض المتوسط وأراضي أوربا المجاورة، فلم يعرف منهم سوى واحد فقط هو (كاثالو) الذي كان يؤدي مهمات خفية.

وكان على هانيبال أن يعتمد جُلَّ الاعتماد على هؤلاء العملاء السريين الذين كانوا يتسللون إلى مجتمعات التجار الخاصة، ويشيعون الفأل والطِّيَرة وينشرون النبوءات والتكهنات - ربما بتوجيه من بوج - في المدن الأجنبية، وينصتون إلى ما يدور من أحاديث بحوانيت الحلاقة، ويجسون نبض العامة في الحقول.

وعندما كان هانيبال يزحف ببطء صوب جبال البرانس، ضاعف عملاء الجاسوسية قلقه إذ أنبأوه أن أساطيل الغزو الروماني كانت تتأهب في سراقوسة وبيزا.

وقد علم هانيبال، عند هذه النقطة، أن الاستعدادات لغزو إفريقيا كانت قائمة على قدم وساق.

وحينئذٍ وقع تغيير مفاجئ في الجيش، فقد أرسلت كتيبة من عشرة آلاف جندي شديدي البأس لإخضاع المرتفعات والمواني التي وراء نهر الأبرو، كما شرعت قوة من المقدمة في السير شمالاً للاستيلاء على أقرب ممر من جبال البرانس المسمى برتوس، أما بقية الجيش فقد راحت تتسلق سفوح التلال وقد تجمعت حولها جماهير اللاجئين من قبائل الباسك يراقبون ما تفعله وهم مبهورو الأنفاس.

فما العلة في تغيير الخطة؟ ليس هناك ما يكشف عن هذه العلة سوى أمر واحد، ففي ذلك الحين أو قبله كانت جواسيس القرطاجيين قد عادوا من أقصى الشمال بإيطاليا وقد أحضروا معهم رجالاً من قبائل الكلت بينهم اثنان على الأقل من رؤساء هذه القبائل هما رئيسا قبيلتي بوي وانسبرس، ولابد أن هؤلاء الغاليين من سكان وادي البو قد أثاروا حب الاستطلاع في نفوس ذوي قرباهم الأبعدين سكان جنوبي الأبرو، الذين حضروا لعقد مؤتمر، وآية ذلك أنهم كانوا يرتدون لباس الحرب من خوذات ذات قرون مستعارة، ودروع موشاة برموز تحكي قصص مغامراتهم، وبأساور ثقيلة الوزن من الذهب الخالص تكشف عن ثرائهم، وكان حاملو السيوف يحمون ظهورهم، والكهنة يحذرونهم مما يخبئه لهم القدر من أسباب تدعو إلى التطير، وهؤلاء قد أفضوا لهانيبال بنبأ لم يكن يتوقعه.

لقد ذكر رجال قبيلتي بوي وانسبرس أنهم حملوا السلاح ليطردوا الدخلاء خدام إله الحرب من حقولهم التي انحدرت إليهم عن آبائهم الأولين،

وأن قوم الكلت قد هاجموا مراكز الرومانيين التجارية لحزنهم على فقد مدينتهم ميلان، فأسروا بعض نواب قناصلهم وطردوا المحتلين، ومن ثمة فقد عادت خيولهم فروت ظمأها من مياه نهر البو الصافية، وأنهم لن يغمدوا السيف حتى يكونوا قد استردوا آخر حقوقهم.

وكان على هانيبال أن يوازن بين ما قاله الإيطاليون الكلتيون في معرض الفخر والحماسة، وما نقله إليه شهود العيان من عملائه الذين ذكروا له أن الكتائب الرومانية التي كانت في طريقها إلى أسبانيا قد استعدت للعودة كى تكبح تألب سكان الشمال، ولكن أمد هذا التألب قد لا يطول.

وفي لحظة عابرة انتهى ابن هاملكار خلال جلساته الطويلة مع عرافي الكلت إلى قرار معين، لقد قبل هداياهم ومنحهم هداياه، وقد عرض عليهم العون باسم قرطاجة، وأن يمدهم بنفسه في إيطاليا بهذا العون.

ولابد أن هذا القرار بالزحف بجيشه إلى إيطاليا تحت قيادته قد استنفد منه أياماً من العناء الذهني، فهو مع ما فيه من تعرض أكيد للصعاب والخطر لم يكن ليهيئ سوى باب واحد للنجاح، وهو أنه في حالة الوصول إلى نهر البو قبل فوات الأوان يستطيع أن يمسك بتلابيب جيوش الغزو الرومانية داخل إيطاليا نفسها، فلا تصبح مدينة قرطاجة ميداناً للحرب، وحينئذٍ تقع تكاليف الحرب لأول مرة على الرومانيين وبلادهم ويكتوون بآلامها، ولم يكن ثمة شيء واضح فيما وراء هذه سوى الحاجة للسرعة. وحينئذٍ غمرت الغبطة قلوب رجال بوي وانسبرس المنزعجين.

وبهذا القرار نفذ هانيبال بمفرده على الشاطئ وراء الأبرو كل ما سبق أن ناقشه مع هسدروبال والمجلس الأقصى قبل وقوعه، وعندما امتطى جواده وتوجَّه إلى الشمال مخترقاً غابات الصنوبر على سفوح المرتفعات أدار ظهره لعشرين عاماً من حياته ولقرطاجة الجديدة وللشعب الذي اتخذ لنفسه منهم شعباً وأهلاً، بالرغم من أن بقاءه بأسبانيا كان سيضفي عليه هدوء النفس

ويوفر له الثراء ويفعم قلبه بهجة بشئونه الخاصة وبجياده التي عج بها إسطبلاته وبكتبه التي يألفها ويهواها، وهو إلى جانب هذا لم يكن ممن يتعشقون الحروب أو يهيمون بها، فإذا ما واصلها فعليه هو وحده أن يشد وثاق الآلاف من أتباعه إلى عجلة الحرب، فما كان ليستطيع أن يتوقع الحصول من الرومانيين على الصلح بسهولة، فهو يتذكر جيداً تحذير رجيولاس القنصل الروماني حينما قال: "إما أن تقهر خصمك وإما أن تقبل مصير المقهورين".

وكان اختياراً ظاهر السخف طائشَ القَصْد. وفي إحدى الليالي فر ثلاثة آلاف كاربيتاني من معسكرهم بسفوح الهضاب. وقد دعا هانيبال رؤساءهم للتحدث إليهم بدلاً من أن يرسل إليهم جنوداً أسبانيين آخرين لإرغام فلولهم على العودة، ونظراً لمعرفته طباعهم فقد بين لهم أن الحرب وقد بدأت فستدركهم طلائعها أنى كانوا، وكان الرومانيون حينذاك قد طلبوا تسليم هانيبال وأشقائه، ولكنهم كانوا لا ينوون الاستسلام (وكان هذا هو صدى القَسم الذي أداه أفراد أسرة باركا).

فأجابه رؤساء العشائر الأسبانية في حدة بأنهم غير هيابين، ولكنهم غير راغبين في اقتحام جبال مجهولة أو في القذف بأنفسهم إلى قبضة آلهة غريبة، فهم يتطلعون إلى مشاهدة سهولهم ثانية لا أن يشدوا الرحل ويواصلوا المسير.

وكان هانيبال يفهمهم ويفهم أن "الشموخ الباطن" هو الذي يسيرهم وتنطق به ألسنتهم، ولذلك فلن تقوى أية سلطة على أن ترغمهم على التوجه إلى حيث لا يشاءون.

وأخيراً قال لهم: "إني أصرح بالعودة للراغبين منكم فيها، كما أني أرحب بالراغبين منكم في اصطحابي، الذين سأقتسم معهم العطايا وخير الجزاء".

وقد آثَرَ العَوْدَة إلى الوطن سبعة آلاف آخرون من الكلتبيريين، فبعثهم هانيبال إلى هسدروبال، مخلفاً في ممر البرانس الصخري ضابطاً ومعه قوة كافية لحراسة الممر حتى يظل الطريق مفتوحاً إلى أسبانيا، ثم دعا رؤساء القبائل فيما وراء الجبال لمقابلته (وكان العملاء القرطاجيون قد أغدقوا عليهم الهبات من قبل) فعقد معهم، على عجل، هدنة أقسم فيها الطرفان على الالتزام بها، وقد نصت على ألا يصيب القرطاجيون هؤلاء القوم من قبائل الباسك بأي أذى ماداموا سيحرصون من جانبهم على سلامة الجيش.

وتم هذا في منتصف شهر أغسطس قبل أن يَسُدَّ جليدُ فصلِ الخريف ممراتِ جبال الألب، وفي مدى أربعة أيام أشرف الجيش على شاطئ نهر الرون العريض. فعندما انتهى هانيبال إلى قرار للزحف على روما لم يبدد ساعة واحدة من وقته.

كان شاطئ النهر الأقصى يعج بقبائل معادية سرعان ما تقاطرت لمقاومة أية محاولة لعبوره. وقد استشعر الجيش قلقاً جديداً، إذ أخذ المطر ينهمر من سماء داكنة، كما سبب قتام الغابة الكثيفة للإفريقيين والأيبيريين رهقاً شديداً، لما ألفوه من جفاف التربة وصفاء السماء، وعندما كان هؤلاء القوم الذين وفدوا من البقاع الجنوبية يوقدون النيران بأخشاب ندية كانوا ينثرون الرماد إلى أقصى ما حواليهم، لطرد الأرواح الشريرة التي تهيم بالأجواء المظلمة والتي كثيراً ما تهبط فتسكن أعالي الأشجار.

وبدراسة هانيبال للنهر وللصخابين المدافعين عن شاطئه الأقصى، أحس باكتئاب رجاله فساقهم إلى العمل، وبذلك تحول المعسكر إلى خلية تركزت فيها الاستعدادات لعبور النهر، ومن ثمة استحضروا قوارب من كل صنف من القرى التي على الشاطئ القريب، ولما رأت الأسر بهذه القرى أنهم كانوا يتقاضون ثمن قواربهم بالفضة، عمدوا إلى صناعة قوارب من الجلد وأرماثاً من ألواح الخشب، للحصول على مزيد من الفضة من الجنود الأجانب

(ولتعجيل رحيلهم) .

وقد استخدم هانيبال فؤوسًا لقطع الأشجار بالغابات لإضافة جذوع خاوية إلى الأرماث، ثم راحوا يبحثون عن جلود الماعز يلفون فيها معداتهم عندما يقطعون التيار وهم يسبحون فطالما شقوا طريقهم فوق صفحات أنهار كثيرة مماثلة.

وفي غير مرة بعث هانيبال بهانو بن هاملكار وبصحبته صف من الفرسان الأيبيريين لعبور نهر الرون في مكان ضحضاح عند إحدى الجزر.

وعند أصيل اليوم التالي كان قد تم ما يكفي لعبور النهر، فارتفاع دخان أسود في الشمال ينبئ أن هانوا قد عبر فعلاً دون أن يلمحه أحد من فصائل الغاليين الحربية المنتشرة على الساحل في أهبة وترقب، فأطلق هانيبال الأبواق تدوي داخل المعسكرات، والمزامير تعوي بينما تقاطرت الكتائب صوب الشاطئ وهي ترفع عقيرتها بنداءات الحرب التي تَصُمُّ الآذان، ورداً على هذا التحدي راح الغاليون ينشدون في حماسة آياتِ شجاعتهم، وهم يدقون بحرابهم على دروعهم الخشبية الطويلة، ويخلعون ملابسهم استعداداً للملحمة تتحدث بها الركبان، وتضاف إلى المتواتر من أساطير أسلافهم الشجعان.

بيد أن شيئاً من هذا لم يتم للغاليين، فعندما علت الضجة إلى أقصاها، واقتحمت جموح القرطاجيين الماء وجيادهم التي تشق بهم التيار سابحة، وهم في حماية رماة النبال في قواربهم المتسعة نوعاً مَّا، حينئذٍ ظهرت فرسان هانو في الغابة بكامل لباسهم الحربي خلف رجال القبائل (الذين كان عملاء مرسيليا قد حرضوهم على القتال).

وما كاد الغاليون يبدون هذه الشجاعة حتى اكتسحتهم القوات المسلحة التي حطت عليهم من القوارب وأجلتهم عن الساحل، ففر المحاربون الغاليون مذعورين، إلى حيث كان الطريق أمامهم مفتوحاً صوب مصب النهر.

وعندئذٍ أوقف القرطاجيون إخراجهم المسرحي وتقدموا كما ينقلوا جيشهم بكافة وحداته وعتاده عبر النهر، أما الفيلة التي كانت بطبعها لا يقر لها قرار فقد نقلوها بحيلة أخرى، إذ أنزل حراسها بضع إناث منها إلى رمث ضخم شديد التماسك يغطيه الثرى، فتبعها بعض الذكور، ثم دفعوا بالرمث العظيم مع التيار، وحينئذٍ تبعته بقية الأفيال وهي تسبح أو وهي تخوض الماء.

وفيما عدا فيلاً واحداً كان أثيراً عندهم، فإن قطيع الفيلة كله كان من الحيوانات الإفريقية التي لا يزيد ارتفاع الواحد منها على تسع أقدام، وكان أخف حركة وأوفر نشاطاً من النوع الهندي الذي يبلغ ارتفاعه أحد عشر قدماً، وكانت هذه الفيلة تألف العمل في الماء ولكنها تنفر من زمهريرة نهر الجليد عندما ينساب في أحشاء نهر الرون.

وبالرغم من أنهم عبروا النهر دون خسارة في الأرواح تقريباً، فلم يقض هذا على القلق الذي كان يساورهم، ذلك لأن أولئك الذين تسلقوا الأشجار الطويلة ذكروا أن بالأمام إلى الشرق البعيد تسامقت المرتفعات إلى قُلَلٍ سوداء قد لفها نقابُ السماء الرمادي حتى تراءى كما لو كان الطريق أمامهم قد سدته الجبال الضاربة في أعماق السماء!

وبجانب هذا قد تعذر على القوم تجفيف ثيابهم وتدفئة أبدانهم بالغابة الشديدة الرطوبة، أما ما أفزعهم حقّاً فهي المسافة التي قطعوها مذ رحلوا عن شاطئهم الذي ألفوه، إلى جانب ذلك المنظر الغريب الذي تبدت فيه هذه البقعة الشمالية التي خيل إليهم أنها علت وعلت حتى تغلغلت في ملكوت آلهة مجهولة.

ثم حل النوميديون، وقد راحوا يضمدون جراحهم، وهم فلول الناجين من فريق عسس الجيش وحراسه الذين كانوا قد اشتبكوا بفرسان الرومانيين المسلحين الوافدين من مصب نهر الرون.

فلم يضيع هانيبال وقتاً في استعداء ضباط كافة وحدات الجيش

الوطنية معاً، حتى يكشف لهم عن غضبه لتذمرهم المتزايد.

فقدم إليهم أولاً "ماجال" أكبر رؤساء عشائر البوي، وكان عضواً بهيئة قيادة جيش القرطاجيين، فذكر هذا أنه قد حضر مع رفقائه عن طريق جبال الشرق المغطاة بالجليد، وأن قبائل الكلت قد اعتادوا القيام بهذه السفرة عبر المرتفعات، وأن هذا الطريق وإن كان غير معبد فهو مألوف يعبره الرجال والدواب.

وبعد هذا واجَه هانيبال أتباعه فراح يلسعهم بألسنة حداد كأنها السياط كيما يرغمهم على الاهتمام بالحقائق بدل الرضوخ للمخاوف والأوهام، وذلك لأنه كان يعرف طبيعة المحنة التي كانت ترقبهم وهم عليها قادمون.

"ما الألب هذه - سوى جبال مرتفعة بقدر، لها حد لا تتعداه، فهي لا تلامس السماء، وإنكم سوف تجتازونها ومن فوقكم ترتفع هذه السماء، فعشائر الكلت يعيشون عليها ويزرعون الحقول هناك".

ثم راح يذكرهم بطول الطريق الذي قطعوه فقال: "لقد قطعتم من قرطاجة الجديدة حتى هذا النهر ستة آلاف وأربعمائة فرسخ، فواصلوا السير ألفين وستمائة أخرى، وحينئذٍ تصلون إلى وادي أول نهر إيطالي".

وأمرهم أن يفكروا في الرومانيين فاستطرد يقول:

"تقولون إن جيشاً رومانيّاً قد حل هنا قادماً من البحر، وهذا حق؛ عودوا إذن إلى وادي بيتيس أو تلمسوا ملاذاً في حمى الأيبيريين بقرطاجة الجديدة فستدرككم جيوش الرومانيين، قادمة إليكم من البحر، أنَّى كنتم؛ اذهبوا إلى قادش فسيتبعونكم إليها، فهل تؤثرون أن تقبعوا في عقر داركم؟ إن أزواجكم وأبناءكم يرقبون عودتكم، فبأي حال وعلى أية صورت تعودون؟ كهاربين من عدو لم تلاقوه بعد؟".

لقد عبر هانيبال عما في نفسه بكلمات جافة جادة مبيناً أنهم إذا

استطاعوا هزيمة هذه الجيوش في روما نفسها فسيقضون على مقدرة الرومانيين على شن الحرب، ومن ثمة يصبحون أحراراً في أن يعيشوا حيثما يشاءون وكيفما يشاءون.

ولم يسألهم ثانية عما إذا كان بينهم من يرغب في العودة إلى بلاده، ولكنه، عوضاً عن هذا، صرفهم كما يستعدوا لارتحال طويل الأمد، وبدلاً من أن يواصل السير صوب الشمس المشرقة سار بهم شمالاً حذاء شاطئ الرون الأيسر، ومعه مرشدون من القرى، وكانت المرحلة الأولى من زحفه، كما توقع، طويلة المدى قليلة منازل الراحة أو الاستجمام (وجد بيليوس كرنيليوس سبيو، ومعه جيش الحملة الأسباني، المعسكر مهجوراً، وكان على كثب من مواقع ايجس مورتس الحالي).

ولم يحاول هانيبال أن يتخذ طريق الساحل من حيث هبط الجبليون إلى حافة البحر، فقد كان هذا الطريق يؤدي من مرسيليا المعادية إلى ساحل الليفوريين ومن ورائه كانت تقف حاميات الحدود الرومانية في الانتظار، ولكن كان أمام القرطاجيين طريق آخر إلى الشمال عبر مرتفعات جبال الألب يؤدي بهم إلى منابع نهر البو حيث كان حلفاؤهم الجدد من قبائل البوي والانسبرس، كما بين ما جال ورفقاؤه (تورط رؤساء عشائر الغاليين فأعطوا وعوداً بمدد أكثر مما يستطيعون، وذلك من فرط قلقهم واهتمامهم).

وكان هناك طريق ثالثة تؤدي إلى الساحل عبر البحر، ولكن من الواضح أن هانيبال لم يجعله موضع الاعتبار، فقد كان القرطاجيون يستخدمون بمواني الساحل الأسباني اثنتين وثلاثين سفينة مقابل مائتين، ذكرت التقارير أنها كانت مرابطة بالساحل الإيطالي، وإذن فإذا كانت مراكب النقل اللازمة لجيش القرطاجيين وبها الدواب والعتاد والعربات على أهبة الاستعداد، فإن رحلة بحرية صوب الشرق كانت لابد تتحدر بسفن الحراسة القرطاجية إلى حيث مراكز العدو بجزيرتي كورسيكا وسردينيا، وبذلك تتعرض لخطر يكاد

يكون محققاً، هو خطر الالتقاء بأسطول روما الحربي الذي كان يستطيع أن يدمر سفن الحراسة عن آخرها.

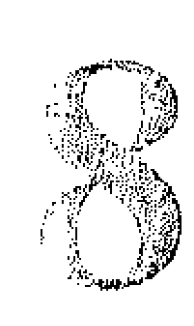
وبالرغم من هذا فإن هانيبال لم ينتزع مسألة الطرق البحرية من ذهنه، لعل أن الزمن كفيل بتغيير الأوضاع، وأنه على مر السنين قد يضم مرفأ قرطاجة الداخلي عدداً أكبر من السفن؛ فلو استطاعت المدينة العظيمة أن تحول مواردها إلى التسلح دون أن تخشى مناوأة الرومانيين.

وما كاد يحل شهر سبتمبر حتى أدار جيش هانيبال ظهره لأول حملة رومانية، ثم اختفى عند أعالي نهر الرون.

وصدر في الوقت نفسه أمر من روما بوقف إبحار قوة الحملة الثانية بمواني صقلية الجنوبية، فعادت إلى إيطاليا فرق الجيش التي كان من المزمع قيامها إلى إفريقيا، وتحت قيادة قنصل روما الثاني طيباريوس سمبرونيوس لونجاس بدأت هذه الفرق رحلتها الطويلة شمالي نهر البو، حيث كان من المتوقع ظهور هانيبال.

■ ■ ■

هانيبال العظيم على أبواب روما !!



تسير جبال الألب في هيئة سور عظيم منفرد، فهي تتكون من جملة سلاسل صخرية كثيراً ما تنحدر هابطة إلى البحيرات، أو ترقى شامخة إلى المرتفعات العظيمة حيث الجليد الدائم، وعلى أية حال فمن حيث أتيتها فإنك واجد تماثلاً معيناً. فلابد أولاً من تسلق حافة خارجية إلى واد أكثر ارتفاعاً، ولما كان الماء يتخذ دائماً أيسر السبل عند انحداره، كانت الأنهار تكشف عن أكثر الطرق صلاحية للتوغل في الجبال، فعليك أن تتبع مثل هذا النهر مجتازاً الأماكن المأهولة بالوديان المرتفعة، وأن تلزم شاطئه بعد أن يشتد تياره ويتحول إلى سيل عرم رمادي اللون تغذيه أنهار الجليد وكتله الذائبة التي تحط عليه من عَل، وكذلك الأمطار المنهمرة، وحينئذٍ يبرز أمامك حصن جبال الألب الداخلي ممثلاً في سلاسله المرتفعة التي يكلل قممها الجليد، وهناك يعجز نهرك عن إرشادك إذ يتشعب إلى ينابيع ومساقط مائية تنحدر من القلل الصخرية وتختفي أيضاً في أحشاء غابات كثيفة.

وعند هذه النقطة لابد لك من دليل يرشدك إلى مسلك بين الجبال عند الأفق يخرج بك من مأزقك ويؤدي بك إلى حيث تريد - وإلا فستضل الطريق وتتلقفك مسالك مسدودة، تصل إلى حافة هوة خفية غادرة، بعد أن تكون قد خلفت وراءك البقاع المأهولة بالبشر، وقد يشتدد البرد حتى ينذر بالخطر إلا في أواسط فصل الصيف.

أما في الخريف فتظل الحيوانات ترعى الحشائش التي تنمو متأخرة تحت خط الجليد، وإذا ارتقيت مجتازاً حدود الغابات والأعشاب والطحالب جميعاً أحاطت بك بقايا كتل الصخور الضخمة وأسوار الممر الشاهق الجرانيتية، واكتنفتك منحدرات الجليد، وقد تهب عاصفة محملة بسكرات البرد اللاذع وبالسحب القاتمة فيختفي المنظور وتنعدم الرؤية، وإذن فعلى متسلق الجبال أن يحمل طعامه معه فوق الممر المرتفع وأن يجتازه بأسرع ما يمكن إلى المنحدرات ومنابع مجرى النهر في أسفل الجانب الأقصى.

وقبل مجيء هانيبال كانت قبائل الشعوب قد نزحت مخترقة جبال الألب، ولابد أن قبائل الكلت على طول نهر الرون كانت على دراية بأقرب هذه الممرات الجبلية، بيد أنه لم يسبق لأي جيش نظامي من الأجانب أن قام بمثل هذا العبور، وكان عدد الجيش القرطاجي حوالي ثلاثين ألفاً من المرتجلين وثمانية آلاف من الراكبين، وكان يمده قطار من عربات النقل ودواب الحمل الزاخرة بالعتاد التي كان لابد من عبورها جميعاً، ويصحبه قرابة سبعة وثلاثين فيلاً لا محيص عن رياضتها حتى يسلس قيادتها فتسير فوق أرض وعرة غير مألوفة - وكانت جبال الألب غير مألوفة قط للفيلة الأسيرة.

ولم يكن الزحف قدماً صوب العدو أو الهبوط من منحدرات الجبال من المشاكل العسيرة التي يتعذر حلها على هذا الجيش العجيب الذي ألف مرتفعات أسبانيا الجرداء، فالنجاح في عبور الممر الوعر الغادر بين قلل الجبال كان يتوقف على أمرين: أدلاء للإرشاد إلى الدرب السالك المستقيم وارتحال عاجل غير متلكئ، للعبور بالدواب، في يومين أو ثلاثة إلى حيث ترعى فوق السفوح التي سيهبطون إليها.

وكان هانيبال ـ إلى جانب هذا ـ في حاجة إلى أن يحتفظ بالطريق خلفه مفتوحاً بين جبال البرانس والأنهار الإيطالية، فإذا أخفق في ذلك انقطعت الصلة بين جيشه وقاعدته الحربية في أسبانيا.

فأي الطرق قد اتخذه القرطاجيون المهرولون المعنون؟ لقد حير لغز اختراق هانيبال جبال الألب الدارسين والجغرافيين طوال القرون التي أعقبته حتى الآن، وما زال هذا اللغز مغلقاً لم ينكشف تماماً، بالرغم من الجهود الجبارة التي كرست لحله وتضييق نطاق الاحتمالات التي تتصل بهذا الشأن، فلم يكن مستطاعاً تذليل أي من ممري سنت برنارد الكبير أو الصغير إبان الزحف القرطاجي، ويبدو أيضاً أن كتاب اللاتين في تلك الأيام الخالية - لقد اقتفى بولبيوس الإغريقي أثر هانيبال في هذا الطريق بعد وفاته بستين

عاماً - كانوا يعتقدون أنه كان لدى عبوره للألب أكثر إشرافاً على الجنوب واقتراباً من الساحل، أي بين جبل جينفر والبحر، فمثلاً وصف سترابو طريقه قائلاً "إلى توريني" .

وليس ثمة شك أنه قد أشرف على "توريني" عند منابع نهر البو (بالقرب من تورين الحالية) فأقرب الوصلات النهرية تقع جنوبي جبل جينفر، ولكن أي نهر قد أخذ سمته لملاقاة البو بالجانب الأقصى؟

ولكن لغز الوجهة التي انتحاها هانيبال تضاءلت أهميته بجانب سشكلة الوسيلة التي يسرت له تذليل الطريق أمام جيشه، بيد أنه قد توافرت القرينة التي تكشف لغز هذه الوسيلة وتجلوه.

وقد تدافعت قوات القرطاجيين خلال أربعة أيام صوب الشمال حذاء شاطئ نهر الرون الأيسر، مخلفين طلائع الرومانيين وراءهم بمسافة طويلة، وقد شرعوا يزحفون في إحساس من التهيب لم تخفف من حدته الأمطار الغزيرة التي هطلت، فوصلوا إلى بقعة تشعب عندها النهر إذ تلاقى مع نهر آخر أصغر منه تدفقت مياهه من أعالي الألب - إلى يمين القرطاجيين.

وعند لقاء النهرين كان يربض على شاطئ سهل خصيب تناثرت في أرجائه قرى الكلت - وقد أطلق الجنود على هذا السهل اسم الجزيرة - وقد ازدحم آنئذٍ برجال القبائل الذين تقاطروا من كل حدب وصوب للجدال أو النزال (فكلا الأمرين كانا متماثلين عند الكلت) في سبيل مسألة السيادة .

ويبدو أن هانيبال لم يضيع وقتاً بالجزيرة في حل مسألتين: التدخل كمحكم في الخلاف القائم فبت فيه بإقامة بعض القرطاجيين حكاماً على أملاك الجزيرة، ثم الحصول من الأهالي على الوفير من الملابس الصوفية والجوارب الطويلة والأحذية الجلدية، فأمدت هذه جميعاً رجاله بملابس شتوية عند عبورهم للجبال، وقد اصطحب معه أدلاء كما حصل على إمدادات،

ولعله أثاب الوطنيين على هذا بتأكيده لهم أن جيشه سيجلوا عن أملاكهم في الحال، وبعمله هذا حافظ على طريق العودة مفتوحاً إلى أقصى الجزيرة.

بعد هذا قام هانيبال بما حَيَّر المستطلعين من الدارسين الذين جاءوا بعده، "فالآن لدى ضربه في فيافي الألب مستطلعاً لم يتخذ طريقه صوب اليمين ولكنه عرج إلى اليسار، وقد يكون تفسير هذا بالغ اليسر - وهو أنه لم يسلك حذاء الفرع المنحدر من الجبل ولكنه اتجه صوب اليسار إذ كان هذا هو المجرى الرئيسي لنهر الرون، وبعبارة أخرى أغفل أول تشعب للنهر داخل الجبال كيما يتقدم إلى آخر أقصى منه، وكان هذا عند سهل الدروم كما يبدو، وكلما ضاق الوادي اختفت آثار الطريق حتى اضطر القرطاجيون إلى خوض النهر وهو مترع، ولقد جروا قطار عربات النقل إلى الخانق الصخري المعبد أعلى حافة الجبل حيث برزت قلل الجرانيت كأنها الحرس، وقد اكتظت هذه القلاع الصخرية بقوم أجلاف غلاظ شاكيي السلاح.

وكان من الواضح أن هؤلاء الكلت لم يعرفوا عن الجيش القرطاجي سوى أنه كان مثقلاً بثروة المتمدينين من جياد وعتاد وأسلحة موشاة بالفضة، فألقى هانيبال وضباطه نظرة فاحصة على المشهد من فوقهم ثم أوقفوا الجيش عن المسير، إذ كان آخر ما يرغبونه هو الاشتباك مع برابرة غرباء فوق حافة الجبل، ولهذا بعثوا من بين مرشدين من عشائر الجزائريين من يتحدث عن لسانهم إلى هؤلاء القوم، وصحبهم بعض المحنكين من الضباط القرطاجيين لدراسة الموقع، وقد تم التفاوض في ظلال هدنة تراضوا عليها.

وقد عاد الرسل الكلتيون القرطاجيون يحملون الأنباء بأن حماة الجبل كانوا من قبائل "اللوبرجيين" الشديدي المراس في القتال المعتادين على السلب والنهب، وأن مدينة سوقهم الرئيسي كانت تقع بالوادي القريب.

أما هانيبال فقد استوثق من جانبه أن قبائل "اللوبروجين" كانوا يحملون السلاح في أثناء النهار فقط. أما في الليل فكانوا يعودون إلى أكواخهم

يلتمسون الراحة فيها.

وأزف الوقت لأن المطر المتواصل قد يتحول إلى جليد يخفي الدرب المسلوك، وكان فصل العواصف على الأبواب.

وقد أمر هانيبال أن توقد النيران هذه الليلة وتظل موقدة بالمعسكر دون اعتبار لنقص الوقود، وبمنأى عن هذه النيران جهز هانيبال فصيلة من مشاة الكلتبيريين كاملي التسلح، وسار بهم من جانب الخانق حتى أوصلهم إلى المواقع المختارة وفي حافة الجبل التي تخلى عنها رجال "اللوبروجين" عند حلول الظلام.

لقد تم هذا ولكن بثمن غير قليل فقد وقعت إصابات كثيرة وزُهقت أرواح الذين سقطوا من فوق هذه المرتفعات، وبإشارة معينة من شعلة متحركة شق الجيش طريقه من أسفل صوب هذه المرتفعات، بيد أن عربات النقل كانت تنتقل ببطء في الظلام، وعند الفجر كان قطار العتاد والفرسان مازالوا يجتازون الممر وهم فرادى، فقد أخذ هذا الممر في الضيق كلما انحدر إلى الجانب الأقصى حتى أصبح مجرد دِرْبٍ فوق منزلَقٍ صخري وَعْر.

وقبل شروق الشمس برز مقاتلو اللوبروجيين وهم يتسلقون الجبال صوب المواقع التي يشغلونها في أثناء النهار، فلما وجدوا أن القرطاجيين قد احتلوها بينما راح قطار الإمدادات والعتاد يدور حول المنحدر احتوتهم لحظة من التلبد الذهني، بعدها تدافعوا منحدرين صوب الدرب الضيق، واعترضوا طريق عربات النقل المحملة بأشهى الغنائم والأثقال، فماجت دواب الحمل وهاجت وفرت الخيول الجريحة نافرة وهي تدفع بالرجال والحيوانات الأخرى إلى أغوار الهوة السحيقة.

وقد حجز هانيبال قوة حرسه فوق المرتفعات حتى استطاع أن يستوثق مما كان يدور بالملحمة التي كان يلفها الضباب أسفل الجبل، ثم ساق رجاله

من الأسبانيين خفيفي السلاح لإجلاء رجال القبائل عن المنحدر، وما كاد هؤلاء الجبليون يحسون وطأة الهجوم حتى فروا كالماعز إلى الوادي البعيد.

وهناك استطاع الفرسان القرطاجيون أن يعملوا فقد طهر هؤلاء المتطون الغضاب مجموعات المساكن المطلة على المراعي من سكانها، ثم اقتحموا المدينة المسورة فوق سفح الوادي، وكان الأهالي قد هجروها مخلفين وراءهم كميات من القمح وقطعان من الماشية للذبح تكفي لإطعام الجيش ثلاثة أيام.

وقد انحدر هانيبال بقطار الإمدادات والتموين الثمين إلى المدينة حيث عسكر به هناك، ولكن لم يكن معه حينئذٍ أي أدلاء، فلقد كان المندوبون من رؤساء عشائر البوي والسريس قد ساروا رأساً للقيام بالاستعدادات اللازمة لوصوله إلى نهر البو، وفي المدينة عاد المرشدون الجزائريون موضحين أنهم لا يتقصون أية معالم للطريق وراء هذه المنطقة، وأضافوا أن الجيش القرطاجي كان محتاجاً فقط إلى أن يستمر في سيره صوب مشرق الشمس (يعنون الجنوب الشرقي)، وقد بدأ هانيبال في تكوين فكرة جديدة عن أخلاق الكلت الأوربيين وعدم ثباتهم.

ولم يكن ممكناً أن يتوقف بالوادي في منتصف الطريق أو أن يعود أدراجه، وفي اليوم التالي تحرك الجيش مجتازاً هذا الوادي المستوي وهو يراقب في هذه الأثناء المرتفعات الصماء الكئيبة حيث تناثرت أكواخ من البوص فوق حافات الصخور، وحيث كان يتلصص عليهم رجال يغطون جسومهم بجلود الحيوانات وفرائها.

وفي اليوم الثالث برزت لهم في الطريق جماعة من الشيوخ يلوحون بالأغصان رمزاً لصداقتهم، ويعرضون الماشية والأدلاء لإرشاد الجيش المنهوك إلى الطريق، فقبل القرطاجيون كل هذا بتحفظ، ثم قادهم أدلاؤهم الجدد إلى شاطئ نهر صغير تعج مياهه وتمور منحدرة إلى قاع من الصخور

الضخمة وتضيق عليه الخناق أسوار من الجرانيت، وهنا اختفى الشيوخ المخلصون وتدحرجت كتل صخرية إلى أسفل لتسد الطريق، بينما دهمت عصابات من الجبليين عربات النقل وتناوشت حراسها كأنها ذئاب خاطفة مسعورة، فانقطعت الصلة إلى حين بين قطار العتاد وهانيبال وبصحبته الحرس الخلفي من المشاة ولكنه وفق إلى وضع حد لهذا الهجوم الهمجي العنيف بارتقائه لسور الخانق الصخري وتطهيره من قطاع الطرق النهابين، وقد وقف فوق هذه القمة المسطحة ليحمي آخر المتسلقين ومعهم دواب الحمل المبعثرة، وكذلك لسبب آخر:

فمن هذا المرتفع يستطيع القرطاجيون أن يراقبوا برج الألب، ذلك لأن في مواجهتهم رأسًا كانت المرتفعات الداخلية تشق أجواز السماء في سطوح صخرية رمادية اللون حيث تكللها قلل يغطيها الجليد، ذات لون ناصع يغشي البصر في ضوء الشمس، وقد تغطيها سحابة تسوقها إحدى العواصف، ومع كل مرة تختفي فيها الشمس كان البرد يشتد فأين إذن يقع الممر بين هذه القلل والقمم والمرتفعات؟

ولعلَّ القرطاجيين كانوا سيجدون منفذاً عند السفح لو أنهم ابتعدوا عن مجرى النهر وواصلوا سيرهم صوب الجنوب الشرقي كما نصحهم الجزائريون من قبل، ولو أنهم فعلوا ذلك لتحاشوا الجليد، وقد استقر منهم الرأي على أن يلتزموا خانق النهر ذي العجيج، ولذلك شرعوا في القيام بآخر تسلق صوب الجانب الشمالي من الشرق.

ولما كانوا لا يعرفون أي شيء عن الطريق أمامهم فهم لم يصفوه في وضوح قط، إنهم يذكرون أحداثاً غير عادية ولا ينسون الإعياء الذي كان يشتد كلما أمعنوا في تسلق المرتفعات، وقد عنى هانيبال بوضع الفيلة في مقدمة موكبه، ولعله كان يرى بهذا إلى أن يخيف بها الجبليبن الذين لم يسبق لهم رؤية مثل هذه الحيوانات فيفروا مذعورين، أو لأن غريزة هذه

الحيوانات العظيمة قد تدفعها إلى التزام أيسر الطرق في الانتقال.

على أية حال كان لابد من رياضة هذه الحيوانات حتى يسلس قيادها فتتسلق المرتفعات؛ أما الأعداء من بني البشر فسرعان ما اختفوا إذ خلف الجيش مساكنهم وراءه، كما اختفت الأشجار ومثلها آخر أثر للحشائش؛ وفي يوم ما عند الفجر شاهد المنجم بصفحة السماء مجموعة نجوم الدب الأكبر (وهذا يعني أن اليوم كان في الجزء الأخير من أكتوبر).

وقد اضطر القرطاجيون إلى عبور المياه التي تمور ولا يستقر لها قرار من شاطئ إلى الآخر، وأن يجروا بأنفسهم عربات النقل خلفهم، فلم تزايلهم برودة الماء المثلج، وبعد برهة دفعت الريح بالسحاب في عنف من فوقهم وقذفت بالجليد إلى وجوههم، وقد تلاشى النهر في ينابيع منفصلة كانت تنحدر في مساقط يطويها الغموض، ولما أعوزهم الخشب لإيقاد النيران عمد الحراس إلى تغطية أبدان الفيلة بقماش الخيام الصوفية حتى تواصل السير دون توقف.

وفي اليوم التاسع، وفق تقويمهم، بعد مغادرتهم للبقعة التي كانت قبائل "اللوبروجيين" يعيشون فيها، وجدوا أنفسهم يسيرون على الجليد فوق أرض مستوية حيث راحت الرياح تصفعهم من كل جانب، وعندما انجابت السحب رفعوا أبصارهم صوب السماء، فقد وصلوا إلى القمة حيث الممر المنشود.

وهنا أمر هانيبال بالتوقف يومين، وكان هذا ضرورياً، ففي هذه الأثناء انضمت إلى المعسكر وحدات كانت قد ضلت طريقها، وتعافت الجرحى، وعادت إلى قطعان الجيش خيول كانت قد شردت بعد أن أسقطت وثاقها، ومات كثيرون من المرضى هنا في الجليد.

وفي صباح اليوم الثالث صفت السماء، وكانت قلاع جبال الألب تنتصب على الجانبين، وهب الباقون على قيد الحياة في تلكؤ عندما دعاهم الضباط

للوقوف كل تحت علم فرقته، وكانت أجسامهم المتصلبة تتلوى من ألم الجوع، وقد عاد هانيبال، الذي كان في المقدمة مع طلائع جيشه، ليدعو إليه قادة العشائر المختلفة، وكان قد أجاد التخاطب بلغة الباليبريين وكذلك الكلتبيريين، وبمجرد أن أتاه هؤلاء القادة ارتقى بهم فوق ربوة من الصخور.

وكانوا يستطيعون أن يمدوا البصر من فوق هذه الربوة حتى أقصى الشرق حيث تطلع الشمس، وكانت تقع من تحتهم غابة داكنة اللون وتمتد حقول مزروعة خضراء تلمع كأنها الأحجار الكريمة - حقول إيطاليا.

فترك لهم هانيبال فترة يتمتعون فيها ليفقهوا معنى هذا، وهبت عاصفة قائمة على القمة كانت مثاراً للطيرة كسابقة لها هبت على جبل إريكس عندما كان طفلاً. فقد كان يرجو أن يحتفظ بالطريق إلى أسبانيا مفتوحاً خلفه، ولكنه استطاع أخيراً أن يتبين أن الطريق قد أغلق بين مثوى قبائل "اللوبروجيين" والقمة التي بها الممر، وأن صلة الجيش نفسه بأسبانيا ستنقطع بعد عاصفة أخرى.

ولفهمه الموقف على حقيقته فقد ألقى بعباءته السوداء إلى الخلف كيما يبهر الأبصار بالمجوهرات التي ترصع سيفه ثم أشار حواليه مبتسماً وراح يقول للقادة: "ليست هذه أسوار إيطاليا فحسب، بل روما أيضاً، وهأنتم قد اعتليتموها" ثم استطرد قائلاً وهو يشير إلى أسفل: "هناك مدن تفعمها الثروة وتزينها النساء، وما عليكم إلا أن تقصدوها على صهوات جيادكم فتدخلوها".

فحمل الزعماء رسالته إلى رجالهم المنهوكي القوى، وسرعان ما تزايدت الأنباء وانتشرت فإذا بحراس مؤخرة الجيش يسمعونها على هذا النحو: "لقد انجابت الظلمات وانقشعت أيام النحس... فإننا نسير الآن قدماً منحدرين إلى المدن التي تحتنا حيث الخمر والنيران وأسلاب الذهب و - تصوروا فقط - نساء يترعن لنا الكؤوس سلافة".

ودفع الجيش بنفسه إلى الأمام فاندفع وفي صدره أمل جديد. وكان الطريق إلى السفح أشد وعورة منه إلى القمة، فقد كادت معالم الدرب تختفي تحت الجليد، وقد غطى الجليد الحديث السقوط قشرة صلبة من الجليد القديم، فظلت الدواب ثلاثة أيام لا تجد ما ترعاه، وكانت تتعثر وتسقط من فرط الضعف والوهن، أو كانت تصارع في يأس للخلاص عندما تتكسر طبقة الجليد الحديث والقشرة القديمة وتقع الدابة تحتها، ولم يذكر رجال الجيش فيما بعد سوى عقبات معينة فحسب، وفي إحدى المرات انهارت كتلة من الصخر مغلفة بالجليد فسدت الطريق إلى منحدر وعر لم يتيسر شق طريق جديد من حوله، حتى تم إنشاء ممشى من الخشب فوق المنحدر.

وعندما خلفوا مزالق الجليد وراءهم سقطت صخرة ضخمة فسدت الطريق الهابط إلى الغابة، وقد شرع المهندسون للعمل في إزالتها بحرق حشائش جافة، وجذوع أشجار من فوقها، ثم بصب دنان من الخل فوق الحجر المتكلس، وبعدئذ استطاع الرجال بفؤوس ضخمة تحطيم الصخرة وإزالتها، ومن ثَمَّ تيسر للرجال والدواب أن يواصلوا سيرهم منحدرين إلى ظلال الأشجار حيث المياه الجارية، والحشائش التي سدت سغب البهائم بعد أن أوشكت أن تنفق جوعا، وفي هذه الليلة أوقدوا بالغابة نيراناً.

وفي خمسة عشر يوماً عبر هانيبال جبال الألب من أول مرتفع بها، وظل الجزء الأكبر من هذا الجيش على قيد الحياة - ١٢٠٠٠ أفريقي من المشاة ومعهم ٨٠٠٠ أسباني وكذلك ٦٠٠٠ فارس، وإذن فجميع من تبعوا هانيبال حتى منابع نهر البو كانوا ٢٦٠٠٠، وربما ضاع أو ضل اثنا عشر ألفاً آخرون وهم في طريقهم من جبال البرانس.

وعندما وصلوا إلى أول مستعمرة للغاليين على ربوة مرتفعة من الأرض لم يجدوها وفق ما كانوا يتوقعون ويشتهون.

وكان غاليو إيطاليا بجبال الألب - كما كان الرومانيون يسمون هؤلاء

الكلت - جنساً فارع العود، متشامخ الأنف سادل ثوب الخيلاء، قلقاً مضطرب الذهن إلى أقصى حد، ويقول ديدورو الصقلي، الذي عاش في عهد يوليوس قيصر، إنهم كانوا يضعون حول أعناقهم سلاسل من الذهب الخالص للتدليل على هيبتهم، ويرخون شعورهم الطويلة إلى الخلف كمَعْرَفة الجواد، ويطلقون شواربهم لترشيح وتنقية المرقة التي كانوا يعبونها، ويقدمون أفخر ما عندهم من لحم وخمر لأي ضيف طارئ .. "ومن عاداتهم أيضاً أنهم كانوا يشرعون، حتى وهم يتناولون الطعام في الجدال حول أتفه الأمور، ثم يستفز أحدهم الآخر للمبارزة دون أي اعتبار لأرواحهم".

ولم تكن هذه الاستهانة بالحياة وليدة صلابة عود الغاليين وصبرهم على المكاره فحسب، ولكنها كانت ثمرة ما تلقنوه عن كهنتهم من أن أرواحهم لن تموت ولكنها تنتقل من بدن لآخر قد يكون بدن حيوان ما.

وكان هؤلاء المقاتلون شغوفين أيضاً بالتفاخر بأعمالهم المجيدة، وقد قال ديدورو في سياق الكلام عنهم: "وهم يرفعون عقيرتهم مثنين بمآثر أسلافهم الشجعان، كما أنهم يضخمون خوذاتهم البرونزية بقرون تضفي عليهم مظهراً من عظم الحجم، ويحملون دروعاً في طول أجسامهم، وقد برزت فوق كل منها رأس من البرونز لأحد الحيوانات.

وكانوا أيضاً يتكلمون بألغاز، معبرين عما يعنون بتوريات خفية عسرة الفهم. بينما لا يفتئون يمجدون أنفسهم، وبالرغم من مظهرهم المخيف الذي يحمل صورة الوعيد، فإنهم كانوا سريعي البديهة، وأفرى الذكاء والقدرة على التعلم".

ويرى ديدورو أنهم يشبهون أقرباءهم الأبعدين "بريطانيا أيريس، أو الأيرلنديين" فهم مكرة ممعنون في عاطفتهم، وقد ترك الغاليون المعرفة والتعليم يزاولهما كهنتهم الذين راحوا يفسرون الفأل والطيرة، ويكتبون التعاويذ وينبئون بأحداث مستقبلة، وكانوا يعملون بوحي من أزواجهم المستعبدات لغرائزهن،" الحسناوات الفارعات العود، اللاتي كن يتحرقن شوقاً

لحيازة مطارف الغزل الرقيق والحصول على مثل الأدوات المنزلية الفاخرة التي يقتنيها الأتروسكيون بالجنوب.

وكانت النساء ترقب غلة الحقول المنزرعة في حسد، بينما كانت تخطر على أذهان رجالهم - وقد استقروا بالمدن في أُسر وعشائر - ذكرى باهتة لأمجاد أسلافهم المقاتلين الذين اكتسحوا أوربا بأسيافهم المسلولة.

وكان الغاليون في الواقع لا يزالون يحملون سيوفاً طويلة من طراز قديم، لا يصلح إلا لجز رقبة العدو أو لتقطيع أوصاله، وكانت هذه السيوف مثبتة إلى أحزمتهم الموشاة برقائق من الفضة والميناء الأتروسكية الزرقاء (النافرة).

وإذن كان هؤلاء الغاليون لا يزالون بدائيين متشبثين بأراضي نهر البو الزراعية الخصبة (وادي باورس) بينما كانوا يشتهون، وهم يحرقون الأرم غيظاً وكمداً، أن يستمتعوا بمثل الحياة الناعمة التي يعيشها اللاتينيون بوادي نهر التيبر بالرغم من أنهم لم يتعلموا عنهم شيئاً قط.. وقال مندوبون من مارسليا للرومانيين وكأنهم كانوا يستطلعون الغيب: "لن يسهل على هانيبال نفسه أن يكبح جماح الغاليين أو أن يحد من شدة روحهم الشموس".

ولابد أن هانيبال قد صدم بما وجده في انتظاره لدى دخوله "سيسالبين الغالية" في شهر نوفمبر عام ٢١٨، فهو لم يجد أي أثر لحلفائه من عشائر البوي والانسريس الذين أقسموا على الوفاء له والوقوف إلى جانبه، وكانت أقرب القبائل تستعد لقضاء فصل الشتاء بمدنهم للجدال حول ثاراتهم القديمة وفضها.

وقد بدا واضحاً أن أحداً لم يفكر في مقاومة الاحتلال الروماني، أما الرومانيون فقد راحوا من الناحية الأخرى يُدَعِّمون مواقع حامياتهم الجديدة على طول النهر العظيم دون أدنى تفكير في الراحة والاعتصام بمدنهم عند حلول الشتاء، وقد تقاطرت قبائل توريني الغالية إلى طريق هانيبال

بأسلحتهم، ليشاهدوا في غير تحمس، جيش القرطاجيين الغريب في أثناء هبوطه العربيد من المرتفعات.

ومر الجيش بعشائر كلت نهر الرون وقد التفوا في عباءاتهم الداكنة، وامتطوا جياداً متورمة، وراحوا يحرسون قطيعاً من الفيلة المقمطة، ولذلك لم يبد هذا الجيش مهيباً جليل القدر كما صوره المتحدثون من قبائل البوي، وإلى جانب هذا كان رأي قبائل تورني قد استقر على معاداة القرطاجيين ماداموا أصدقاءَ لقبائل البوي المعادين لهم وأصحاب الثارات عندهم هذا العام.

وكان رد القرطاجيين على هذا العداء باتّاً صارماً إذ اكتسحوا مدينة قبائل توريني الرئيسية (عند تورين الحديثة) وطردوا المحتلين، وهنا سمح هانيبال لرجاله بفترة راحة قصيرة، يختبرون فيها العتاد الحربي ويستوثقون من صلاحيته، وتسترد فيها خيولهم المدللة قواها، وكذلك لأن الفيلة لا تقوى على احتمال برد الشمال القارص في فصل الشتاء الذي يتسبب في هلاكها.

ولذلك فسرعان ما سار هانيبال بجيشه غرباً عبر الساحل صوب ميلان ومدن البوي وانسربس، وقد سار القرطاجيون والأمطار البغيضة تنهمر من فوقهم، وهم يتلمسون طريقهم فوق أرض غريبة دون أن يضعوا ثقتهم في أي أدلاء أجانب، وعندما اقتربوا من نهر تيسيني (تيسينوس) اكتشفوا أن جيشاً رومانيّاً كان يجتاز الساحل في طريقه إليهم.

ولم يضيع ببليوس كرنيليوس سبيو أي وقت في إعادة الكرة للالتقاء بهانيبال، فقد حط القنصل الشريف رحله في بيزا (بعد تركه لحملته إلى نهر الرون) واتجه صوب الشمال للحاق بفرق الجيش المتحركة كيما يضع حدّاً لتألب الغاليين.

ومن المحتمل أن أيّاً من ببليوس أو جمهور روما ما كان ليتوقع نجاح القرطاجني الصغير في عبور جبال الألب مع جيشه خلال هذا الفصل، ولكن

القنصل كان هو المسئول عن سد السبيل أمامه إذا فعل هذا، ولذلك فقد خف ببليوس صوب الممرات وهناك علم أن هانيبال قد سبقه إلى نهر البو المكشوف، فاستدار شمالاً وهو متعجب، وسار حذاء نهير تيسينو حيث يصب في نهر البو العظيم، فقد كان من أصالة الرأي أن يقدم فوراً مع كتائبه المدربة على الاشتباك بهذا العدو المراوغ، ولم يستطع هانيبال أن يفلت من يده هذه المرة.

وكانت روح قوات القنصل المعنوية جيدة، ولم يكن صغار المجندين ليعرفوا شيئاً عن القتال الذي استَحَرَّ أواره مع القرطاجيين في عهد آبائهم، ولكن بعض القدامى من جنود "ترياري" (ثالث وآخر رتبة بين الكتائب) تذكروا أن البونيين أو أهالي قرطاجة كانوا قد تنازلوا عن سردينيا وكورسيكا مقابل صلح مُشْتَرًى، وقالوا إن البونيين يعوزهم الجَلَد والشجاعة على خوض موقعة حربية منظمة، أما رؤساء المئات (ضباط الفصائل) فقد أضافوا قائلين: إن هذا الجيش بالذات الذي يقوده هانيبال قد فوت على فرسان القنصل موعداً للقاء الطرفين ثم إنه فر بعد ذلك.

وراح ببليوس يتلمس طريقه شمالاً في حذر؛ مخندقاً حول المعسكر الليلي في عناية أكثر من المعتاد، وعندما دعا نوابه وضباطه إلى مؤتمر أخير قال هذا الغريب: "لا تتوهموا أن هذا القائد الخصيم قد أبدى شجاعة بعبوره لمر جبال الألب، فقد لجأ إلى هذا مضطراً لفزعه مما كان يتوقعه في حالة نكوصهم، وقد أضاع في هذا السبيل جانباً ضخماً من قواته، ولا زال الباقون على قيد الحياة يعانون البرد ويعوزهم الغذاء، كما أن خيولهم في حالة مزرية، وإنه لمن حسن طالع الرومانيين أنكم متفوقون عليهم من هذا الجانب".

وكان ببليوس يقرر الواقع بهذا القول أو يكاد، فلابد أن المعلومات كانت قد نقلت إليه ذلك لأنه لم يكن ممن يلقون إلى جنودهم بالقول جزافاً.

وكان هانيبال يرزح تحت أثقال القلق والتهيب إذ لم يكن قد التحم بكتائب نظامية من قبل، وبينما كان خلف سبيو رصيد من قوات روما الاحتياطية عدده، وفق التعداد الأخير، ٧٧٠،٠٠٠ من الرجال القادرين على حمل السلاح، ولم يكن خلف ابن هملكار أحد قط، إذ كان الجليد قد سد طريقه عبر جبال الألب والجيش الروماني قد قطع الصلة بيه وبين بلاده عن طريق جبال البرانس، وأخيراً كان البحر يحصره ويعوقه من الجانبين بينما كان مفتوحاً لتحركات أعدائه، أما أنباء الأحداث الخارجية فكانت تصل إلى هؤلاء الأعداء بنفس هذه الطرق من جميع السواحل ولكن كان يعز وصولها على هانيبال.

أما في أسبانيا فكانت الطرق البحرية مفتوحة أمامه والرسائل تصله من قرطاجة مع العدَّائين أو الحمام الزاجل، وبذلك انحسر طرفه وارتد فلم يعد يرى سوى البيئة التي تكتنفه عن كَثَب، ولعل هذا كان أشد ما يقض مضجعه.

وفي وادي نهر البو وجد القرطاجيون أنفسهم في موقف لا يزال محاطاً بالغموض، فالغاليون وهم الحلفاء الذين عقدوا الأمل عليهم، أخفقوا في اللحاق بهم والانضمام إلى قواتهم، فابتدءوا يسيئون الظن إذ علموا أن كثيرين من الغاليين كانوا يخدمون بالجيش الروماني على جُعل يتقاضونه، فخاطب هانيبال قدامى ضباطه، هيرت ومهربال بن بوملكار، اللذين كانا يسديان إليه النصح في اهتمام شديد قائلاً: "هناك شيء واحد لا شك فيه وهو أننا لن نستطيع العودة".

وبدلاً من أن يخاطب في هذا الشأن الجيش مجتمعاً أعد مسرحية صامتة ترمز لما يريد، وعندما اجتمعت الوحدات فوق المنحدرات المحيطة بمنخفض من الأرض أحضروا لفيفاً من الأسرى وأوقفوهم في هذا المنخفض الذي بالوسط، وكان هؤلاء الأسرى من الغاليين سكان الجبل، وهم مصفدون بالأغلال ملطخون بالأقذار مهزولون من فرط الجوع، فألقى الضباط أمامهم

مجموعتين من الأسلحة الغالية الثمن مع دروع ولباس من الزرد الذي يؤثره الكلت، ثم أعلنوا على الأسرى عرضاً معيناً هو أن هذه الأسلحة ستعطى لأي اثنين يتطوعان لمنازلة أحدهما الآخر حتى الموت، فالذي يبقى منهما على قيد الحياة سيحمل سلاحه ويروح يضرب في فضاء الله الواسع حرّاً طليقاً.

فتطوع جميع الأسرى لهذا القتال، ومن ثَمَّتَ فقد سيق اثنان منهما للنزال بعد أن نزعت عنهما الأغلال، وقد لاحظ القرطاجيون الذين كانوا يرمقون الأمر باهتمام شديد، كيف انتصب الاثنان في كبرياء عدما تأهبا بسلاحهما الكامل، إذ أحسا بأنظار الجماهير مسلطة عليهما، فتبارزا في وحشية حتى خر أحدهما يعالج سكرات الموت، وكان منظر المقاتل المهزوم وهو يجود بنفسه الأخير ألطف من منظر العبيد في الأصفاد أو أقل سوءاً.

وقد فطن آلاف المشاهدين إلى مغزى هذه المسرحية الرمزية الصامتة، واستنتجوا أنهم أيضاً لهم الخيار في أن يفوزوا بغنائم الحرب ويحملوا أسلابها أو أن يموتوا.

وفي ذلك المساء طاف ضباط من رؤساء العشائر المختلفة بنيران المعسكر يحملون من هانيبال هذه الرسالة: "ستحصل كافة العشائر المشتركة في هذا الجيش، منذ هذا اليوم، على الميزات نفسها التي ينعم بها القرطاجيون، وسيسترد العبيد الذين يصحبون سادتهم إلى هنا حريتهم، وسيدفع هانيبال ثمن هذه الحرية لسادتهم" وقد سرى هذا العمل بين جميع صفوف الجيش كما منح المغبونين جزاء معجلاً، وأثار الترقب للمزيد الذي سيأتي في الأعقاب، وسرعان ما جاء، فقد قطع هانيبال على نفسه عهداً بالتصريح بالعودة إلى الوطن لكل راغب في هذه العودة، بعد إحراز النصر بإيطاليا.

وفي صباح يوم خيم فيه الضباب على شواطئ تسينو تراءى الجيشان أحدهما للآخر، فتقدمت القوات الرومانية المنظمة إلى الأمام من تلقاء ذاتها. فالفرق اصطفت استعداداً للقتال والفرسان راحت تحمي جناحي

الجيش، ثم تحركوا إلى الأمام صوب جموع القرطاجيين غير المنظمة، ولكنهم لم يذهبوا بعيداً.

فقد برزت فرسان الكلتيبريين والبرابرة في أقصى الجانبين، وتقدمت جموعهم السريعة من خيالة الرومانيين، وهذا كل ما حدث.

فتبددت فصائل الخيالة الرومانية وتوزعت أشتاتاً إذ لم تَقْوَ على أن تصمد لهجمة الأفريقيين الذين طغوا عليهم بوفرة العدد، وكان الرومانيون جنوداً يمتطون جياداً فحسب، أما الأسبانيون فكانوا فرساناً مدربين، وإلى جانب ذلك فقط سقط القنصل جريحاً بين سنابك الخيل، ويقال إن ابنه وعبد ليغوري هما اللذان أنقذا حياة القنصل، ولكن إصابته كانت بالغة على أي حال.

ثم ظهر النوميديون في حلقة واسعة وهم يتقدمون صَوْب مؤخرة كتائب الرومانيين الثابتة، فبرزت من صفوفها الأخيرة جنود ترياري وقد شهدوا حرابهم الطويلة، فمرق النوميديون بجانبهم بعد أن رشقوا حرابهم القصيرة في جسومهم. عندئذٍ أصدر ببليوس أو نائبه أمراً حكيماً يقضي بانسحاب فرق الجيش إلى معسكر المساء الذي تحميه الخنادق، ما دامت فرسان الجناحين تبددت، فتقهقروا في تشكيلات متماسكة منتظمة وهم يحملون جرحاهم. فاقتصر الإفريقيون على متابعتهم عن كثب وهم يتطلعون إليهم كما لو كانوا يشاهدون منظراً طريفاً دون أن يحاولوا مهاجمة معسكر الرومانيين المحاط بالخنادق والأسلاك الشائكة.

وبهذا التصرف كسب هانيبال السانحة أو الجولة الأولى إذ تيسر له دراسة مميزات ففرق الجيش الروماني عند العمل، ومن المحتمل أن كارثالو رئيس شبكة الجاسوسية والمخابرات بالجيش القرطاجي وبعض ذوي الخبرة من الغاليين كانوا يطلعونه، في أثناء مراقبته، على التفاصيل ويفسرون له الأوامر الصادرة بالبوق والنفير.

وذكر الغاليون أن هذه الفرقة كانت هبة من الإله إلى قبائل التيبر، ولذلك كان يلتحق بها من حين لآخر كافة شباب المواطنين الذين قوى التدريب العنيف عودهم وعلمهم المران المنظم تنفيذ الأوامر آلياً، وكان لكل كتيبة نسرها الخاص من الفضة أو الذهب، يحمله قائد الألف المدلل الذي كان دائماً يأخذ مكانه في الجانب الأيمن من المقدمة، والذي كان يقوم على حراسته جميع رجال الكتائب الأخرى التي تحمل أعلاماً خاصة بها، وكان المجند ينقل، خلال سني خدمته، من آخر كتيبة إلى الألف المختارة، وربما ارتقى من رتبته كرئيس لعشر رجال حتى يصبح أحد رؤساء المئات المغبوطين بين هؤلاء الألف، وحتى الفصائل - التي كانت كل واحدة منها تتكون من ٥٥٠ - كان رجالها ينتقلون في مراكز محددة كأنهم الدمى، وكان المقدمون منهم أو الخط الأمامي هم أقدرهم جميعاً، وقد احتفظ قدامى المحنكين منهم بصف الترياري أو بالمؤخرة، وكانوا يخفون لنجدة الآخرين عند الحاجة، أما الفرقة نفسها فكان لها رديف من خيرة الترياري للاستعانة به عند الحاجة.

وبالرغم من أن عدد المشاة لم يكن يتجاوز ٦٥٠٠ مقاتل فكان بها عدد ٤٠٠ من الفرسان وكذلك قوات خفيفة أوفر عدداً لمناوشة العدو ثم مطاردته، وكان بالجناحين من القوات الإيطالية المتحالفة عدد أكبر من هذا، ولعلهم كانوا أقوى بدناً ولكن كان يعوزهم نظام الفرق الرومانية الحديدي.

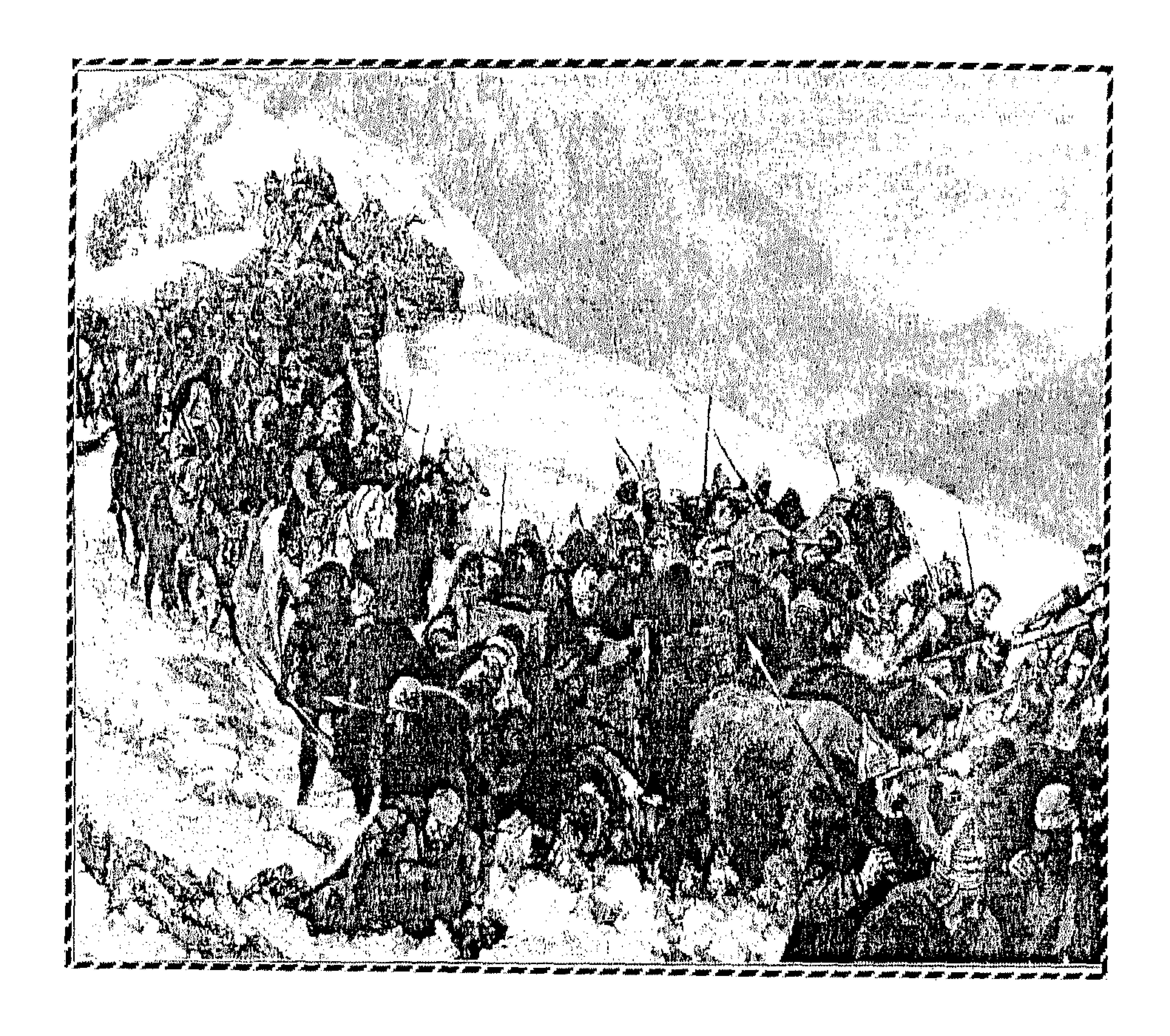
وقد عرف هانيبال أن قوة إله الحرب الرومانية كانت مركَّزة في هذا النظام، فقد دُربت جنود هذه الفرق على التزام أوضاعها فلا تفر من العدو أو تطارده - مهما صنعت القوات الخفيفة أو غير الرئيسية - وإلى جانب ذلك كان أولئك الجنود يستعملون سلاحاً متماثلاً ويحملون آلات حفر الخنادق والطعام وخيام المعسكرات على ظهورهم،" وكانوا لا يعسكرون أو يسيرون إلا وهم متأهبون للقتال، وكان قطار العتاد يحمل لهم الإمدادات الميكانيكية اللازمة لإنشاء قناطر متحركة لعبور الجنود، بدل القوارب،

ولإنشاء المنجانيقات لرمي قذائف من الحجر أو حراب، وآلات الدمار الخطرة، مع ألواح وكتل لإقامة أبراج من الخشب، ولذلك كان المعسكر الروماني متأهباً دائماً لمحاصرة العدو أو للخلاص من حصاره.

وواضح أن الرومانيين قد أنشئوا نظاماً حربيّاً ميكانيكيّاً لا يعتوره الوهن، ومع ذلك فسرعان ما فطن هانيبال إلى أنه كان من المتعذر على جنود هذه الفرق أن يؤدوا عملاً لم يسبق تدريبهم عليه، وأنهم كانوا يعتمدون على الأوامر التي تصدر إليهم - ومعنى هذا أنهم كانوا يعتمدون على عقول قادتهم - فماذا يصنع هؤلاء القادة أنفسهم إذا طرأ عليهم موقف لم يصادفهم مثله من قبل، وكيف يكون تصرفهم إذا غرر بهم أحد فجعلهم يخطئون؟

■ ■ ■

هانيبال يُطلقُ سَراحَ أسْراهُ بلا مُقابلٍ !!



9

كان هانيبال موفقًا عند إنجازه بضع أمور عند نهر تسينو، فقد استعاد رجاله النوميديون الخفاف الحركة ثقتهم فى لقاء الرومانيين بعد هزيمة بعضهم عند نهر الرون، وقد درس هانيبال بنفسه حال الفرق النظامية وهى تؤدى عملها مدة ثلاثة أيام، وأهم من هذا كله أن منزلة القرطاجيين قد ارتفعت فى نظر الغاليين، إذ كانت وفود من سكان البو هؤلاء يشاهدون فى متعة تقهقر أعلام الرومانيين أمام القرطاجيين.

وفى ذلك المساء فر من المعسكر الرومانى ألفان من المقاتلين الغاليين بعد أن قتلوا بعض ضباطهم وسرقوا جياداً نافعة، وعرضوا على هانيبال أن يخدموه بسيوفهم، فأعطى الفارين لحماً وخمراً مع هدايا من الفضة واقترح عليهم العودة إلى قراهم كى يبينوا للآخرين أنهم يستطيعون كسب الغنائم مع الشرف إذا رغبوا فى طرد الرومانيين من أراضيهم، وقد احتفظ إلى جانبه ببعض الأذكياء منهم للتسلل عائدين إلى رفقائهم الباقين فى خدمة النسور الرومانية، ويوقفونه هو - وهم - على كل ما يحدث، وبهذا تهيأ له إنشاء نواة للجاسوسية.

ولم تكد مسألة نهر تسينو تنقضى حتى أقبل متحدِّثون عن قبائل البوى للترحيب بهانيبال فى خُطب مُسْهبة ثم عرضوا عليه ثلاثة أسرى رومانيين من رتبة أمراء الألوية، فرد هانيبال تحيتهم بأحسن منها وطلب إليهم الاحتفاظ بالرهائن مقترحاً مبادلتها بغاليين من أسرى الرومان، أما الأسرى الذين وقعوا فى يد النوميديين فكانوا ممن اشتركوا فى مناوشة نهر تسينو من الشعوب المغلوبة على أمرها التى يحكمها الرومانيون، وقد أطلق هانيبال سراحهم دون مقابل كيما يعودوا إلى أوطانهم المختلفة ويرووا ما شاهدوه (فكانوا باكورة جمهور من الأسرى الذين شملتهم رحمة غير مرتقبة من القرطاجيين فأطلق سراحهم للقيام بالدعاية لدى عودتهم إلى إيطاليا).

وقد ناقش رؤساء عشائر الغاليين فيما بينهم هذه الطريقة غير المألوفة

فى شن الحروب وراحوا يتساءلون عما سيسفر عنها - إن أسفرت عن أى شىء - ضد فرق الرومانيين المنظمة المخيفة، وسرعان ما حملوا إلى هانيبال نبأ وصول الجيش الآخر من الجنوب فلم يبد القرطاجيون ما يدل على انزعاجهم، بل راحوا يطئون الحقول التى زرعها المستعمرون حديثاً بسنابك خيولهم ويستولون على مخازن الغلال الحربية - وفى بعض الأحيان كانوا يرشون حراس هذه المخازن كى يسلموا الحبوب بدلاً من الموت دفاعاً عنها.

وكانت الجماهير قد انتخبت طيباريوس سمبرونيوس لونجوس قنصلاً ثانياً وكان طموحاً، ولعله أحس ضآلة منزلته بالنسبة إلى ببليوس كرنيليوس منتخب النبلاء الذى كان سجل أسرته مزدحماً بضروب الفخار التليدة، منها نصر حربى واحد على الأقل، وكان سمبرونيوس قد سجل مواقف معينة نجح فيها عند استيلائه على جزيرة ملطا (ميليطا) وغارته على الساحل الإفريقى.

وقد أضفى عليه هذا النجاح ثقة بنفسه، فسار بقواته الكبيرة اقتساراً عبر طريق ريمينى، وهو يتلهف على الالتحام بجيش القرطاجيين الضارب بعيداً فى فيافى الأرض، فوجد القنصل زميله جريحاً وقد أوى إلى بلاسنتيا (بيا سنتزا) أقصى مراكز الحاميات الجديدة على نهر البو، وكانت مكاناً منيعاً بالرغم من أنها حينذاك كانت تناقض اسمها الذى كان يحمل معنى البهجة،" إذ كانت مكدسة باللاجئين وبفرق مكتئبة من الجيش الآخر، الذى عاد من معسكر تسينو،" وعلاوة على هذا فإن ببليوس كرنيليوس كان لا يزال جريحاً طريح الفراش غير راغب فى العودة إلى ساحة الوغى مرة أخرى.

والواقع أن ببليوس كان يبدو، وهو يحك رأسَه الصَّلْعاء، كرجل مريض راح يكرر القول بأن معظم المجندين لم يشتركوا فى المعمعة وأنهم يستطيعون الاحتفاظ بالمواقع الحصينة من بلاسنتيا إلى كريمونار سليمة خلال فصل الشتاء حتى تصل الإمدادات العسكرية مع المجندين فى فصل الربيع لعدم رضائه عن سلوك الغال.

ولم يوضح ببليوس ما كان يجثم على صدره من مخاوف لما فى هذا من مهانة، ففى اللحظة التى سبقت وقوعه من فوق صهوة جواده فى تسينو رأى الفرسان الغرباء من حوله وقد أطبقوا على جنوده أو كادوا، ولم يكن قد رأى فرساناً مثلهم من قبل.

وقد أثار جدال الرجل المريض حنق (سمبرونيوس) الشعبى فراح يندد بموقفه قائلاً: إن قنصلين للجمهورية الرومانية يجلسان وراء الأسوار ومعهما قوات من الجنود المدربين قدرها ١٤٠٠٠ ومن مجندى اللاتين المسلحين قدرها ٢٢٠٠٠ ومعها جميع حاميات الحدود، بينما تطأ فرسان الأفريقيين الحقول المحيطة بسنابك جيادها.. فى إيطاليا نفسها! واختتم سمبرونيوس محتجاً بأن مثل هذا السلوك كان يتعارض مع كل تقليد رومانى.

ولم يصرح بأن الانقلاب الشتوى كان قد حل (ديسمبر) وأن انتخاباً جديداً كان على الأبواب ومن شأنه أن يأتى بقنصلين آخرين بدلاً منهما اللهم إلا - وفق ما دار بخلد سمبرونيوس - إذا أحرز أحدهما فوزاً ساحقاً على الغازى البونى، وتحول الظن تدريجياً إلى اقتناع. وما دام القنصل الشريف ما زال ملازماً للفراش فسيقود سمبرونيوس الجيش بمفرده إلى النصر... آه لو تيسر له كسب المعمعة قبل أن يتماثل ببليوس للشفاء وقبل إجراء الانتخابات بروما!.. لقد راح يتخيل نفسه وقد وصل وحده إلى باب كولينا، للقيام بواجبه فى إجراء الانتخابات، ولكن بعد أن سبقه نبأ انتصاره على هانيبال القرطاجنى، وقد أجمعت المجالس الشعبية على المطالبة بإعادة انتخابه، ولا يمكن أن يحدث هذا لو أن سمبرونيوس قضى فصل الشتاء منزوياً وراء الأسوار والحصون.

وهكذا تهيأت الجيوش المجتمعة للقتال لدى خروجها من بلاسينيا المزدحمة بالقرب من نهر تريبيا، حيث قامت القوات بإنشاء معسكر فسيح مريح، وهناك راح سمبرونيوس، ولم يكن جندياً منحكاً، يرقب فرصة يمسك فيها زمام القيادة

بيده." بينما كان ببليوس، وهو جندى بفطرته، يغالب وهن جراحه.

وحلت ساعة العمل دون إبطاء، فإن قوة من طلائع فرسان الرومانيين أخطأت معرفة النوميديين الذين كانوا يجوسون خلال الحقول القريبة، فتبعهم الرومانيون إلى حيث خف لفيف من قوة فرسان القرطاجيين الثقيلة لحمايتهم، فقامت قوة من فرسان الرومانيين لإنقاذ طلائعها وخرج سمبرونيوس بفرقتين من باب المعسكر محاولاً الالتحام بالقرطاجيين ولكنهم مرقوا منهم إلى ما وراء تعرجات نهر تريبيا المترع بالماء، وحينئذٍ توقر فى ذهن سمبرونيوس أن البونيين المراوغين لن يصمدوا أمام فرقه وجنوده.

وحل الانقلاب الشتوى بمطره المنهمر، فامتلأت مسالك المعسكر بالأوحال، الأمر الذى أحنق سمبرونيوس على الطقس الذى بدا كأنه قد قضى على كل سانحة للنزال، ولذلك لشد ما ابتهج عندما أيقظه معاونوه فى الهزيع الأخير من الليل وهم يحملون إليه نبأ اقتحام النوميديين لأحد أبواب المعسكر، فاستيقظ فى الحال ولم يتريث حتى يستفسر عن علة ظهور الإفريقيين فى هذه الساعة بالذات، ولم يفكر فى تناول وجبة إفطار، ولكنه أصدر الأمر إلى جناح الفرسان بالركوب وملاحقة العدو، وإلى جميع الكتائب بالتأهب المسلح الكامل بمسالك المعسكر، بينما ذهب هو ليشرف بنفسه على رفع البيادق والأعلام.

أما خارج مركز قيادته فكانت تتلألأ حول المشاعل رقائق الجليد المتساقط وكان البرد قارساً.

وقد قال كتاب اللاتين فيما بعد عن هانيبال "لم يحس يوماً ما أنه قام بما يكفى لإعداد رجاله".

واتضح أخيراً أنه كان قد شرع فى الاستعداد لتلك الليلة الشتوية على نهر تريبيا قبيل إقدامه على ما صنع، إذ راح يسبر غور القصص التى رواها

له الجواسيس عن المعسكر الرومانى عبر النهر، ومن المحتمل أنه كان قد كون رأيه الخاص من قبل عن كفاية سمبرونيوس،" ولقد جاس أيضاً على صهوة جواده خلال السهل الذى غمره الفيضان من الجانب القرطاجى للنهر - هذا الجانب الذى لم يره سبمرونيوس قط - ثم ترجل ليعتلى سلسلة من التلال الصغيرة المعشوشبة الواقعة فى طرف قصى، وقد امتد على طول هذه التلال انخفاض معتدل العمق.

وعند خروجه للتفتيش ممتطياً صهوة جواده اصطحب معه ضابطاً صغير السن يدعى ماجو، وانحدر به إلى هذا الامتداد المنخفض ليريه إياه ثم طلب منه أن يتخير عشرة رجال، من وحدات مختلفة، يمكن الاعتماد عليهم مهما ساءت الأحوال، على أن يتخير كل واحد من هؤلاء العشرة رجال مائة يضارعونه، فيتولى ماجو قيادة هؤلاء الألف ذوى الحصافة والدهاء ويتخذ من هذا الشق المنخفض مركزاً لهذه القيادة. وقد وافق ماجو على أن هذا الشق الغائر يصلح مكاناً للاختفاء.

وكان هانيبال معتاداً على التفكه عند حلول المحن فقال لماجو وهو يداعبه: "نعم، هو ما تقول وذلك لسبب واحد فقط هو أن أحداً لن يبحث عنك هنا أو يهتم بأمرك"، وبعد ذلك راح يملى على الضابط الصغير المتحمس بعض التعليمات الواضحة الحاسمة.

وعلى امتداد نصف ميل من الشق الغائر إلى المعسكر القرطاجى أخذ السهل الموحل فى الارتفاع حتى مزلق قليل الانحدار من الأرض الصلدة، وهنا أشرف هانيبال على حفر خندق قليل الغور انتصب فوقه جرف متماسك من اللبن يخفيه عن جميع الأنظار، فقد كان هانيبال يسمع، منذ طفولته، والده هملكار وهو يردد القول فى إلحاح "دع الأرض تقاتل عنك"، وهذا ما كان يقوله أيضاً بيروس الأبيروسى أستاذ المناورات العسكرية فى عهده، وقد اصطنع هملكار من الجبل حصناً عند أريكس، أما هنا فلم يكن ثمت شىء

سوى سهل مشبع بالماء وتعاريج بشاطئ النهر مترعة بمياه الأمطار.

وفى آخر مساء ركز هانيبال اهتمامه فى التحدث إلى رؤساء قواته المختلفة الأجناس عما يجب عمله، فجلس بينهم وراح ينصت لآرائهم ويحبذ الوجيه من مقترحاتهم دون التفريط فيما استقر عليه رأيه الخاص.

وفى ذلك المساء بعد أن أخذ النوميديون الخمسمائة طريقهم إلى النهر والمعسكر الرومانى، وسار ماجو على رأس الألف مقاتل من النخبة المختارة صوب الشق الغائر، قال هانيبال لمساعديه: "ستكون المسالك إلى المدن اللاتينية مفتوحة بعد غد، فهل تظنون حقاً أنها تحوى الثروة التى تحكون عنها أم أن هذه مجرد ثرثرة مما يدور فى حوانيت الحلاقين تزجية للوقت؟".

فأجاب الرؤساء المتقدمون فى السن بأنها الحقيقة على حد ما يعلمون.

"إذن فأفيضوا بها إلى رجالكم".

لقد علموا أنها مهما كانت عقيدة هانيبال فهو يرغب فى أن يفكر الجنود العاملون فيما سيجنونه من ثمار المعركة التى سيخوضون غمارها.

وفى ذلك المساء وكان الطقس رديئاً جداً، استقر رأى ابن هملكار على أن يجر إلى القتال كتائب إله الحرب، تلك الكتائب النظامية التى كانت تتحرك كالآلهة صدوعاً بالأمر، بعد أن صنع كل ما فى وسعه حتى يجعل الأرض نفسها صعبة عسرة للجنود النظاميين مسهلة ميسرة لرجاله.

وقبل أن يسلح القرطاجيون أنفسهم بدفء النيران التى أشعلوها راحوا يدلكون أطرافهم بزيت من جرار كانوا يحتفظون بها للوقاية من البرد. وكان الظلام مخيماً عندما راحوا يلتهمون طعامهم فى نهم بقصاع من اللحم المسلوق وحساء الشعير، وقبيل الفجر خرج رماة النشاب إلى السهل.

أما الأيبيريون والليبيون من قوة المشاة الثقيلة فقد توجهوا إلى الخندق

المعد وهناك أسدلوا على أبدانهم معاطف من شعر الماعز للوقاية من البرد، أما الفيلة بمن فوق ظهورها المغطاة بالجلد من سائقيها ورماة الرماح القصيرة، فقد توزعت على الجانبين من قوة الفرسان الثقيلة، ولم تنزعج جياد القرطاجيين من هذه الحيوانات الضخمة لاعتيادها على رائحتها.

أما ما أعقب هذا فهو معروف باسم موقعة تريبيا ولكن لم يقرر مصير هذه الموقعة سوى الاستعدادات التى كانت قد اتُّخذت أو لم تتخذ فى كلا المعسكرين قبل فجر ذلك اليوم.

فالكتائب الرومانية التى تبعت فرسانها الذين خرجوا لمطاردة المغيرين من قبائل النوميدين المراوغين كان لا محيص لجنودها عن السير فى الظلام بضعة أميال، ولم يكن هؤلاء الجنود قد تناولوا أى طعام قبل خروجهم المتعجل من عنابر المعسكر الباردة، أو ارتدوا سوى ملابس الميدان الخفيفة، وقد راحوا يخوضون منحنيات النهر المترع، فى ماء كان يصل أحياناً إلى ارتفاع المرفقين.

فسرت القشعريرة من شدة البرد فى جسومهم عندما أوقفهم رؤساء المئات على الساحل الموحل لتنظيم الصفوف، وعندما واصلوا السير وراء الأعداء الذين تناوشوهم ثم تقهقروا، تعذر عليهم أن يستبينوا الاتجاه الصحيح فى الضوء الخافت تحت وابل من البرد ورقائق الجليد المتساقط، فراحوا يجرون أقدامهم جرّاً ميلا آخر، وأخيراً وجدوا مشاة الإفريقيين مترصدين لهم وقد حماهم جُرْفٌ مرتفعٌ من الأرض، ومن خلف هذا الجرف راحت الأحجار تمرق من مقاليع البليريين فى أزيز وصرير.

ومن المتعذر التكهن بما كانت ستؤديه الكتائب المتصدرة لو أنها تركت لشأنها، فقد ابتدأت هزيمتها من الأطراف حيث فرت بعض الجياد الرومانية مذعورة عند هجوم الفيلة فتشتت شمل الفرسان واخترقوا صفوف الكتائب على نفسها دون أن تكسر كما لو كانت قوساً قد أمسكت بطرفيه يدان

وعكستا تقوسه.

وقبيل الصباح بدأ الجوع يضاعف الإعياء الذى أصاب المبارزين بالسيوف وهم يجاهدون لتثبيت أقدامهم فى الأوحال، وعندما تعذر سماع صوت نفير القائد مردداً أوامره إلى الجنود، واجهت الكتائب أعداء من ثلاثة جوانب، ثم برز رجال ماجو الألف من مخبئهم ليقذفوا بأنفسهم على مؤخرتها.

وعندئذٍ راح رؤساء الكتائب والفصائل المتحيرون المنزعجون يصدرون أوامرهم إلى الجنود كيما ينتظموا فى صفوف وطوابير للإفلات من التطويق.

وقد وقفت جميع التقارير عند هذه النقطة فلم تفصح عن شىء، ويبدو أن عشرة آلاف رومانى استعادوا تشكيلاتهم النظامية، ولكن أكثر من نصف جيش سمبرونيوس القنصل ولوا الأدبار تحت الجليد المتساقط، أو أسروا أو قتلوا، وقد أعاد هانيبال من بين هؤلاء الأسرى جنود القبائل الحليفة إلى أوطانهم، أما جنود الفرق النظامية من المواطنين الرومانيين فقد احتفظ بهم حتى تدفع الفدية لفك إسارهم.

وقد أرسل سمبرونيوس بنفسه تقريراً مثيراً للشكوك إلى مجلس الشيوخ بالجنوب، مدوناً فيه باقتضاب أن جيشه قد التحم بالقرطاجيين ولكن رداءة الطقس قامت عقبة فى سبيل النصر، وأن الناجين من الهلاك غادروا نهر تربيا للاحتماء بحصون بلاسنتيا التى لم تعد تعج بالسكان.

وفى يناير، وهو شهر الإله يانوس المقدس، الذى يُكَلِّل بدء العام الجديد، ركب طيباريوس سمبرونيوس متجهاً نحو الجنوب لأداء واجبه فى إجراء الانتخابات الجديدة، فلم يكرر الشعب انتخابه.

ومن سخرية الأقدار أن زميله ببليوس كرنيليوس أحرز الشرف الوحيد الذى أسفرت عنه موقعة تريبيا، وذلك بسبب النصيحة التى أسداها فى إلحاح وإلحاف ضد خوض هذه المعركة، وعلاوة على هذا فإن ببليوس قد

تخلف عن الحضور لعجزه عن الحركة فلم يشترك فى هذه الهزيمة المنكرة.

(وعندما برئ جرح ببليوس طلب التصريح له بتولى قيادة جيشه القديم فى أسبانيا، لا لرغبته فى أن يتحاشى لقاء ثالثاً مع القرطاجى المخبول - كما نعتوا هانيبال فيما بعد - فبيليوس الرجل العادى كان يساوره اقتناع صامت أن فتح أسبانيا هو الذى سيعمل على استقرار أمور الدولة الرومانية، وقد شايعه فى هذا زملاؤه أعضاء مجلس الشيوخ من عشيرة كرنيليوس محتجين بأنه من الحصافة وأصالة الرأى أن ينشدوا النصر فى أرض لا يستطيع هانيبال أن يكون حاضراً فيها).

وعندما حل العام الجديد خَيَّم على روما إحساس بالتشاؤم، فقد قرر العرافون - الذين سمعوا كافة التفاصيل عن تقهقر الجيش الذى راح ينشد السلامة فى ربوع بلاسنتيا - أن الطوالع قد كشفت عن سخط آبائهم الأولين، إذ ظهرت أشباح سفن تعبر السماء، وصدع البرق مَعْبد الرجاء، وسرت النار فى الرماح بمعبد مارس إله الحرب والفناء، وصبغت مياه "كيرى" الدماء، ولذلك فيلزم لتطهير المدينة سبك طلسم يزن خمسين رطلاً من الذهب الخالص للإله جوبيتر، وإقامة وليمة لتماثيل الآلهة الصغرى، وعندما تم تقديم هذه القرابين وإجراء طقوسها، توجه جميع المواطنين باهتمامهم نحو الشمال يستطلعون حقيقة هانيبال ويتبينون أى فعل سيأتيه.

قضى القرطاجيون شهرين من فصل الشتاء بعيداً عن العراء، وكانت هذه أول مرة يخرجون فيها عن مألوف عاداتهم فى زحفهم منذ شاهدوا جبال البرانس، وقد قسموا فيما بينهم ما غنموه بساحة القتال من سلاح وشعار ودثار، وقد قال مؤرخو اللاتين بعد ذلك بزمن طويل - ومن السهل أن يتعظ المرء بالأحداث الماضية فيبدو حكيما - "لم يحس هانيبال قط أنه قد أدى ما يكفى فى سبيل إعطاء رجاله عطايا واضحة الأهداف يقاتلون فى سبيلها".

وهذه عبارة واضحة الأهداف ذات مغزى فهى توحى بما هو أكثر من

التعهد بحسن الجزاء، وقد أحس الجيش فعلاً أنه قد تحرر، إذ كسب مزايا معينة، فالساقى الليبى الذى درج فى إفريقيا على كراهية سادته القرطاجيين حصل أخيراً على حقه فى الحياة كرجل حر غير ملزم بأن يحنى رأسه لدى وصول عربة المفتش القرطاجى.

وبالرغم من أن الليبى القاتم اللون لم ينقطع عن حمل الماء كما كان يفعل من قبل فقد داخله إحساس بأنه إنسان مختلف جديد، وكذلك الفارس الكلتيبيرى الذى كان يحن شوقاً لرؤية مسينامرة أخرى أصبح يملك أرضاً بإيطاليا - وإذا زهد فيها - تسلم ثمنها فضة خالصة، وبذلك امتلأ الكلتبيرى المعدم المهلهل الثياب شعوراً بأنه قد بات من ذوى الجاه كأحد كبار التجار، فلو أن عبارة "روح التعاطف الجماعى" كانت قد وضعت آنئذٍ لكان ذاك مجالها، ولقد وصفها اللاتينيون الأذكياء - فيما بعد - فقالوا عن هانيبال وجنوده: "كانوا جنوداً يثقون بقائدهم وكان قائدهم بدوره يعتمد عليهم".

ولم يطلب هانيبال منهم أمراً عسيراً عند الهجوم فى تربيا، فبعد أن يسر لهم كل ما هيأته الأرض من نفع طلب من المشاة فى بساطة إقامة حاجز أمام خط الكتائب الرومانية فى ساحة القتال، وكان سلاح فرسانه يكون ثلث جيشه بينما كان هذا السلاح بالجيش الرومانى لا يزيد على العشر فقط، وعند الالتحام وجهاً لوجه كان هؤلاء الفرسان الإفريقيون والأسبانيون يتفوقون فى فنون النزال على الفرسان الإيطاليين، فإذا ما خلا الميدان من هؤلاء تعذر على الفرق الرومانية الاحتفاظ بخطها الأمامى المعتاد ثم مقاتلة فرسان هانيبال المنقضة من الجانبين وصدها، وكان الأمر بسيطاً جليّاً كالمعادلة التى تنص على أن العدد واحد هو ثُلُثُ العدد ثلاثة.

بيد أن المعادلة لم تتحقق كما كان ينبغى، فقد كانت الكتائب ذات لباب صلد قوى، ولم يكن من السهل القضاء على رجالها، ولذلك قاتل السواد الأعظم منهم وشقوا لأنفسهم طريقاً للعودة إلى خنادقهم وهم يحملون

النسور، ولم يهاجم هانيبال هذه الخنادق إذ كان حصيفاً حذراً، وقد قال عنه المؤرخون بهذا الصدد: "لم يكن ليجازف بأية موقعة ما لم يستوثق من نفع حاسم يجنيه منها". وكان تحالف هانيبال المكين مع غال سيسالبين هو النفع الذى جناه من موقعة تريبيا.

ولقد وفدوا عليه من كل بقاع البر حتى مستنقعات فينيتى فى الشرق، فأقبل رؤساء عشائر الليغوريين الهمج من الشاطئ الغربى، وراح هانيبال يقيم المآدب لهم مراعياً بكل دقة تربيتهم وفق أقدارهم وسجلات بطولتهم، كما أبعد ذوى الخصومات منهم بعضهم عن بعض، أما هم فظلوا يقرظون انتصاراته فى خطب يلقونها معظم الشهرين، وقد شاهدوا إحدى الصولجانات التقليدية - مجموعة من القضبان البرونزية يتوسطها فأس وهى ترمز لسلطان القنصل - التى سقطت من حامليها بحاشية سمبرونيوس فى أثناء فراره، وكان لابد أن يراها رؤساء العشائر وهم فى زيناتهم الثقيلة من خالص الذهب، إذ كانت ملقى بها فوق جلد أسد تصادف وجوده تحت موطئ أقدام هانيبال فى حذائه الطويل الجلدى، وقد أدت قبائل انسوربس المتعالية ذات الخيلاء وأحلافها من قبائل البوى قسم الولاء من جديد للسيد هانيبال وأعادوا العهد بإرسال ثلة من أمهر لاعبى السيف عندهم ليكونوا فى معيته حيثما توجه.

وراح هانيبال يبين لهم فى طول أناة أن تحالفهم لم يكن مع شخصه بالذات ولكن مع حكومة قرطاجة - بيد أنه ألزم نفسه بحماية أراضيهم - وأنه لا يطمع من جانبه ولا تطمح قرطاجة فى الاستيلاء على أية بقعة من الأرض يمتلكونها، ثم أطلعهم على لوح من الحجر قد سجل عليه بحروف لاتينية محفورة فى غير ميل، بطريقة تساعد بَعْدُ رؤساء العشائر على قراءتها، يتضمن قانوناً ينص على أن يتولى الرومانيون حكم الغاليين بنهر البو لا على أنهم حلفاء أنداد لهم بل رعايا إقليميون، وهذا يعنى أن تحالف

الغاليين لم يقم على أساس الدفاع الودى بل إنهم أصبحوا رعايا للرومانيين يرزحون تحت وطأة قانونهم الإقليمى، كما كان الحال آنئذٍ فى غربى صقلية أو فى سردينيا وكورسيكا، وكانت الجمهورية الرومانية تستحوذ بهذا النظام الإقليمى على الأرض وتخضع الأهلين للقوانين العسكرية.

وذكر لهم هانيبال أنهم يقاتلون ضد تدخل قبائل اللاتينيين بنهر التيبر، وإنهم يستطيعون إنهاء الغزو والتحلل من كافة قوانين التبعية بمساعدتهم له على تحطيم إمكانيات روما على شن الحرب، وحينئذٍ يتضاءل اسم روما ويتقلص حتى يعود إلى ما كان عليه منذ ثلاثة قرون عندما وفد شعب الغال إلى نهر البو.

وقد وافق رؤساء عشائر الغاليين فى تحمس، فهم حلفاؤه الذين أقسموا له على الولاء ولذلك أكدوا أنهم سوف يزحفون على روما كما سبق أن زحف سلفهم البطل برنياس أيام مجدهم التليد، ثم رفع باروس، وهو من عشائر البوى، عقيرته بنشيد "النصر للقوة" الغالى، والتف صغار الكهنة حول نيران المدافئ ثم راحوا ينفخون فى أبواقهم الطويلة ذات الرءوس البرونزية التى لها هيئة الخنازير البرية، وقد لاقى هانيبال عناءً كبيراً فى منعهم من حرق بعض الأسرى الرومانيين وهم أحياء كتقدمة للضحية قبل خروجهم للقتال.

فلقد طلب الغاليون إليه الزحف فوراً، إذ كان نفاد صبرهم قد ساقهم إلى أن ينشدوا نصراً على التيبر كما سبق أن شاهدوا القرطاجيين وهم يحققون مثل هذا النصر المنشود على نهر تريبيا، هذا علاوة على أن الجيش القرطاجى اللجب كان سيأتى على العلالة الباقية من المئونة بأهرائهم ومخازنهم فى نهاية فصل الشتاء، فالتمسوا من هانيبال أن يعيد جيشه إلى الحقول الرومانية ليعيش هناك.

وكان عدد الغاليين الذين انضموا إلى قوات هانيبال يصل فى مجموعه من ٩٠٠٠ إلى ١٤٠٠٠ رجل، ومن المحتمل أن هذا العدد كان يقل فعلاً عن

١٠٠٠٠، ولكن الأهم من هذا أنه قد أصبح لجيشه قاعدة جديدة بوادى نهر البو ومعها قوة احتياطية جديدة أيضاً من رجال مفرطين فى عدم تقيدهم بأى نظام، وقد قطعت هذه القاعدة الصلة بين بقية شبه الجزيرة الإيطالية وبين جبال الألب ومعها القارة التى خلفها، وقد تركت الحاميات فى بلاسنتيا وكريمونا تدبر شئون نفسها، بينما راح بعض فرسان النوميويين السريعى الحركة يراقبونها عن كثب.

وهناك أسباب تفسر عدم استطاعة هانيبال البقاء فى أراضى الغال السيساليين حيث كان من المحتمل أن يتوفر له الأمن والسلام، فالشتاء بالشمال كان شديد الوطأة على رجاله الذين اعتادوا على مناخ إفريقيا وأيبيريا المعتدل، علاوة على أن معظم الفيلة كانت قد لاقت حتفها من أثر البرد، وإنهم ليقصون أن واحداً منها، وقد أشرف على التلف التقط بخرطومه غصناً أخضر وراح يلوح به للقرطاجيين فى أثناء مرورهم به - كما شاهد بنى البشر يفعلون عندما يلتمسون الرحمة بهم والعطف عليهم.

وهناك أيضاً نادرة غريبة يتناقلونها عن هانيبال فى ذلك العهد - وهى أنه كان يحتفظ بعدد من لباس الرأس المستعار ذى الشعر المختلف الألوان، مع أردية متباينة يأتلف كل منها مع لباس معين من الشعر المستعار، وبهذه جميعها كان يتنكر مخفياً سنه ومنظره كيما يتوجه حيثما شاء دون أن يعرفه أحد.

وكالمعتاد راح المؤرخون الرومانيون يعللون هذه الغرابة بأبعد الأمور عن التصديق بالنسبة إلى هانيبال الذى يلقى الرعب فى القلوب، إذ يقولون إنه كان يتنكر خشية الاغتيال، وهذا يحتمل الصدق، فقد سبق اغتيال هسدروبال الأكبر فى أسبانيا، ولكن الأرجح أن هانيبال كان يؤدى دوراً مزدوجاً، فقد كان يبرز إلى المجتمعات العامة فى اللباس اللائق به كقائد عام لقرطاجة، أما الجولات التى كان يقوم بها للاستطلاع فكان يؤثر فيها التنكر، ولم يدخر وسعاً فى دخول إيطاليا الرومانية ليرى بعينى رأسه ماذا يرتقبه هناك، الأمر

الذى لا يستطيع القيام به إذا راح يجوس خلال الإقليم كقائد يحيط به أركان حربه.

وعلى نهر البو جدت متاعب فى شهر مارس هذا، لم يستطع كارثالو ولا شبكته الجاسوسية القضاء على أسبابها، ولم تصل إليه سوى الإشاعات من قرطاجة والبحار الموصلة إليها، ولعله لم يحصل على أية معلومات من أسبانيا سوى أن جيشاً رومانياً لا تقتحمه العين قد حط رحله هناك، وكان فى حاجة إلى أن يستعيد اتصاله بكل من قرطاجة القديمة والجديدة،" فى أقرب وقت مستطاع، عندما تتهيأ البحار للملاحة وتتفتح مسالكها.

وكانت فى استطاعته أن يستوثق إلى جانب هذا من أن القواد الرومانيين، بعد هزيمتهم عند نهر تريبيا، سيعبئون مواردهم الضخمة لمقاومته، وكانت تُعبأ قوات أشد مراساً، فى كل شهر معتدل الطقس، على طول طرقات الجنوب المعبدة، ولعله فى ذلك الوقت قد أدلى هانيبال بتعليقه المرير عن شن الحرب بقوله: "إذا أحرزت نصراً انضم إليك الجميع حتى شَانِئُوك (مبغضوك)، أما إذا حاقت بك الهزيمة تخلى عنك محبوك أنفسهم". وهكذا راح هانيبال يضرب فى الأرض، ومعه الغاليون، يقصد جيوش روما المعبأة، وقد كلفه هذا الزحف المبكر قبل انصرام فصل الشتاء ثمناً باهظاً.

■ ■ ■

هانيبال والمهمة الصعبة عبور المستنقعات!!



10

تجري سلسلة جبال الأبيتاين منحدرة نحو شبه الجزيرة الإيطالية، فمن الساحل فوق جنوا تميل هذه السلسلة صَوْبَ الجنوب الشرقى حتى تلامس الساحل الآخر على بحر الإدرياتيك، وتهيئ الوديان الضيقة ممرات عبرها، ولكن سلسلة الجبال تجرى دون انقسام حتى طرف إيطاليا، وكان من المحتمل أن يسلك القرطاجيون الطريق الأطول والأسهل نحو روما بمتابعة سلسلة الجبال منحدرين إلى أسفل وعبورها عند مدينة روما، ولكنهم بدلاً من هذا راحوا يضربون فى القفار جنوباً دون انحراف مخترقين سلسلة الجبال.

وكان الطريق قريب الشبه بعبور الألب مرة ثانية، فقد ارتفع أول وَادٍ دخلوه إلى قمة وعندما عرقل البرد وسيل الأمطار طريقهم فعادوا أدراجهم إلى مكان آخر فنفذوا هذه المرة إلى المرتفعات الغربية ومنها انحدروا إلى الأراضى المنخفضة التى تحولت رواسب وطمياً بفعل مياه الفيضان، وخلف هذا امتدت مستنقعات كان الضباب يخيم عليها ويخفيها، حتى أصبح هذا الطريق المختصر وكأن دونه خرط القتاد.

ولم يتمهل هانيبال حتى يبحث عن طريق جاف، فزلقت دواب الحمل بالمستنقعات وسقطت تحت أثقالها، وكان لا محيص للقوم عن أن يجروا بأنفسهم عربات النقل أو يدفعوا بها إلى الأمام، وقد ظلوا أربع ليال وثلاثة أيام يبحثون عن موقع يعسكرون فيه ولكن دون جدوى، فكان كل جندى يتوسد حمله لينام عليه كلما توقفوا عن المسير.

وقد تقدمت الصفوف قدامى جنود جبال الألب بينما أخذ الغاليون مكانهم بين هؤلاء والنوميديون الذين لموا أشتات الشاردين والمرضى، ولما كان الغاليون هم أقوى جميع هؤلاء بدنا فقد تجنبوا مغبة الزحف فى الأوحال، ولابد أن الأسبانيين وإن لم يجأروا بالشكوى راحوا يتساءلون عن أمر المزارع والطرق المعبدة المرصوفة بالأحجار والمدن المرمرية البيضاء من أملاك روما التى

صورتها لهم الأساطير والأوهام، وقد أوهنت عظامهم نوبات حمى المستنقعات والحمى المتقطعة بعد أن هدهم البرد القارس وهم يعبرون قمة الأبينايين.

وللمرة الثانية لم تجد قطعان الخيل شيئاً ترعاه، وهلكت بقية الفيلة من زمهرير المياه، ما عدا واحداً من أضخمها - لعله الفيل الهندى الوحيد بالقطيع - هو الذى ظل محتفظاً بقوته.

ولم يستطع أطباء سنهالوس أن يصنعوا سوى القليل كى يقاوموا ويحصروا الإصابة بالحميات فى تلك الأراضى المليئة بالمستنقعات، فالملابس كانت دائماً مبتلة بسبب الضباب حتى لقد بدا كما لو أن الآلهة فى السماء قد أنزلت هذا الشر فى طريق الجيش، وقد أصيب هانيبال بالحمى المتقطعة ووقع فى قبضتها وعانى كثيراً من آلام الصداع، ولم يستطع الأطباء سوى أن يدثروه ويفرضوا عليه الركوب فوق ظهر الفيل الباقى على قيد الحياة.

وقد وقع هانو بن بوملكار على ماء يجرى صوب الأشجار التى إلى يساره حينما كان يتلمس مسلكاً يخرجه من الأرض التى غمرتها مياه الفيضان، وعندما عرج بفرسان البربر إلى هناك وجد عدداً من التلال تأخذ سمتها بين الضباب، فدارت الفرسان حولها ومن ثمت دخلت وادياً يصل إلى الجنوب، وهنا انقشعت الغيوم وسطعت الشمس فوق مراع خضراء تناثرت فيها منازل بيضاء، حتى لقد سماه القرطاجيون وادى النور، وهو فى الواقع وادى فيبسول (فوسيولى) الرائع.

وحينئذٍ عرف الجميع مقدار ما عاناه هانيبال من مرض الرأس فقد أصاب العطب أحد أعصاب البصر ومن ثم حل العمى بإحدى عينيه.

وفى الوادى ترجل عن الفيل ليمتطى صَهْوَةَ جواده ثانية، ثم تقدم فى طريق قذر فسيح، وعند الصخور الجيرية التى انتصبت على جانب الوادى ظهرت فتحات قاتمة تكتنفها مبان حجرية قديمة قد أصابها البلى، وقد ذكر

عبيد يحرثون الحقول بالثيران أن هذه الفتحات الصخرية كانت مقابر الأتروسكيين التى سطا عليها اللصوص ونهبوا ما فيها منذ زمن طويل.

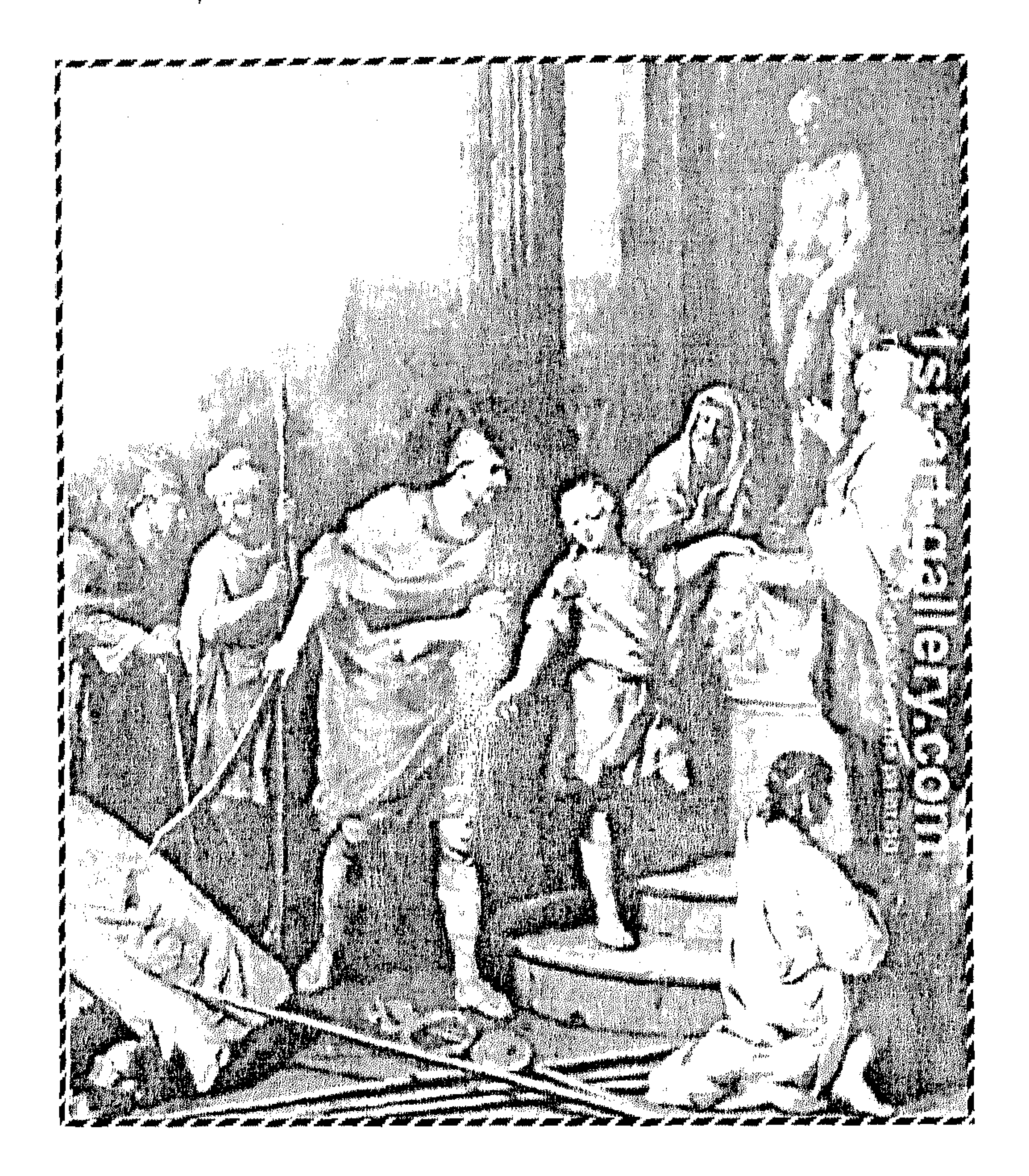
وقد وصلت الطريق بالقرطاجيين إلى نهر أرنو، وعند مخاضات هذا النهر كان ينتظر باعة متجولون غريبو الهيئة يحملون بخوراً ثميناً وعاجاً ضمن ما يحملون، وكان هؤلاء جواسيس من شبكة كارثالو جاءوا إلى هانيبال يبيعونه سلعهم النادرة علانية ويهمسون فى أذنه بالأنباء باللغة الفينيقية، فأخبروه أن الوديان التى أمامه خصبة المرعى قد توافرت فيها موادٌّ الغذاء وأن سكانها مسالمون، ولكن بالمرتفعات الشرقية بعد ستة مخافر على الحدود كان جيش رومانى قوى يرقب مجيئه.

وقد ساق هانيبال قواته للسير حثيثاً متجهاً صوب الجنوب ماراً بالرومانيين فى سلسلة التلال فى الطريق المؤدى إلى روما.

وقد انتهى هذا الطريق بالقرطاجيين إلى قلب أراضى الأتروسكيين القدامى، وللمرة الثانية، كما حدث عند نهر البو، لم يجدوا ما يرجون ويشتهون.

■ ■ ■

هانيبال.. ما جِئْتُ لأشُنَّ الحربَ عليكم!!



11

لا يموت شعبٌ فى لحظة واحدة كما يموت أى إنسان، فلهذا الشعب لغته وطريقته فى معالجة الأمور، والدين الذى يعتنقه، وفوق هذا كله يأتى هدف الشعب أو الرؤيا المعِّبرة عن آماله التى تدفعه حثيثاً إلى الأمام، وحتى لو قهر آخرون هذا الشعب فلن يهلك ما لم تفن هذه القوى الأصيلة المتأصلة.

وكان الشعب الأتروسكى القوى الممعن فى الخيال قد ختم وجوده قبل مجىء هانيبال بوقت غير طويل، فعمت اللغة اللاتينية الوديان التى يعمرها هذا الشعب، وتحولت مدنهم حتى فياى وتاركوينى المقدسة إلى بلديات تنظمها قوانين لاتيوم - السهل الفسيح - أما عبادة الشمس التى تبعت الأتروسكيين من شاطئ آسيا فى عصر مظلم فقد خضعت للإله "أبولو" فى إهابه البشرى الجميل.

ومن عجب أن الشعوب البربرية من عصبة الأمم اللاتينية قد اقتبست لنفسها كثيراً من ثقافة الأتروسكيين بعد أن طغت عليهم، وقد أنشأ المهندسون الرومانيون قناطر وكبارى من أحجار طافية وفق طريقة سكان الشمال، أما الجيش الذى ملأ صفوفه بدفعات - عن طريق الاقتراع - فقد قلت فى هذا الأتروسكيين الأوائل حتى فى تفاصيل العتاد مثل قمصان الزرد وواقيات السيقان والدروع المتينة، وكذلك فإن المصارعين الذين اشتركوا فى ألعاب الجنائز الأتروسكية شرعوا فى تمثيل مصارعات مقلدة فى الملاعب الرومانية للترفيه عن الجماهير.

ولكن النصيب الأكبر قد اقتُبِسَ من حضارة الشمال، فالفأس والقضبان التى ترمز إلى سلطة القنصل الرومانى وكهانة العرافين الذين كانوا يستطلعون الغيب بشعوذاتهم وصحائفهم السحرية، وأناشيد "فاتس" الطقسية وكلمات التأبين فى مآتم الذين انحدروا إلى ظلال الحياة فى "هاديز" هذه جميعها أخذها الرومانيون عن الأتروسكيين من سكان الشمال، ففى هذه الشئون غير

المحسوسة اعتمدت أقوام التيبر الشديدو المراس على حكمة رعاياهم الجدد، حتى لقد راضوا أنفسهم على الأخذ بالطقوس الأتروسكية ومزاولتها.

وكان الفن الأتروسكى آخر شىء يتقلص ويتلاشى، فحتى القرن الرابع كانت هناك أسوار مقابر رسمت عليها صور لراقصات ذات جمال أبهى من جمال البشر وقد رحن يرقصن فى دورات سريعة تخفى نصف ما يغطى جسومهن من ثياب، وكانت رقصتهن هذه لهيباً متوهجاً ينبعث من جمرات نار تتلظى، وقد أبدى المصورون الأتروسكيون براعة فائقة فى رسم صور مجسمة للنبيلات فى أكمل زينتهن وهن مسترخيات على وسائدهن البهيجة، كما راح صناع المعادن يشكلون من المعدن آلات جراحية دقيقة، ومواقد عملية لاستخدامها بالرغم مما عليها من آثار الخيال القديم البادى فى نقوشها من الأسود الأسطورية المجنحة أو الأربعة الجياد البيضاء التى كانت تجر عربات الحرب لملوك درسوا ودرست أيامهم.

وكان الأتروسكيون أنفسُهم قد انصرفوا عن كل تفكير فى المقاومة، وراحوا يتفننون فى صناعة النبيذ المفتخر للرومانيين الذين جاءوا معهم بالسلطة وصولجان الحكم، وصدوا قبائل الكلت الهمجية وحصروها فى أقصى الشمال.

ولابد أن هانيبال قد لاحظ عند دخوله مدينة رومانية أتروسكية فى الحمامات والمسارح معالم الحضارة التى نأت عنه وهفت إليها نفسه مذ غادر قصور أيبيريا، ولكنه لم يلاق أى استجابة من جانب الموظفين الرسميين القلائل الذين انتظروا مجيئه، فراح يقول لهم: "ما جئت لأشن الحرب عليكم بل على قوة روما وحدها وبذلك تتحررون من إسار هذه القوة وأغلالها، فأجابوه باللاتينية وهم يراوغونه ثم بعثوا إلى روما بتقرير عن ظهور جيش بينهم ليس إفريقى الأصل ولكنه منتزع من جميع أركان العالم، ولم تعترض هذه الأقوام سبيل هانيبال كما أنهم لم يعنوا بأمره أو يكترثوا له.

وحتى ذلك العهد، ما عدا عند اجتيازه لجبال الألب، كان القرطاجى قد كسب إلى صَفِّه، فى القليل، مقاطعات الشعوب التى كانت فى طريقه، فخلفه فى شهر يونية هذا قام الليغوريين بعمل أكثر من كمين للضباط الرومانيين داخل حدودهم وراحوا يرسلون رجالاً مسلحين إلى هانيبال، متوقعين تألب الحاميات الرومانية على نهر البو فى أقرب وقت بعد أن أصبحت فى عزلة تامة.

وأمامه رأساً كان فى الانتظار سكانٌ يبلغ عددُهم حوالى ستة ملايين يتكلمون الأمبرية والأتروسكية والإغريقية ولغات أخرى غير هذه، ومعهم الرجال الرسميون من اللاتين، وفى كشف المجندين البالغ عددهم ٧٧٠,٠٠٠ من مجموع السكان لم يكن بينهم سوى ٣٥٨,٠٠٠ من مواطنى الدولة الرومانية (وآنئذ كان قد قضى على شطر من هذا العدد الأخير) ولكن فى زجه بالجيش لمواجهة مثل هذه القوى مقامرة متهورة غير مأمونة الجانب.

وبالرغم من احتمال عدم معرفة هانيبال لهذه الأرقام بالضبط فقد فطن إلى العناصر التى تكونت منها مشكلته، فقد كان فى حاجة إلى أن يكسب تعضيد كثيرين من حلفاء روما حتى تتاح له فرصة للنجاح، بينما هو لم يتوصل إلا إلى ضمان حياد سكان أتروريا التى كان يجتازها على عجل، وكان يقود فرق جيشه الأشعث المعنى للاشتباك فى موقعة أخرى يكون من شأنها، بجانب الخسائر فى الأرواح أن تدمر كرامة روما وهيبتها بقدر الإمكان.

وعندما مر على مقربة من جيش عدوه المعسكر فوق المرتفعات - حيث لم يكن راغباً فى الاصطدام بالكتائب النظامية - أطلق فرسانه عبر الوادى ينهبون ويحرقون القرى، فوفر هذا له بعض مئونة الجنود وكان من المحتمل أن يستنفر قوات العدو فتهبط من مكمنها فى المرتفعات، وواضح أن القرطاجيين كانوا يزحفون نحو روما فلو أن سمبرونيوس كان هو القائد الأعلى بهذه المرتفعات لما تردد لحظة واحدة فى الهبوط بقواته لملاقاة القرطاجيين.

ولم تكن حالة هانيبال النفسية، وقد عميت إحدى عينيه، تمهد له

أسباب الصبر، ولذلك فعندما نقل إليه الجواسيس ما حصلوا عليه من معلومات عن القوات الرومانية المرابطة على كثب وعن القنصل الجديد جايوس فلامنيوس قاطعهم فى حدة قائلاً: "ما جدوى هذا الترديد الأجوف للأرقام؟ هيئوا لى نظرة واحدة أفحص بها عقل فلامنيوس".

وبناءً على هذا أعاد الجواسيس على مسامعه ما عرفوه عن طباع القنصل الجديد وأخلاقه.

وكان جايوس فلامنيوس، القنصل الذى انتخبه الشعب، رجلاً جليل الشأن فأثار حفيظة رؤساء الأسر الكبيرة وحقدها الذى لا يخبو أواره، وبالتالى حقد المؤرخين الذين وصفوه بعد موته فقال عنه أحدهم المسمى ليفى ما يلى: "كانت تعوزه الخبرة فى الأمور ولم تكن لديه أية كفاية حربية على الإطلاق، ولكن أكان محروماً من هذا حقّاً؟".

فقد سار فلامنيوس قدماً، كمندوب عن الشعب، محققاً قانوناً زراعياً ينبئ عن حصافة ونظر ثاقب ضد إرادة مجلس الشيوخ، وقد وفق فى إدارة شئون جزيرة صقلية، كنائب لقنصل روما، إلى حد استحق من أجله شكر الصقليين الرومانيين وثنائهم عليه، وقد قاد الجيش، كقنصل فى عام ٢٢٣، إلى ملحمة مع غال سيسالبين ضد أوامر مجلس الشيوخ، فأحرز النصر وأخضع قبائل أنسوربس حتى مجىء هانيبال.

وقد شرع، كرقيب عام لروما، فى إنشاء طريق فلامين العظيم نحو الشمال - الذى يمكن مشاهدة رصفه حتى الآن بجانب طريق السيارات الحديث - ولما أعاد الشعب اختياره قنصلاً لروما فى عام ٢١٧ ليخلف سمبرونيوس السيئ الطالع لم يتلكأ فى روما لإجراء الطقوس الدينية العقيمة. بل خف إلى الشمال - ضد إرادة مجلس الشيوخ - لينضم إلى قواته فى ساحة الوغى.

وكان فلامنيوس رجلاً صلب الرأى حديد العزم على كفاية لا يأتيها الشك قط، بالرغم من كراهية الأسر النبيلة له وبخاصة أسرة فقابيوس، ولم يكن له من سوأة سوى اعتداده بنفسه إلى حد السرف.

تأمل أعماله فى ساحة القتال، فلقد قرر مع زميله سرفيليوس أن يغادر إلى حين منطقة نهر البو وينتظر هانيبال عند مدخل الأراضى المحيطة بروما، وقد أثارت خطة انتظار العدو هذه سخط مجلس الشيوخ، وكان للرومانيين جيشان يزحفان، وقد توجه فلامنيوس فى دهاء إلى غرب الأبينايين عند مرتفعات أريتزو، أما سرفيليوس فقد مكث بالشرق فى ريمينى عند نهاية طريق فلامين.

فلما علم فلامنيوس أن القرطاجيين قد مروا به فى طريقهم إلى الوادى لم تخدعه حيلة هانيبال لاستدراجه إلى القتال بالسفح الفضاء، وبدلاً من هذا بعث إلى سرفيليوس ينصحه فى إلحاح كى يزحف على عجل صوب الجنوب.

وعندما اتصل به أنه فى الطريق فعلاً ومعه الجيش الشرقى تسلل فلامنيوس من المرتفعات مقتفياً أثر القرطاجيين وكان هذا الأثر بارزاً للعيان فى القرى المحترقة التى كان يخلفها هؤلاء القوم وراءهم أنَّى ساروا.

وانحرف الأثر شرقاً فحث فلامنيوس السير مع كتائبه، وكان الطريق يمر ببقعة كرتونا مؤدياً إلى بحيرة ترازيمين (تراسيمناس)، وفى مدى يومين أو ثلاثة من هذا السير الحثيث سيعبر هانيبال طريق فلامين حيث يكون سرفيليوس قد سبقه إليه، وحينئذٍ يصبح وقوعه بين القوتين الرومانيتين ضربة لازب، وسيكون هذا اللقاء فوق السفح الصخرى الأشعث فى صالح الرومانيين، ولهذا فقد تقدم فلامنيوس سراعاً داركاً، يبغى الاستيثاق والاطمئنان إلى أن المصيد الذى نصبه له قد أطبق فكاه عليه.

ولكن فلامنيوس لم يكن ليدرك شيئاً عن عقل هانيبال وطريقة تفكيره

بالرغم من أنه لم تكن تعوزه الكفاية العسكرية.

وقد بقيت فرسان النوميديين الخفاف فى مؤخرة القرطاجيين على كثب من عسس القوات الرومانية التى تطاردهم، وكانوا يعودون فى المساء يحملون الأنباء ويقومون على حراسة المعسكر، وكان هانيبال يركب بعد الظهيرة من كل يوم فى ثلة من جنوده لاستطلاع البقعة التى أمامه، ولما انحدر إلى وادى كورتونا الطويل لمح على امتداد البصر خطاً عميقاً ذا لون أزرق ضارب إلى الخضرة لإحدى البحيرات.

وكانت هذه البحيرة مترامية الأطراف (كانت تزيد فى مساحتها على ما عليه الآن) وعلى الجانب الشرقى، لِصْق القرطاجيين، كانت الأرض فى إطار نصف دائرى من المرتفعات المهشمة التى لا ترقى فى حجمها إلى حد التلال، وكان تباب هذه المرتفعات صخرياً تغطيه الحشائش وأشجار الزيتون، وكانت تبرز من الماء بين الحين والحين رءوس صخرية عالية.

وهنا دار الطريق ملتفاً حول البحيرة، كما هو الحال دائماً، عن أسهل سبيل، وكان هذا الطريق رقعة ضيقة من الشاطئ ممتدة بحذاء الماء، أما بقية الشاطئ فقد كونت مفازة التلال الأكبر حجماً التى خلفه.

وبعد أن شاهد هانيبال كل ما يريد الاطلاع عليه غادر شاطئ بحيرة ترازيمين ليعود إلى معسكر القرطاجيين، وقبل انصرام إحدى ليالى شهر يونية القصيرة خرج الجزء الأكبر من جيشه ودار إلى اليسار متوغلاً بين التلال أعلى البحيرة، وابتلعه ضباب الصباح الباكر.

وقد حرصت كتيبة من رماة النشاب الإفريقيين المجهدة على أن تظل قريبة من الطريق حول الماء، أما الفرسان النوميديون فكانوا يقومون على حراسة المؤخرة كالمعتاد، وكان هذا فى اليوم العشرين من شهر يونية.

وبزغ فجر الغد وشيكاً وحل اليوم الحادى والعشرون من شهر يونية، ولكن

قبل انبثاق الضوء كان جيش فلامنيوس الذى يربو فى عدده على ٤٠,٠٠٠ من الجنود الأشداء قد خرج من معسكره بأقصى الوادى فى طريقه المرسوم، فرجال الكتائب والمجندون من حلفائهم كانوا يحملون عتادهم معلقاً إلى حرابهم وأحزمتهم، وقد روعى النظام فى كل شىء، وكالمعتاد سارت الكتيبة الأمامية قدماً مقتفية آثار الفرسان القرطاجيين على الطريق المحاذى للبحيرة.

وقد تبعت القوة الرئيسية بروح عالية، فالقنصل الذى يقودهم قد أحرز من قبل نصراً على غال السيسالبين الهمج الذين راحوا الآن يتقهقرون أمامهم، وفى مدى يوم ونصف يوم، على حد قول نوابهم، سيصلون إلى تقاطع طريق فلامين وهناك يلتقون بجيش القنصل الآخر.

وقد استحضر تجار الرقيق والباعة المتجولون الذين يتعقبون الجيش عربات نقل فارغة لحمل الأسلاب التى سيغنمها الجيش من القرطاجيين كما استحضروا السلاسل والأغلال لتصفيد الأسرى.

وقد استمر الظلام بعد موعد الشروق، إذ خيم ضباب مبكر ثقيل فوق البحيرة، ولذلك راحت الجنود تتحسس طريقها فى قتام داكن، وقد وقع بعض الارتباك فى الصفوف عندما أخذ الطريق يضيق فراح الفرسان فى الجناحين يضغطان على المشاة الزاحفين، حتى لقد حدث شىء يشبه التناجز بالمناكب للالتفاف حول أول نقطة صخرية مرتفعة، وبالرغم من هذا التزاحم فقد قومت الفصائل عوجها ونظمت صفوفها وأخذت سمتها فى نظام دقيق، وقد بدأ الضباب ينقشع من فوقهم ويخف قتامه ولكنه كان لا يزال يلف البحيرة عن يمينهم ويحجب معالمها.

وقد لاحظوا أولاً العجيج الذى عَلاَ فوق ضوضاء سير الجنود ووقع حوافر جياد فرسانهم، وبدا كما لو أن هذا العجيج كان صادراً فقط من الهواء فوق رءوسهم، وقد أدرك رجال تريارى المحنكون أن العدو يهاجمهم، ولكن المهاجمين ظلوا محجوبين عن الأبصار ولم يستطع هؤلاء المقاتلون المحنكون أن يتكهنوا

بالمكان الذى يصح أن يفاجئهم منه أى جيش آخر، إذ كان الضباب يخفى كل شىء أبعد من رمية حجر منهم، وراحت النبال وغيرها تئز فى الضباب مخترقة جسوم الجنود فى الصفوف المكدسة المتقاربة.

والنظام كالعروة الوثقى يربط الجنود المدربين ويلزمهم التحرك فى نطاق معين وإطاعة أى أمر يصدر إليهم، وقد حاولت الكتائب أن تحرص على تقدمها فى خطوات منظمة داخل الصفوف، بالرغم من عدم استطاعتها رؤية ما كان يحدث على كَثْبٍ منها، ولذلك عمدوا إلى التخلص من عتادهم وتثبيت الدروع بأذرعتهم.

"وكانت آذانهم ذات نفع كبير لهم فى مثل هذا الضباب أكثر من عيونهم، فسمعوا أنين الجرحى وصرخاتهم ووصلت إليهم نداءات متضاربة جعلتهم يلتفتون هنا وهناك".

ولم يستطع أحد رؤية أعلام الفرق وبيارقها، وكانت الخيل، وقد خلت من فرسانها، تمرق داخل الصفوف بدلاً من رؤساء الفصائل يصدرون الأوامر وهم على صهواتها، وراح رؤساء المئات ينادون مطالبين بتكوين جبهة إلى اليسار، وتدافعت الصفوف إلى هذا الطريق لتحتل أماكنها المعتادة.

ولم يكن هناك مجال للالتفاف المنظم، وعندما أخذ رجال الصفوف الأمامية يرتقون المرتفعات وهم يتعثرون بين الحشائش والأحجار الكبيرة المتناثرة وجدوا التل يعج برجال راحوا ينقضون عليهم من كل جانب، وقد أقسم كثير من رجال الكتائب فيما بعد أن زلزالاً قد هز شواطئ البحيرة آنئذ.

ولقد أربكت المفاجأة الصاعقة صفوف الرومانيين العاملة فاختل نظامها، وطُوقت الفصائل التى وصلت أعلى المنحدر، "وبينما هم يحاولون التفكير فيما ينبغى عليهم عمله قُتلوا دون أن يقفوا على وسيلة هلاكهم".

وقد بعث هانيبال بجميع فرقه فى وقت واحد، للاشتراك فى الهجوم

المفاجئ، من المرتفعات حيث كانوا على أهبة الاستعداد، وكان الضباب قد انقشع عنها بعد شروق الشمس وبذلك تيسر لفرق الإفريقيين والأيبيريين والكلتبريين والغال أن يرى بعضهم البعض، وكان هانيبال يلاحظ الجميع من مركزه فوق الطرف الأقصى من طريق البحيرة، وقد تقدم الغال، وخاصة قبائل أنسوربس، لمهاجمة فلامنيوس القائد الرومانى، فى غضبة رجال الشملا المضرية الملتاثة، إذ كان قد نهب أراضيهم وأرغمهم على الاستسلام وفق رواية شهود العيان.

ولم يفقد هجومهم حِدَّتَهُ قط لأنهم هبطوا مخترقين الصفوف الزاحفة التى لم تستطع تكوين جبهة تصمد ضدهم، وقد دار القتال سجالاً فوق أرض غير معبدة، محصورة بين المرتفعات والماء، ولكنها صالحة تماماً للأسبانيين السريعى الحركة والغاليين الذين ألفوا حياة الغابة.

وقد استعر القتال بهذه الرقعة المعينة من الشاطئ واستحر، ذلك لأن فصيلة الفرسان القرطاجيين الثقيلة الشديدة المراس انقضت على مؤخرة الصفوف الرومانية، إذ برز هؤلاء الفرسان من وادى خفى بين المرتفعات، وبالرغم من سوء حالة خيولهم فلم تكن هناك قوة نظامية تستطيع اعتراض طريقهم، وقد سدت قوة مهربال الأمامية من مشاة الإفريقيين مدخل الشاطئ الهلالى الشكل عند الطرف الذى به هانيبال (ويرجح جداً أن هذا الطريق الهلالى المذكور كان ممتداً بين مرتفع باسنيانو ومنحدرات جبل لاجو) وبذلك كان فلامنيوس هو الذى فتح المصيدة التى أطبقت عليه فكيها لا هانيبال.

وحتى عندما حاولت بعض فصائل الجيش الرومانى أن تساند بعضها البعض لتقف متراصة فى وجه العدو، دب الفزع داخل الصفوف المختلة وعمها المرج والفوضى، ولم يكن أمامهم ثمة سبيل للفرار فراحت جموع الآبقين تتخبط بعضها البعض واختلط الحابل بالنابل "وعندما وجد عدد

كبير منهم أنه ليس أمامهم طريق للفرار راحوا يخوضون البحيرة حتى لم يعد ظاهراً فوقه مائها سوى رءوسهم وأكتافهم، فتتبعتهم الفرسان على صهوات جيادهم داخل البحيرة وقضوا عليهم".

وما كادت تحل الساعة العاشرة صباحاً حتى كانت موقعة بحيرة ترازيمين قد انتهت، وبددت الشمس أستار الضباب، وكانت كتيبة الطليعة الرومانية قد أسرعت ووصلت فى الظلام إلى الأرض المرتفعة بالرف دون أن يصيبها أذى، فاستطاعت أن ترى شاطئ البحيرة من تحتها قد احتله القرطاجيون وأن بقية الجيش الرومانى قد استؤصلت عن آخرها.

وحاولت الفرقة التى بقيت على قيد الحياة الفرار ولكن فرسان القرطاجيين تحت قيادة مهربال لحقوا بهم وحاصروهم، وحينئذٍ وقع أمر لم يكن ليخطر على بال إذ استسلمت الفرقة وسلمت أعلامها، وبذلك أصبح ستة آلاف من الجنود الأشداء أسرى للقرطاجيين يأتمرون بأمرهم ولكن بشروط معينة.

والحقيقة أنه لم يكن لموقعة ترازيمين أية سابقة على الإطلاق، فقد أباد القرطاجيون المرضى ذوو الجياد الهزيلة جيشاً رومانيّاً أقوى من جيشهم أو كادوا، فلم يلتئم شمل الباقين منهم قط، إذ أسر القرطاجيون الخمسة عشر ألفاً الذين نجوا من جنودهم.

وعندما ركب هانيبال وراح يجوس خلال ساحة القتال فى مساء ذلك اليوم، شاهد آثار هزيمة الأعداء - النسور الفضية المقدسة فوق الثَّرى ومعها أعلام فرق المشاة الرومانية، وأكوام العتاد المستولى عليه بما فيه من أجزاء القناطر المتنقلة وقطعها المكدسة ومن عديد الآلات الكثيرة - وقد أمر بدفن قتلى القرطاجيين، وكان عدد الذين فقدهم ما بين قتلى وجرحى يبلغ ٢٥٠٠ - معظمهم من الغال - وقد بحث هانيبال باهتمام عن جثة فلامنيوس لدفنها لما يليق من توقير وتكريم ولكنه لم يعثر عليها.

وقد راح فرسان قبائل أنسوربس ينشدون فى نشوة النصر مفتخرين بأنهم قد قضوا على عدوهم القنصل، ولعلهم قد جردوا الجثة آنذاك من كل ما عليها لحمله على سبيل ذكرى النصر ثم ركلوا هذه الجثة جانباً.

ويلى هذا أهمية أن الكتائب المذعورة قد تشتت شملها إلى جنود آبقين يشقون طريقهم فى لأى ونَصَب بغيةَ الفرار، وقلما أصاب الخور هؤلاء الجنود ولكن إذا وقع لهم هذا استطاع العدو ذبحهم كالنعاج.

وكان هذا يقع عندما يختل نظام الصفوف، ففى ذلك العهد، عهد كتائب المشاة المسلحة الثقيلة - سواء أكانوا من مشاة الإغريق أم من جنود كتائب الرومانيين - كان القوم فى تشكيلاتهم النظامية يحمى بعضهم بعضاً، فكانت تتقدمهم جبهة من حاملى الخوذات والدروع وواقيات السيقان، وقد برزت أسلحتهم اليدوية، وكانت قذائف الرماة من نشاب وخلافه فى ذلك العهد، السابق لظهور الأسلحة النارية وأقواس القوى، لا تستطيع أن تصيب مثل هذا الخط الأمامى المدرع إلا بأقل أذى.

وقد قيل، ولعله القول الصحيح، إن قتلى مشاة الآثينيين فى يوم ماراثون لم يزد على مائة واثنين وتسعين جنديّاً، وكانوا يحتفظون بصفوفهم سليمة لا تمس فإذا أصيبت بثغرة مَّا وقعت خسائر جمة فى الأرواح والعتاد.

فقد كان اللائذون منهم بالفرار يسقطون فى العادة مع دروعهم على الأرض، وسرعان ما كانت تصرعهم المزاريق أو أحجار المقلاع أو الحراب الطويلة التى يطاردهم بها الفرسان، وفى أيدى القرطاجيين السريعى الحركة كانت مثل هذه الأسلحة قاتلة، فى حدها العطب والموت (فى ساحة القتال القادم بكاناى سيخر شطر كبير من مشاة الرومانيين عاجزين عن تحريك ركبهم بعد أن تقطعت، بطعنة من الخلف، الأوتار التى تربط عضلاتها) ولم يسبق قط للكتائب الرومانية أن فشلت فى تكوين جبهتها المقاتلة قبل موقعة ترازيمين.

وفى تلك الليلة قدمت كهنة القرطاجيين أمام التيرافيم القرابين وأراقت الخمر وفق الطقوس الدينية داخل خيمة معبدهم، وقد ثار نزاع حامى الوطيس بين مهربال الذى لا يعرف المداورة وهانيبال، فإن مهربال كان قد أعطى عهداً للكتيبة المأسورة بإطلاق سراح رجالها إذا استسلمت وسلمت سلاحها.

ولكن هانيبال رفض الموافقة على هذا التعهد، فلن يفك أسار المواطنين الرومانيين، الذين قد قُدِّر لهم أن يباعوا لتجار الرقيق الإغريقيين، وإلى أن يحل ذلك الوقت كانوا يعانون من قلة الزاد وسوء المعاملة.

أما الأسرى من الشعوب الحليفة التى كانت فى خدمة الرومانيين فقد عوملوا على النقيض من هذا إذ عنى بغذائهم ثم أطلق سراحهم ليعودوا إلى منازلهم، بعد أن أكد لهم هانيبال أنه لا يحمل أية ضغينة لهم، فخصمه الوحيد هو المدينة التى على التيبر وحدها.

ثم أضاف قائلاً: «ما جئت لأشن الحرب على الإيطاليين ولكن لأساعدهم ضد روما».

بعد ذلك عقد هانيبال، كعادته قبل الإقدام على شىء، مؤتمراً من رؤساء جيشه والمتحدثين عن الشعوب التى يتألف منها.

ولابد أن بعض الغاليين، وقد أسكرتهم صهباء الظفر، قد طلبوا إليه ملحين أن يعجل بالزحف جنوباً لحصار مدينة روما نفسها أو لتدميرها، وليس ثمة شك أن مهربال وقدامى جبابرة هملكار كانوا ينزعون إلى هذا.

وبعد أن سمع هانيبال ما يريدون قوله رفض الأخذ بنصيحتهم، واتفق فى الرأى مع صغار الضباط والأسبانيين الذين احتجوا بأن الجيش قد لزم السِّفار وجاب القِفَار حتى بلغ السَّيْلُ الزُّبَى، وآن أخيراً للمغنى أن يستريح، وقال هانيبال إن الجيش محتاج، علاوة على توفير الراحة له، إلى تمرسه ودعمه فى مجموعة متناسقة جديدة، وهذا العمل يقتضى من الزمن طوال

المدة الباقية من فصل الصيف تصرف فى مكان أمين.

وقد تساءل قدامى جنود قرطاجة، أنى يجدون مكاناً أميناً تحت الحكم الرومانى؟

فسار بهم هانيبال فى الطريق صوب الشرق، وقد أداروا ظهورهم لمدن الأتروسكيين الوسنانة، واستقبلوا بوجوههم بيروجيا الشامخة ووادى أسيسى الفسيح، وهكذا استأنفوا السير من جديد فى طريقهم لاجتياز خط دفاع الابينايين واحتلال الساحل الأقصى لبحر الإدرياتيك، وبذلك غادروا الأراضى المنخفضة المرطبة التى تستوطنها حمى الملاريا، مجتازين المراعى الخصيبة، ومعهم قافلة من الأسرى وقطار من الناقلات يحمل عتاد جيش رومانى.

وعند ابتداء مسيرهم إلى الشرق وصلوا إلى التقاطع مع طريق فلامين حيث التقوا بأربعة آلاف فارس رومانى وهم طلائع جيش القنصل الآخر سرفيليوس آتين من ريمينى، وفى دهشه لعلها تعدل دهشة الرومانيين لهذا اللقاء أحاط القرطاجيون بفرسان سرفيليوس وأسروا منهم الألفين الذين نجوا من القتل.

وفى نفس اليوم تقريباً تجمعت الجماهير بساحة الفورم بمدينة روما، إذ كانت أنباء الكوارث قد وصلت من المداخل الشمالية إلى منازل المواطنين، فوقفوا يرقبون سماع الحقيقة يعلنها لهم آباء مجلس الشيوخ، وكانت هذه الجماهير نفسها، قبل هذا بشهور قليلة، قد تليت عليها رسالة من سمبرونيوس القنصل بعد انسحابه من نهر تريبيا، وثبت أن ما حدث فعلاً كان أسوأ مما ذكره القنصل فى رسالته.

وقد ظلت أبواب مجلس الشيوخ مُوصَدَةً فى وجه الجماهير القلقة، وأخيراً خرج إليهم نائب القنصل بومبونيوس ماثو بمفرده واعتلى درج المجلس، وبعد أن انتظر حتى خيم الصَّمْت أدلى بهذه الاثنتى عشرةَ كلمة:

"لقد قهر العدو جيوش روما فى وقعة عظيمة مات فيها أحد القنصلين"

وقد أبدى بولبيوس هذه الملاحظة فيما بعد فقال: "إن أشد اللحظات التى يصبح فيها الرومانيون، زرافات أو فرادى، مبعثاً للفزع الشديد هى عندما يحيق بهم خطر حقيقى يخشونه ويحسبون حسابه".

وكانت هذه الشجاعة العتيدة، وفق ما أشار إليه المؤرخ اليونانى، من خصائص أفراد الرومانيين وجماعاتهم النظامية سواء بسواء، فلقد تمرسوا على صعاب الحياة وشظف العيش، وإن المدينة التى أقاموها، بعد عناء ونصب بين الهضاب السبع لم تتوافر فيها أية ميزات طبيعية بل أسفرت عن بعض مساوئ غير هينة، فلم يكن لها ميناء بحرية على خلاف مدن شرقى البحر الأبيض المتوسط، وكان يعوزها أية حصون طبيعية لحمايتها من جانب نهر التيبر الخفيض الملىء بالمستنقعات، وحتى الشرائط الصحية لم تتوافر فى هذا السهل حتى جفف المهندسون الرومانيون هذه المستنقعات كما فعل الأتروسكيون من قبلهم، وللدفاع عن هذا السهل كان السور الصرفى القديم قد بنى بين السبعة التلال.

وكانت روما فى ذلك العهد أصغر وأقل سحراً من سراقوسة ذات الجلال الملكى والإسكندرية المستتيرة بمكتبتها الذائعة الصيت، ومنارتها الأثرية - إحدى عجائب الدنيا - (أما قرطاجة فبالرغم من أنها كانت أصغر حجماً وأقل سكاناً فقد توافرت فيها مميزات المدينتين الشهيرتين معاً من مركز حربى ممتاز وحضارة مدعمة).

وكان كيان الرومانيين الاجتماعى مؤلَّفاً من الخمس والثلاثين قبيلة التى لم تكتمل حضارتها بعدُ، فالخطابة الرومانية، التى لم تكن بعد قد عرفت شيشيرون الخطيب الرومانى الأشهر وتأثرت به، قصرت نفسها على توجيه الناخبين وذكر مناقب الموتى. أما الموسيقى فقد اقتصرت على الحدو والهزج نقلوها عن الإغريق، وقد ظهر الأدب فقط فى القديم المدون وفى ترجمات

أشعار البطولة مثل الإلياذة من الأدب اليونانى القديم، والواقع أن قوم روميليوس، غير الواثقين من حقيقة أسلافهم، كان يسعدهم أن يتخيلوا أنهم قد انحدروا عن أهل ترواده القدماء الذين شادت بذكرهم الأساطير، ولكن الحقيقة هى أن جنسهم كان قد نزح من شواطئ نهر الدانيوب التى لا أمجاد لها، والتى كان يعوز سكانها، القاطنين فيها هب ريح الشمال، سعة الخيال بالرغم من خلدهم وصبرهم على المكاره.

وإن فلسفة الرومانيين فيما يتصل بالجَلَد والصبر على المكاره غير وثيقة الصلة بالرواق الإغريقى فقد كانت هذه الطباع تجرى فى دمائهم، وقد ظلوا شديدى التعلق بالخرافات والأوهام إلى أكبر حد.

وكان معبد فورتيونا، الذى وضع تصميمه مهندسو المعمار الإغريقيون، يتلقى القرابين من أُسر الشعب الرومانى الرقيقة الحال، وكذلك من الأسر الثرية التى يحتمل أنها كانت غير مقتنعة بأن قدراً علوياً غير طبيعى كان يشكل حياتهم.

وكان المواطن العادى لا يخطو خارج باب منزله فى الصباح دون الاستخارة واستطلاع الغيب فى الغربان التى تطير فوق رأسه أو نماذج أوراق الشجر التى تتناثر عند قدمه، حتى لقد أصبحت هذه الاستخارة واجباً رسمياً وقد كرس سرب من صغار الطيور المقدسة لتوجيه القناصل عند البت فى المهام العظيمة.

وقد نبتت عبادة آلهة الحرب عامة من خُرافة متأصلة دعَّمها الاعتقاد بأن هذه الآلهة قد اختصت جهود الرومانيين برعايتها، ومن المحتمل أن يانوس ذا الرأسين كان له سلطان على الآخرين، ولكن مارس كان الإله صاحب الولاية على ذرارى روميلوس، حتى إنه كان لشقيقته "بيلونا" معبد فخم يقوم على خدمته كهنة ونساء يقطعون أوصالهم ويريقون الدماء من أبدانهم فى رقصات دينية همجية.

وكانت الحياة العسكرية التى حمت المدينة آخذة فى بسط قوتها لتكوين الإمبراطورية الرومانية، وهى الملكية الجديدة التى اختص بها قوم مارس، ذلك لأن قدرة الرومانيين على التنظيم كانت قد ابتكرت نظام ضم الممتلكات وهو نظام لم يحاول الأخذ به أولئك الإغريقيون الذين لم يضارعوا الرومانيين في نزعتهم العملية.

فكان المستعمرون يحتلُّون المناطق التى فُتحت حديثاً بعد استئصال سكانها الأصليين منها وحملهم على تأدية خدمات نافعة داخل الحدود الرومانية، أما عن الرومانى العادى- الذى يحتفظ بمزرعة صغيرة وأسرة كبيرة - فكان يتطلع إلى الغزوة، التى يحرز فيها قومه نصراً مؤيداً، كمورد مستحب للمال والأسلاب التى تدعم عمله فى أرضه، ولم تكن طائفة التجار قد ظهرت بعد.

أما أُسَر النبلاء العريقة مثل الغابيين والكلوديين والسبيوبيين والأميليين، فقد أنشأت طبقة أشراف حربية قوية قد ألفت أخطار المعارك الحربية وخيراتها، وقد صرح أحدهم قائلاً فى جد صارم: "إننا نفقد فى عهد السلام ما نحرزه بالقتال والحرب".

وكانت الخدمة العسكرية، وفق تقاليدهم، ضرباً لازباً عليهم، كما كان الحال مع فلامنيوس، وكان الرومانيون يحرزون النصر ويحققون ما يبتغون بالدم المراق والعرق الصبيب ولكنهم كانوا يضنون بالدمع الهتون.

والنظام الرومانى، الذى لا مثيل له فى كفايته، قد نشأ فعلاً من مقدرتهم التقليدية على قهر أنفسهم، فقد كان رؤساء الأسر - الآباء - هم قضاتها الذين لا يحابون ولا يرحمون، ولم يمر وقت كبير منذ أن حكموا الأجانب كملوك، وكان المواطن الرومانى من الطبقة الراقية - طبقة الأشراف - يحظى بميزات أوفر مما يناله من هم أقل شأناً من المواطنين.

أما غير أولئك وهؤلاء من الغرباء فلم يعرفوا شيئاً قط عن هذه الميزات، ولهذا كان المواطن الشريف يلزم نفسه بمستوى أخلاقى صارم من شأنه أن يدفعه إلى الاستهانة بالحياة البشرية، وكان القواد العسكريون يعدمون أبناءهم لكسرهم النظام.

ولم يكن الدافع إلى هذه الصلابة الصارمة هو الكبرياء فحسْب ولكنها كانت فلسفة أخلاقية لا تبديل لها، كانت التأهب الرومانى العاجل إزاء الخطر، وإن أشد اللحظات التى يصبح فيها الرومانيون مبعثاً للفزع الشديد هى عندما يحيق بهم خطر حقيقى يخشونه ويحسبون حسابه.

وكانت كارثة ترازيمين "يوماً أسود" آخر من أيام الهزيمة، بالرغم من أنه كان أعظم من أى يوم آخر فى سجل الماضى من "أيام السخط"، ومن عجب أن نبأ فقد فرسان سرفيليوس بعد هذا بأيام قليلة قد أثار مزيداً من الفزع والفوضى، فقد بدا أن الأعصاب المتوترة قد انهارت عند الكارثة الصغرى، إذ راحت النساء يطفن الشوارع مولولات خاصة أولئك اللاتى كُنَّ قد حُرِمْن من الاشتراك فى الاجتماعات العامة، وقد طارت الإشاعات بالطرقات أن الأهْلِين سيجلون عن المدينة عند مجىء القرطاجيين.

وقد اتفقت المجالس الشعبية لأول مرة تمام الاتفاق مع القادة آباء مجلس الشيوخ المجندين، إذ أحس الجميع أن القناصل قد أساءوا تنفيذ الخطة الحربية، وأن هانيبال قد جعل من سمبرونيوس وفلامنيوس وسرفيليوس أضحوكةً للجميع إذ كشف عن مدى غبائهم.

ولذلك أصبح لزاماً فى حالة هذا الخطر المحدق بالمدينة تعيين حاكم مطلق يحسن الدفاع عنها، وبناءً على هذا" فعلوا ما لم يسبق لهم فعله حتى ذلك اليوم، فقد جاءوا بحاكم مطلق لزعامتهم عن طريق الانتخاب الشعبى".

وقد عينت الأحزاب المتحدة، وفقاً لهذا، الرجل المسن الذى كان قد حذر

مجلس الشيوخ فى الأيام الخوالى مصرحاً بأن شئون القتال فى ساحة الوغى شديدة الاختلاف عن الجدال الذى يدور بقاعة المجلس - فابيوس فيروكوسوس - "ذا الحلمات".

ويظهر أن كبير الفابيين هذا قد أُسندت إليه نعوتٌ للتفكُّه فى أدوار حياته المختلفة، فقد عرف بين أقرانه باسم "الحمل الصغير" عندما كان صبيّاً، لعيه وعكوفه على الدرس، وها هو ذا مقبل على أن ينعت "بالمعرقل" فيبوء بالكراهية ويحظى بالإعجاب، ثم يختتم بأن يذكر فى سجل المآثر اليونانية باسم ماكسيموس "العظيم" فقد كان لفابيوس السكيت طريقته الخاصة فى التفكير فى أية مشكلة قبل محاولة حلها، والتبرم بكل تدخل فى أثناء قيامه بهذا الحل، وقد وفق كقائد أن ينزع الليغوريين الهمج من بين أحضان الغال السيساليين، وكان متجلداً لا ينفد صبره، مبغضاً للجدل والملاحاة، صارم العزيمة إذا ما نوى، ذا خيلاء يخفيها فى حذر ويتكتمها.

وقد فرض عليه مجلس الشيوخ عند تعيينه أن يُدَعِّم أسوار المدينة ويدافع عن كباريها، ولكن فابيوس العجوز لم يصنعْ شيئاً من هذا، وبعد أن أمر العشر النواب بتفتيش كتب الكهانة وصحائف العرافة لاستكشاف العلة فى وقوع الكارثة أعلن أن الآلهة لم تقدم إليها الضحايا الكافية - وأنه فى سبيل تطهير المدينة، لا بد من تدشين معابد جديدة ومن تقديم ثلاثمائة ثور محرقات للإله جوبيتر.

وقد أفادت طقوس "إعلان التوبة هذه لتحويل أنظار العامة وبعث الأمل فى نفوسهم بأن الأمور قمينة بالتحسن إذا حظوا بعطف الآلهة، وقد قام فابيوس أيضاً بعرض رائع لسلطته الجديدة فظهر ممتطياً صهوة جواده تتقدمه بطانة من عشرين تابعاً - ضعف العدد الرسمى - يحملون شعار القنصلية الرومانية من حزم القضبان التى تتوسطها الفؤوس.

وقد طلب فابيوس الرقيق العبارة من المدينة أن تحشد جهودها الكاملة،

وتؤدى ضريبة جديدة، وتقبل على التعبئة العامة - وتقدم بمثل هذه الطلبات إلى الشعوب الحليفة، وعندما ركب إلى الشمال لتولى قيادة بقية قوات سرفيليوس، أمر القنصل، الذى بقى على قيد الحياة، أن يطرد تابعيه ويتجرد من عباءته الرسمية، ويتقدم إلى فابيوس على قدميه كأى مواطن عادى.

وعلاوة على هذا أمر فابيوس، الحاكم المطلق، بتنفيذ خطة حربية تقوم على إضرام الحرائق وتخريب الأراضى، فحيثما توجه القرطاجيون كانت تحرق المحصولات وتنقل الماشية والأهلون قبل وصولهم، وما كاد يصدر هذه الأوامر حتى ترامى إلى سمعه، لفرط دهشته، أن جيش هانيبال كان يحرق البقعة التى يمر بها.

وقد ظل القرطاجيون طوال العشرة الأيام التى قضوها فى عبور جبال أمبريل وهم يحرقون ويدمرون ويحملون الأسرى ويقتلون جميع الذُّكُور من سن التجنيد (لقد استخدم هانيبال الإرهاب لأول مرة فى هذا الإقليم الوثيق التحالف مع روما).

وقد شملت المدينةَ موجةٌ جديدةٌ من الرعب، ولكى يخفف فابيوس من حدتها خاطب الزعماء قائلاً: "لماذا يتلفظون اسم هانيبال فى فزع، إنه رجل واحد لا أكثر، بعيد كل البعد عن قرطاجة، ولم يتبق معه سوى ثلث الجيش الذى تبعه فى جبال الألب، ولا محيص له عن أن يحصل على طعامه يوماً بيوم، ولذلك فكل يوم يمر لابد أن يوهنه بينما نحن نزداد قوة".

وبالرغم من أن الوقائع التى ساقها فابيوس لم تكن كلها صحيحة - ولعله كان يعرف ذلك - ولكن استدلاله كان صحيحاً، فقد كان الزمن يخدم الرومانيين ولذلك عزم فابيوس أن يكسبه بأى ثمن.

وقد استغلقت تصرفات هانيبال على زعماء مجلس الشيوخ، فراحوا يتساءلون فى حيرة عن علة انصراف القرطاجى المنتصر عن روما إلى

الشاطئ الشرقى حيث الأرض مقفرة جدباء، تعوزها الموانى، وتقل فيها المدن، ولا يكاد سلطان الرومانيين يطول أهلها؟

لم يحاول فابيوس أن يجيب على هذه الأسئلة، ولكنه سار بقواته شرقاً ليعترض طريق هانيبال ويراقبه عن كثب، بعد أن ترك معظم ضباطه المحنكين على نهر التيبر لتدريب جيش قوى جديد.

وقضى القرطاجيون فصلَ الصيف من هذا العام بمرتفعات بحر الإدرياتيك للاستجمام، حيث كان الأهلون البيسنتيون لا يعرفون إلا القليل عن القتال الدائر فى الغرب، وقد رضوا، باستثناء ملاك الأراضى الرومانيين، بمجىء القرطاجيين كقضاء من قدر لا يُسْبَر غَوْرُه، وبعد أن سار القرطاجيون أكثر من ألف وثمانمائه ميل فى الخمسة عشر شهراً الأخيرة سرهم أن ينالوا قسطاً من الراحة فى معسكراتهم، وقد أشرف الأطباء على علاج ضحايا الحرب، وسرحت الخيول المريضة لترعى، كما عولجت من الحكة الجلدية التى أصابتها من الجوع بدلكها بخمر قوية.

وسرعان ما شرع هانيبال فى تجديد جيشه، فاستبدل ملابس جنوده المؤقتة بملابس الجنود الرومانية والزّرد وواقيات السيقان، وقد باع هانيبال معظم الأسلحة التى استولى عليها لتجار الإغريق، مستبقياً الدروع لتوزيعها على الغاليين الذين كانوا على علم تامٍّ باستخدام الأسلحة الرومانية وبخططهم الحربية، أما الأسبانيون فكانوا يؤثرون استعمال سيوفهم ذوات الحدين التى يصل طول الواحد منها على نحو قدمين، ويفضلونها على مِدَى اللاتين القصيرة الغليظة ذات الحد القوى القاطع.

وما كادوا يستعدون حتى قام هانيبال بتدريبهم على خطط جديدة كما سبق أن درب الكلتبريين غير المتحضرين فى السنين الماضية، ولقد تعلم كثيراً من خطط الرومانيين الحربية ولذلك لم يعد يقنع بالاعتماد على نصيحة ضباطه القدامى، فوزع على الفرسان دروعًا ثقيلة، وقسمهم إلى

وحدات خفيفة من خمسمائة جندى ومائه وخمسين جندياً، وقد كرس هانيبال نفسه للنوميديين غير النظاميين بنوع خاص، فولى عليهم مهربال اليقظ، ولعله أعفى مهربال من الإشراف على كتيبة مشاة الإفريقيين الثقيلة ذات الأهمية.

وقبل الانتهاء من التدريبات الجديدة تحرك هانيبال جنوبا حذاء الساحل على مراحل سهلة داخل أبيوليا، فتراءى جيش فابيوس قرب الأفق وهو يرقب القرطاجيين، وكان يحرص على ألا يبارح المرتفعات الصخرية حيث كان يعسكر كل مساء، وبالرغم من أن الرومانيين بكل هذه القوات الجديدة كُثْراً ما كانوا ينقضُّون على جنود هانيبال الباحثين عن علف الماشية والجياد ويطاردونهم فى عنف فقد تحاشوا الهبوط إلى الوديان المكشوفة، ولذلك لم يهيئوا كما أنهم لم يقبلوا الاشتباك فى ملحمة كبيرة.

وبعد أن راقبهم هانيبال بضعة أيام قال فجأة: "لقد كسبنا الحرب، فروح الرومانيين العسكرية قد تحطمت".

ولعله كان يرمى بهذا، كما يحدث كثيراً إلى تشجيع ضباطه، ولكن من المحتمل أيضا أن القرطاجى كان يعنى كل ما قاله فى هذه اللحظة، فقد كانت نهاية رغبته أن يحطم عزيمة الرومانيين ومقدرتهم على شن الحرب، وقد أحس تغييراً فى روح القيادة التى كانت تواجهه آنذاك.

وسار هانيبال جنوباً متغلغلاً فى السَّهْل الفسيح حول تقاطع الطرق عن لوسيريا (لوسيرا) فراحت فرسانه ترعى بالريف المنبسط وهى تبدو كما لو كانت قد نسيت العدو، وكان فابيوس يراقب سير الأمور من فوق مرتفع قصى، بينما أخذ القرطاجيون، فى أثناء تقدمهم، يخربون ضياع ملاك الأراضى الرومانيين دون أن يتعرضوا بأى أذى لقرى هذا الإقليم الفقيرة، ولكنهم كانوا يحصلون على بعض الإمدادات من الصيادين والرعاة الذين كانوا يعانون المسبغة، أما الرومانيون فراحوا يقتفون الأثر من فوق المرتفعات

حيث كانوا فى مأمن من الهجوم.

"لقد راح الفينيقى يَعّجم بخير عود خصمه بتخريب الحقول على مدى البصر، ثم بالمبادرة سريعاً إلى الانتقال لمكان آخر، حيث يتربص به فى منعطفات الطرق ويقف له بالمرصاد".

وكان فابيوس يتحاشى الوقوع فى أى كمين من هذا النوع باستطلاع الطريق أمامه، وكان عدد جنود الكتائب، التى تسير وراء صوب روما، يتضخم مع كل أسبوع، وبينما كان الطرفان يتفاديان تحركاتهما الحربية. عبر هانيبال نهراً صغيراً اسمه أوفيداس على كثب من قرية مشيدة بالأحجار يطلقون عليها اسم كناى، لرغبته فى التعرف إلى هذه البقعة من الريف، ولكنه أيضاً كان يقوم بمهمة لم يفطن إليها الرومانيون كما فاتهم تسجيلها.

وليس من اليسير إزاحة الستار عن الخفاء الذى اكتنف الخطة التى صممها القرطاجيون، فهانيبال لم يدون قط تعليقاته عليها ولذلك فلا محيص عن استخلاصها من الحوادث التى تلت.

فالأمر الأول الذى فعله أنه أعاد اتصال قواته ببحر الإدرياتيك وبقرطاجة خلال أواسط هذا الصيف، إذا تسللت مراكب صغيرة من إفريقيا إلى شاطئ بيسانتا الخالى من المرافئ مارة بالأساطيل الرومانية، ويبدو أن هانيبال قد باع أرى ترازيمين هنا لتجار الرقيق الآتين من الشرق، ولأول مرة ظهرت الموانى اليونانية أسرى من جنود الكتائب الرومانية، ولابد أن هذا قد أثار ضرباً من العجيج، وقد أرسل هانيبال فى أعقابهم مندوبين، عبر بحر الإدرياتيك، إلى فيليب ملك مقدونيا وحاكم شاطئ دلماسيا الذى قاوم حديثاً جيش الاحتلال الرومانى، يحملون دعوة قرطاجة إلى مقدونيا لضم قواتهما ضد روما.

والأمر الثانى أنه يبدو أن ماجو أصغر الإخوة من أسرة باركا قد انضم

إلى هانيبال على بحر الإدرياتيك، وقد استحضر معه الأنباء التى طال ترقبها فى لهفة من أسبانيا، أما عن الأخوين الآخرين ببليوس ونايوس سبيو الأصلع فقد نزلا هناك دون شك ولكن شمالى أبرو (حيث كان هانيبال قد توقع مجىء الرومانيين عند بدء الحرب) وحيث وقفت قبائل أسبانيا الشمالية المعادية ضد الغزاة وقاومتهم بالسلاح، وكان هسدروبال يطل عليهم من قرطاجة الجديدة، ويرقبهم فى راحة واطمئنان، ومع هذا راحت أساطيل الأعداء تدق الساحل الأسبانى وكذلك جزائر الصنوبر دقّاً.

وأهم الأمور جميعاً أن أسطولاً حربيّاً من سبعين سفينة قوية قد أبحر من قرطاجة، وقد عرج على أسبانيا حيث خلف لها بعض المدد، ثم أغار على ساحل إيطاليا الغربى ووصل إلى بيزا بعد أن، غادرها جيش هانيبال فى زحفة من المستنقعات إلى بحيرة ترازيمين، وردا على هذا بعث الرومانيون بأسطول قوى من مائه وعشرين سفينة مخمسة من قاعدته فى صقلية ـ تحت قيادة سرفيليوس المبعد- للإحداق بسردينيا وكورسيكا والبحث عن المغيرين القرطاجيين القادمين من إفريقيا.

وهكذا كانت الصورة الكبرى التى تكشفت غير مشجعة لهانيبال إذ قطع الشقيقان من أسرة سبيو، عند الأبرو، خط المواصلات الذى كان يرجو أن يظل مفتوحا إلى أسبانيا، وبالرغم من أنه نفسه كان لا يكاد آنذاك يبعد أربعمائة ميل عن قرطاجة وفق طيران الحمام- من المحتمل أن الحمام كان يحمل الرسائل بين هانيبال وقرطاجة- فقد سدت الأساطيل الرومانية هذا الطريق البحرى.

ولم تبرح هذه الصورة الكبرى عن البحر الأبيض المتوسط ذهن هانيبال قط، فسرعان ما عقد عليها أكبر آماله واسترعت أوفر اهتمامه، وهو لم يكن يجرى وراء سراب من الوهم بأن قرطاجة- المدينة الواحدة التى لا تملك أكثر من عشر قوات اللاتين- تستطيع أن تجارى روما أو تعدلها فى

مواردها، إذا ما عبئت بكاملها، ولكن من المستطاع تغيير التوازن ما دام البحر هو نقطة ارتكازه غير الثابتة، فلو تيسرت المحافظة على مناجم أسبانيا، وأضيفت إليها غابات كورسيكا، مع جنوب سردينيا وثروة صقلية المتعددة الألوان، فإن الجانب القرطاجى من التوازن قمين بأن يعلو وأن يهبط الجانب الرومانى تبعاً لذلك، ولهذا كان خروج الأسطول الحربى من قرطاجة فى غزواته القصيرة مخيباً للرجاء وقاتلا له فى وقت واحد.

ونحو ذلك الوقت أبحر عملاء سريون من قرطاجة إلى سراقوسة معقل صقلية، وإلى جانب هانيبال مد كارثالو شبكة الجاسوسية إلى داخل روما.

وقد سار هانيبال بجشيه غرباً، متجهاً صوب الحقول الخصيبة ومدن كمبانيا ذات الأسوار حيث قام ميناء نابولى غير الخامل بخدمة الساحل الآخر، وقد أخفق، بعمله هذا، فى استدراج فابيوس للاشتباك معه فى الحرب، بل لقد وقع، بدلا من هذا، فى مصيدة نصبها له فابيوس.

■ ■ ■

هانيبـــال..
وجَيْشٌ من الثِّيران!!



12

تكون إيطاليا الجنوبية تيها طبيعياً من الوديان الضيقة وفجوات الصخور المخادعة، التى تنساب بينها وتربطها ينابيع تجرى من الجبال ونادراً ما تنتهى بسهول من أى حجم، وتتحدر جبال الأبينايين إلى البحر فى سلاسل صخرية قليلة الارتفاع، بل إن الشواطئ المنخفضة الملاصقة للماء ما هى إلا بمثابة حواجز أسفل المرتفعات، وفى الحرب العالمية الأخيرة وجد الجيشان الخامس والثامن من القوات الأميريكية والبريطانية- مع كل المعونة التى هيأتها لهما وسائل النقل الجوية والبرية الحديثة- طريقهما مسدوداً قد اعترضت مياه الأنهار التى ملأت الفجوات، والقمم الصخرية فى المرتفعات، من شاطئ اليرنو حتى واجهة جبل كاسينو الصخرية.

وفى مثل هذه الظروف كان من السهل نسبياً على الجيش الرومانى أن يشق طريقه بين المرتفعات، ولكن الأمر كان يختلف تماماً مع القرطاجيين كى ينتقلوا إلى أية بقعة فى الوديان المنخفضة، وأكثر من هذا كانت المدن تحتل تلالا صغيرة فوق الأنهار المتفرعة كما أن هذه المدن كانت محاطة بأسوار من الحجر، وبجانب هذا أيضاً كان القرطاجيون يجتازون وسط ظلام من العمه اللغوى إذ كان الأهلون لا يفقهون شيئاً من اللغتين اللاتينية واليونانية.

وفى وقت مَّا من خريف ذلك العام طلب الضباط القرطاجيون من الأدلاء الوطنيين أن يرشدوهم إلى وادى كاسينوم (أسفل دير جبل كاسينو الحالى) فأساء الأدلاء فهم الاسم كما نطقه القرطاجيون وبناء على ذلك انتهوا بهم إلى مدينة تسمى كاسيلينوم وسط وديان صماء مغلقة، وعندما حاول القرطاجيون الخلاص من هذا التيه، توغلوا فى واد أخذ فى الضيق حتى انتهى إلى فجوة بين الصخور الوعرة، وهناك بينما راحت طلائع الجيش تستكشف الطريق أمامه.

وكان الرومانيون يلاحظون كل هذا من محطهم المرتفع، أما ضباطهم بقيادة منيوسياس نائب الحاكم المطلق، فكانت دماؤهم تفور حارة فى

عروقهم، لطول ما عانوه من كبت فابيوس لهم، فهو الذى ساقهم فى أثر القرطاجيين وهم يدمرون ويخربون كل ما يلاقونه، فيشاهدون الدمار ولا يحركون ساكناً.

ولم يخفف من غضبهم المتزايد مطالبة بنى جلدتهم بالتلال السبعة كى يوقفوا زحف جيش هذا العدو "المكون من ديدان الأرض، ذات القساوة النهمة غير البشرية، التى تعيش على لحوم ضحاياها" .

وكانت "أعمال البونيين الوحشية" كالعادة فى مثل هذا الحالات، أكثر وضوحاً فى شوارع روما منها فى تلال كمبانيا، بيد أن سخط الضباط كان كبيراً لإرغامهم على قهر روح الرومانيين القيمة ولهذا نعت فابيوس "بالمعرقل".

وبعد ظهر ذلك اليوم رأى فابيوس إمكان تنفيذ خطوات ترازيمين لاصطياد القرطاجيين وإيقاعهم فى كمين، فبعث بضباطه للتنفيذ فى حذر شديد، كما أرسل على عجل أجزاء من كتيبتين، حوالى أربعة آلاف رجل، إلى أقصى نهاية الدرب الضيق لحراسة منفذ الخروج بينما انحدرت قوة الجيش الرئيسية إلى مرتفع من الأرض طيب الموقع يشرف على مدخل هذا الدرب ويتحكم وفيه خدنقت، وما كادت الشمس تغرب حتى وقع القرطاجيون بين المطرقة والسندان داخل الدرب بهذا الوادى.

وقد وقف هانيبال من طلائع جيشه على أمور كثيرة، فالرومانيون منبثون فى جميع الأنحاء كما كان الحال يوم اللوبروجيين، مع فارق هو أن الرومانيين لا يبرحون مراكزهم فى أثناء الظلام ولا يدخلون فى تفاهم نافع من أجل السلام، فتأهب للقيام بعمل من شأنه أن يصرف العدو عن إساءة الظن فيه، وكان قد رأى نظيره يحدث فى جبال أسبانيا، فأمر سائقى قطعان المواشى أن يسوقوا عددا كبيرا من الثيران صوب رأس الوادى، وأن يثبتوا بقرونها حزما من الخشب أو فروع الصنوبر الجاف الصالح للاشتعال ويقفوا هناك فى الانتظار، بعد ذلك تناول الجيش طعامهم وصرح لهم بالنوم.

وحوالى منتصف الليل لحق هانيبال بسائقى الماشية ومعه قوة صغيرة من الكلتبريين المتمرسين على حياة الجبال، فساقوا أمامهم الثيران إلى الجانب الوعر المرتفع من الوادى وبعد ارتقائهم متغلغلين شرعوا فى إشعال الوقود المثبت بقرون الحيوانات وهم يدفعونها إلى الأمام ويطلقون صرخات وحشية مدوية.

وكلما اندلعت النيران وتأججت راحت الثيران تتواثب مقتحمة ما يصادفها من أعشاب وأشجار فشاهد الرومانيون من مراكزهم بالقمة النائية منظر مئات من مشاعل -هكذا كانت تبدو- وسمعوا جمهوراً يعدو منطلقا على كثب منهم، فخفوا نحوهم فى الظلام، وسرعان ما صك آذانهم خليط مزعج من خوار الحيوان وكل مقذع من لعنات الإنسان، فلما أشرفوا عليهم استقبلوهم بسيل من النبال والنشاب، ولكنهم لم يجدوا الجيش القرطاجى.

وكان ذلك الجيش يتقدم فى طريقه إلى حيث الأمان عبر الدرب الذى بالوادى، وعند شروق الشمس كانت مؤخرة الجيش القرطاجى تعبر القمة التى هجر الرومانيون مراكزهم بها.

وقد عنى هانيبال بأن يرسل فصائل قوية للبحث عن الجنود الإسبان الذين غرروا برجال الكتائب الرومانية واستدرجوهم إلى مطاردة فاشلة ممعنة فى السخرية والاستهزاء.

وقد شاهدت القوات الرومانية الرئيسية من المدخل السفلى منظر المشاعل تتحرك بين التلال، فسيطرت الحيرة على أذهانهم حتى وقفوا فاغرى الأفواه لا يتحركون، ولعل العلة فى هذا أن فابيوس رفض أن يصدر إليهم أمره لمواجهة فوضى المساء، ولكن عندما تكشفت الأمور وظهر خبيئوها، وجه الضباط إلى فابيوس اللوم على موقفه السلبى.

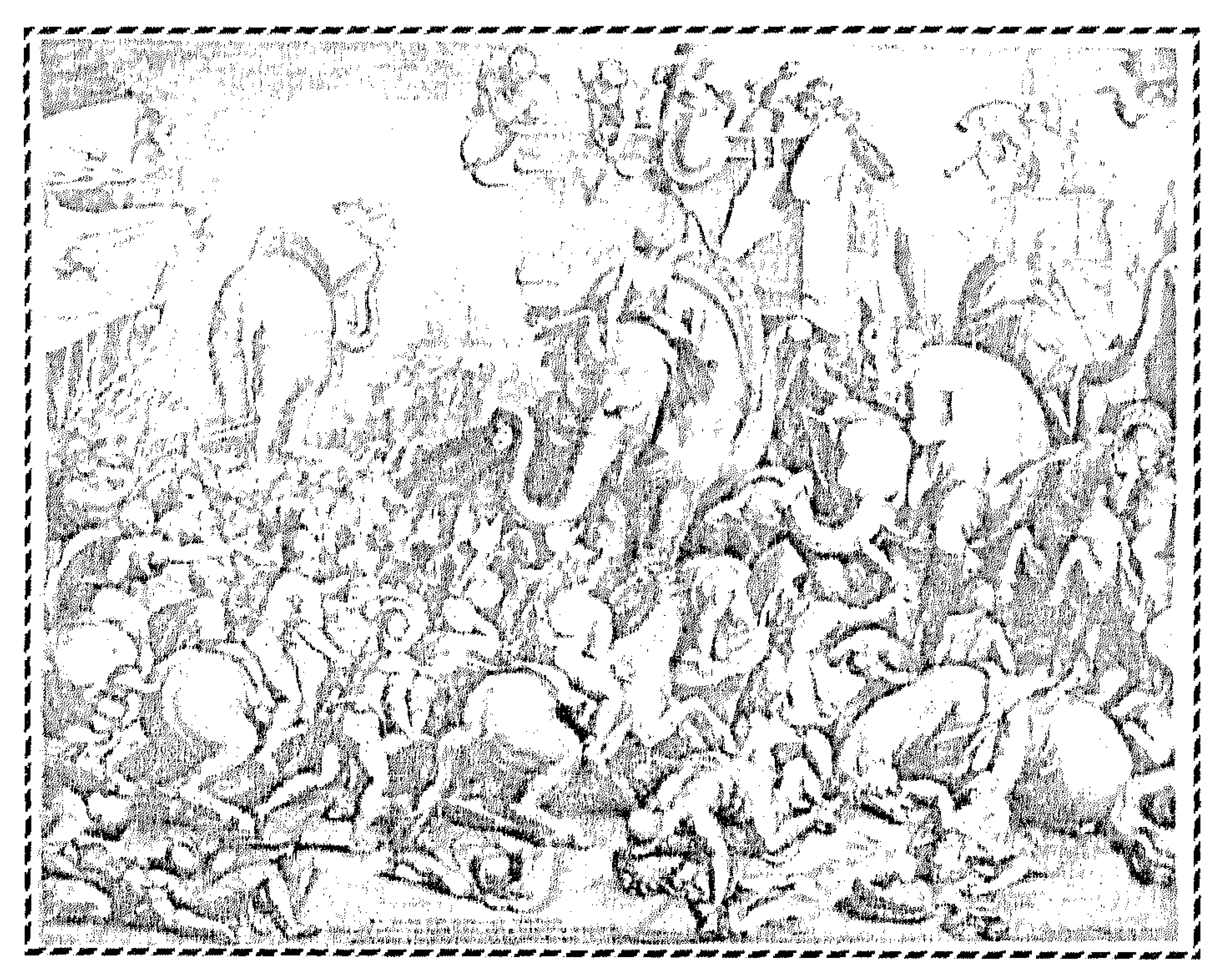
وقد أثارت قصة تسلل ونجاة هانيبال فى روما موجة من الاستهجان

ضد العجوز "المعرقل" ولكن فابيوس لم يعر أى اهتمام، ولكنه استدعى إلى روما قرب نهاية العام بحجة اشتراكه فى الطقوس الدينية، ولكن استدعاءه كان فى الواقع للإجابة على منتقديه داخل مجلس الشيوخ.

وعند ارتحال فابيوس نبه على نائبه منيوسياس ألا يدع هانيبال يستدرجه للقتال مهما كانت الظروف.

■ ■ ■

هانيبال الأُسطوريّ
و "معركة كناى" العُظمَى!!



13

لم تبدأ موقعة كناى العظمى فى ذلك الفجر الحاسم البتار من اليوم الثالث من شهر أغسطس عام ٢١٦، فقد كانت لها، قبل هذا بشهور، مقدمات فى ذهن هانيبال وفى أحداث بروما كان من شأنها أن تحركت قوات جبارة صوب كناى.

وكان منيوسياس روفوس صغير السن، من طبقة الفرسان الأشراف، وعضوا من عشيرة اميليو سبيو المعادية للفابيين الممعنين فى الصلف والكبرياء وقد شاركه الضباط مقته لخطط المستبد العجوز الحربية ذات الطابع المتلكئ الذى يتحاشى إراقة الدماء.

ولذلك فلا يثير العجب إطلاقاً قبول منيوسياس للفرصة التى أتاحها هانيبال فى الحال للقوات الرومانية القلقة!

فبينما كان فريق من فرسانهم يطارد الجنود البونيين فى بحثهم عن مؤنة للجيش وعلف للحيوان إذا به يلاقى الصف الأمامى من قوات القرطاجيين محتلا مركزا نائيا فوق مرتفع من الأرض، فالتحم الرومانيون بأعدائهم فى قتال عنيف.

وعندما خَفَّ مينوسياس لنجدة فرسانه ومعه قوات جديدة كان القرطاجيون قد طردوا من مراكزهم أو كادوا، وفى اليوم التالى وجد الرومانيون التل وقد خلا من حماته، فقد أخذ هانيبال فى التقهقر (كان هذا الاشتباك الخفيف شديد الشبه بالنجاح المبدئى الذى أحرزه سمبرونيوس فى موقعة تريبيا).

وطبيعى أن منيوسياس قد استعمل بعض عبارات متوهجة طنانة فى روايته لما حدث، وقد أثارت هذه العبارات عاصفة من الابتهاج فى شوارع روما حيث توالت على مسامع العامة حتى الآن أنباء الكوارث وقد أخذت رقابها برقاب بعض، وسرعان ما انتزع القوم الجنود بالهجوم فأحرزوا

النصر. وقد صرح فابيوس نفسه بأنه قد خشى مثل هذا النجاح أكثر من أية محنة من المحن.

وقد استدعى منيوسياس بدوره للتشاور، وعلى سبيل التكريم عينوه زميلا للحاكم المطلق، ولم تكن هناك سابقة فى التاريخ لقيام أكثر من حاكم مطلق كما هى عادته، لم يعترض، وقد اكتفى بسؤال منيوسياس عما إذا كان زميله الجديد يبغى أن يشترك معه فى قيادة موحدة للجيش، أو يؤثر أن يستقل بنصفه، وقد آثر منيوسياس العرض الثانى.

وعندما عاد كلاهما إلى ساحة القتال اقتفى جيشاهما التوأمان أثر هانيبال حتى ركن من سمنيوم، حيث أعاد منيوسياس الكرة بالهجوم، وقد استدرج للاشتباك فى موقعة عنيفة لم يخرجه منها سوى فابيوس بزحف مبتسر عبر نهر ما حتى وصل إلى ميدان القتال، وقد انسحب هانيبال مرة أخرى وراح يرقب الأحداث.

وعاد الحاكمان إلى معسكراتهما فوق المرتفعات مرة أخرى، وكان الوقت قد أزف لإنهاء سلطان الحاكم المطلق وفق قانون صلب لا يلين، إذ سيأتى الانتخاب السنوى، بدلا من ذلك، بقنصلين جديدين.

وثمة نادرة تروى عن هانيبال بأنه قال حينذاك: "وأخيراً تمخض هذا السحاب الذى بالأفق عن عاصفة، ولأن صح ذلك فيمكن تأويل هذه الملاحظة بطرق شتى".

والواقع أن أعماله آنذاك تمدنا بلغز محير، فهل كان يؤقلم نفسه فحسب وفق خطط فابيوس الحربية؟ هذا احتمال ضعيف جدا؛ أو هل تحقق له خلال هذا الشتاء الثانى أنه، كما سبق أن تكشف لبايروس من قبله، لا طاقة له قط على قهر عدوه واستنفاد موارده المتعددة؟ أو هل فكر فى عقد صلح ودى والعودة إلى أسبانيا (فى روما كان فابيوس يصرخ قائلاً: "أماله

فلن يكون هناك سلام فى إيطاليا").

وكان الأسطول الرومانى قد تأهب ببحر الإدرياتيك مدعما مركز روما فوق سطح الماء، وكذلك فشل هانيبال، باليابسة، فى إحراز أى نصر على أحد الأقوام المتحالفة مع روما، ومن المحتمل أن جيشه، البالغ عدده ٣٥ ألفا يوم ترازيمين، قد زاد عدده حتى بلغ ٤٠ ألف أو أكثر قليلا. أما الجيش المعبأ فى روما فكان عدده أوفر من هذا بكثير، وقد أصبح هذا الجيش هو الهدف الذى يرمى هانيبال إلى إصابته.

ومهما حدث فإن ابن هملكار قد احتفظ بقواته سليمة بينما واصل هو الزحف على مراحل متباعدة عبر بلدان أكثر حلفاء روما مودة لها، وكان يحصل على مئونته منهم، وبانتهاء فصل الشتاء ساقه هذا البحث عن المئونة إلى المراكز العسكرية الرومانية وما بها من أهراء تكدست بالحبوب، وقد حير موقفه السلبى الأعداء كما يحيرنا الآن، وقد طارت الإشاعات بأن هانيبال قد وضع خطة للعودة إلى غال السيسالبين الذين يغدقون عليه مودتهم.

وقد بدأت روما، إلى جانب هذا، تعانى نقصا فى المئونة، لما قام به القرطاجيون من حصاد بعض المحصولات بمناجلهم قبل الأوان، وقد أهدى هيرو الثانى عاهل سراقوسه المسن وأقوى الحلفاء إلى مجلس الشيوخ الرومانى هدية من القمح وتمثالا للنصر مصنوعا من الذهب الخالص يزن مائتين وعشرين رطلا.

وكانت عادة المجلس كرأس للإمبراطورية الرومانية أن يرفض مثل هذه الهدايا من الحلفاء الأصاغر لأمور تتعلق بهيبة البلاد وكرامتها، ولكن المجلس احتفظ فى هذه الحالة بالتمثال والحبوب معا، وكان العجز فى التموين قد أثار حفيظة المواطنين وهم الناخبون فى الوقت ذاته.

وقد انهالت الاحتجاجات الساخطة، فى نفس الوقت، من جانب

السمنيين المقلين فى الكلام بطبيعتهم، الذين عانوا الأمرين من نهب القرطاجيين لهم بينما ظلت روما نفسها وسهل لايتوم الفسيح بأكمله بعيدين عن كل أذى.

وقد لاحظ المندوبون السمنيون، وكانوا رجالا إيجابيين لا يسخون بالكلام، النشاط الصناعى العظيم حول فياسكرا، حيث كان المقاولون يصرفون ويكسبون ثروات فى إمداد الجيش العظيم الجديد بالذخائر، وحتى الأشراف كانوا يشتغلون كعملاء بحريين فيخترقون ساحة الفورم وخلفهم أسراب المتعاملين، ولم تزدحم المسارح وأماكن اللهو بالمشاهدين فى يوم ما كما حدث خلال هذا العهد الذى ساده الاستعداد الحربى.

وقد تجمهر الدهماء من الشعب الذين كانوا يعانون الفقر والجوع حول منابر الخطابة المقامة بالطرقات، حيث راحوا يطلبون معرفة السبب الذى جعل النبلاء وقد شرعوا فى الحرب إلى أن يرفضوا العمل على إنهائها مع هانيبال، ولعل ترنتيوس فارو، وهو رجل حديث لم يسبق معرفته، كان أكثر الخطباء السياسيين تأثيرا على النفوس.

ولم يكن فارو ذا كفاية معينة، ولكنه كان يبهج صدور الجماهير، وكانت له طريقة تميزه فى صياغة ما يقول : "يقول لنا الشيوخ الفابيون إنهم يحافظون على الجمهورية ويحرصون على سلامتها، ولكنهم بمحافظتهم علينا يصدوننا عن قهر هانيبال " .

ولم تكن هناك سوى خطوة واحدة بين اتهام الأشراف بإطالة أمد الحرب وبين القول بأن، جايوس نرنتيوس فارو، سينهيها فى أول فرصة، وخطوة واحدة أخرى بين هذا وبين الوعد بأنه لو تولى القيادة لسار قدما كى يحرز النصر ضد البونيين الممقوتين أول يوم يرى فيه طلائعهم.

وكان ذلك بالضبط ما أرادته المجالس الشعبية، فقد شغل فارو مركز

القنصل الذى يمثل الشعب، بعد أن اختصوه بأصواتهم فى انتخابات ذلك العام وبذلك حل مكان الحاكم المطلق.

وبجانب هذا فإن انتخاب قنصل عن الأشراف قد عطلته الخلافات التى نشبت بين عشيرة فابيوس بسياستها الحربية فى مطاولة العدو وإنهاكه، وعشيرة أميليوس سبيو بسياستها الخاصة بالتعبئة العامة لأجل الهجوم وإحراز النصر.

أما فارو - الذى تم انتخابه- فقد كان متحيزاً لفريق اميليوس أصحاب النفوذ فى صناعة تعبئة اللحوم التى كان أبوه من كبار المشتغلين بها.

ولقد حارب فابيوس خصومه السياسيين دون شفقة، ولكنه كان قد فقد كل تعضيد من الشعب، كما فقد بعض مريديه بمجلس الشيوخ عندما وصل تقرير بأن هانيبال، فى أثناء دوراته لحصاد المحصولات، لم يتعرض لإحدى ضياع فابيوس بأى أذى، بينما قد خرب كل ما حواليها.

حينئذ لم يجد فابيوس محيصا عن أن يحنى رأسه للعاصفة؛ وشغل مركز قنصل الأشراف الثانى اميليوس بولس، وهو رجل مسن ذو تاريخ مجيد ولكنه كان عزوفا عن المنصب، وبانتخابه أصبح لزاما عليه أن يعمل على إنهاء الحرب.

وكان اميليوس بولس واحدا من الخمسة مندوبين الذين واجهوا المجلس بقرطاجة، لإعلانه بأن روما ستشن الحرب، فكان إذن من اللائق أن يشرف هو على ختامها، وهناك قصة تروى عن فابيوس أنه حذر اميليوس قائلا: "ستجد فى ترنتيوس فارو عدوا أشد خطرا عليك من هانيبال".

والواقع أن شيئا شبيها بروح الحروب الصليبية قد اكتسح كل عناصر المجتمع الرومانى نحو كناى فى ذلك الصيف من عام ٢١٦، فاستقال أكثر من مائه عضو من مجلس الشيوخ الرومانى للانضمام إلى الكتائب العسكرية .

كما انضمت طبقة فرسان النبلاء بأكملها إلى صفوف كتيبة الخيالة المحاربة. أما الطبقات الدنيا فقد تطوعت على أمل سلب الغنائم ونهب كل ثمين بمعسكرات القرطاجيين وجمع محصول جديد من العبيد الأرقاء، وقد تضخمت صفوف الجيش الجديد حتى بلغ مجموع الجنود ٨٥ ألفا كان أكثر من نصف عددهم من المجندين حديثاً.

وقد وافق مستشارو مجلس الشيوخ الحربيون أنفسهم أخيرا على أن يقوم الجيش بالهجوم، ذاكرين أن الفرق الرومانية فى قتال تريبيا ظلت سليمة لم يصبها أذى، وفى يوم ترازيمين لم يتيسر لهذه الفرق أن تصطف استعدادا للالتحام.

أما الجيش الجديد الجرار المُكَوَّن من ثمانى فرق -أعظم قوة جمعتها روما فى وقت مَّا- ومعه الجنود الحليفة فمن العسير أن يخطئها النصر فى الطريقة الرومانية القديمة ومعها السيف والدرع، وقد يكلفها هذا أرواحا كثيرة دون شك ولكن هانيبال لا يستطيع أن يقدم مثل هذا القدر من الدم المراق.

وكان القادة الرومانيون قد وقفوا حينذاك على كل ما فى جعبة هانيبال من حيل، فلم تعد هناك ثمة حيلة بونية تستطيع أن تشتت ثمانى فرق حربية مصطفة فوق أرض ثابتة مكشوفة وفى وضح النهار.

ولم يكن هناك من هو أشد تحمسا لهذا الرأى من منيوسياس الذى كان سيتولى قيادة الجيش العليا، فهو الذى كان يتطلع إليه الجميع - آنذاك - على أنه أكثر القواد خبرة وحنكة لملاقاة هانيبال، وكان ببليوس كرنيليوس سبيو، الذى ساعد والده الجريح فى موقعة تريبيا، أحد صغار أدعياء الفن بالمجتمع الرومانى، وقد هجر مجالس الخمر والجدل السياسى لينضم إلى الجيش كمندوب عسكرى.

وثمة حادث تافه هو الذى دفع جيش المتطوعين للحاق بالقوات القديمة

فى ساحة القتال، فقد وصل نبأ من روما بأن هانيبال قد استولى على مستودع آخر لأهراء الحبوب، وكان فى هذه المرة بقرية كناى الحجرية نصف الخربة الواقعة بأقصى ساحل بحر الإدرياتيك، وهذا أمر قليل الشأن فى ذاته ولكن لم يعد مما يطيقه مجلس الشيوخ والمجالس الشعبية على السواء للسماح لهذا القرطاجى بأن يتصرف بإيطاليا وفق هواه لمدة أسبوع آخر. فأصدر مجلس الشيوخ أمره إلى كافة القوات بالزحف جماعات واحدة ضد هانيبال على أن يتولى القنصلان الجديدان قيادة هذه القوات .

وبعد رحيل الجيش الجديد كانت جميع التقارير الوافدة من الشرق تعرض دون إبطاء على مجلس الشيوخ ومنه تسلم للجماهير الواقفة فى الانتظار حول المنبر المقام بساحة الفورم.

وكانت التقارير الأولى تدعو إلى التفاؤل وتبشر بالخير، فقد هاجمت القوات الجديدة إحدى المعسكرات القرطاجية النائية حيث وقعت على غنائم ثمينة من الأوانى الفضية والمجوهرات مودعة بالخيام المهجورة كما لو كانت فى انتظار الأيدى الرومانية لأخذها، وكانت نيران الطهو بالمعسكر لا زالت متقدة، ولذلك فقد خرجت جنود الكتائب المتحمسة على طاعة ضباطها لمطاردة العدو البغيض.

وقد قام فرسان النوميديين، فى خفة الأشباح، بغارة صدتها القوات الرومانية بنجاح، وراحت كتائب القنصلين اميليوس وفارو تطارد المغيرين.

وقد اتحد الجيشان الرومانيان وراحا يقتفيان أثر هانيبال الذى هجر المعسكر الرئيسى عند مجيئهما وتقهقر عبر نهر اوفيدوس.

وهناك، فوق سهل " كناى " المكشوف، ضيق القنصلان عليه الخناق وكان ذلك فى اليوم الثالث من شهر أغسطس.

وقد رأى شاهد عيان هانيبال واقفا بجانب جواده المدلل ساعة شروق

الشمس، فوق تل صغير كان أعلى مكان بالسهل الجاف، وكانت الريح تهب من الغرب خلفه فتجلد عباءته ومعرفة جواده الطويلة، وكان الأهلون يسمونها ريح فولترنوس وهى ريح لافحة تسف الرمال كأنها الهبوبة (الريح تبذر الغبرة أو الغبار فى الجو) من قاع السعير.

وقد استطاع هانيبال أن يشرف ببصره من هذا الموقع على رقعة السهل الرمادى بأكملها، ولم يكن هذا يبعد عن مياه بحر الإدرياتيك الباردة أكثر من ثلاثة أميال، وبين هانيبال وبين الساحل كان طابور الكتائب الرومانية الطويل يتقدم فى بطء وراء حجاب من جنود طليعته.

وكان فى الواقع طابورا مكوناً من صفوف متراصَّة من المشاة النظاميين يسيرون فى تريث كى يحافظوا على أعلام الكتائب المختلفة مرفوعة فى أكمل نظام، وعندما اخترقت أشعة الشمس القتام وضحت أطراف الطابور وبعض الفرسان فى مواقفها هناك -وهو الوضع الذى لا محيص للجيش الرومانى عنه عندما ينوى الهجوم.

وقد أظهر بريق المعدن بالجانب الرومانى الأيمن أن كتيبة الخيالة الثقيلة كانت تحتل هذا الجناح، فالواقع أن هؤلاء الفرسان المدرعين كانوا يملأون كل البقعة بين آخر كتيبة والنهر المتفرع الذى عزم هانيبال أن ينقل معسكره الأخير عبره إلى سهل كناى، وكانت القرية الحجرية نفسها قائمة فوق مرتفع وعر بين نهاية الجيش القرطاجى والنهر، وقد انتصبت هناك خالية ولكنها كانت عقبة كأداء فى سبيل أى تقدم تلجأ إليه كتيبة الفرسان الرومانية الثقيلة.

وبعدما تبين لهانيبال الخيط الأبيض من الخيط الأسود بعث بكتيبته الخاصة وهى النخبة المختارة من الفرسان الأسبانيين والإفريقيين، إلى ذلك الجانب للسير إلى الأمام فى خطوات المشاة، تحت قيادة هانو بن بولمكار المفطور على القتال.

وقلما حول هانيبال بصره طويلا عن هؤلاء الفرسان الذين وقفوا يرقبون مع هانو تحت مرتفع كناى، ولم يبق معه فوق التل الصغير على كثب من كناى سوى عدد محدود من صغار الضباط، الذين راحوا جميعا يرقبون تقدم الكتائب الرومانية، التى كانت تحجبها عنهم أحياناً سحب الغبار، وهم لا يكادون يصدقون.

وقد هز رجل منهم، يدعى جسكو، رأسه قائلا: "مما يثير أبلغ الدهشة أن يرى المرء مثل هذا العدد من الرجال".

فالتفت هانيبال إلى جسكو وإلى الوجوه القلقة المتطلعة التى تحيط به ثم قال متعجبا: "سأفضى إليكم بما هو أشد غرابة من هذا ".

فتطلعوا إليه جميعا، فى ترقب، يبغون الوقوف على سبب ابتسامته فى مثل هذه اللحظة.

فقال هانيبال: "فى هذا العدد برمته ليس هناك رجل آخر يُدّعَى جسكو."

حينئذ ضحكوا جميعا وتضاحك جسكو كذلك، ذلك لأنهم، إلى حد ما، كانوا يعلمون أن جسكو لم يكن متوقد الذكاء، ولكنهم ضحكوا فى الأغلب مجاراة لهانيبال الذى بدا راغبا فى التفكه، فخفت حدة التوتر بينهم، وعندما أسرع العداءون ينقلون البريد أفضوا بالفكاهة - التى صارت نكتة - إلى حراس الخيل وسقاة الماء، "صحيح أن اللاتين يعدون أنفسهم بعشرات الألوف، ولكن ليس بينهم جسكو."

وبعدئذ غادر شاهد العيان نفسه المرتفع الذى ظل هانيبال يقوم بالمراقبة عنه، فى صبر بينما تقدم جيش العدو المنظم المسلح البالغ طوله ميل كامل، يشق طريقه بين عدد كبير من حاملى المقلاع ورماة الحراب والنشاب، وكانت المزاريق بالخط الأمامى ترسل بريقها كما لو كان آلاف الشظايا البللورية المتطايرة.

وراحت الأبواق النائية ترسل نداءاتها فى ريح مضادة، وحينئذ تعالى

الضجيج عندما هاجمت الكتائب الأمامية القرطاجيين الذين انتظروا مجيئهم فى صمت، وقد بدا كما لو كان جيش الرومان سيخترق حتما صفوف القرطاجيين الهزيلة، حيث واجه كل رجل واحد منها ثلاثة مهاجمين.

وعندما تلاقى الجيشان أصدر هانيبال أمراً، فألقى الخدم بمشاعل متوهجة فى حراق لجثث الموتى تملؤه الأعشاب والأخشاب الجافة، فحملت الرياح سحبا كثيفة من الدخان رآها هانو على بعد ميلين حيث كان فى الانتظار مع كتيبة الفرسان الثقيلة أسفل " كناى ".

وكانت هناك عوامل يتعذر رؤيتها، كامنة وراء هذه الصورة الكاملة لبدء نشوب المعركة، فالضباط الذين تولوا قيادة الجيش القرطاجى من أسبانيا منذ عامين لايزالون يشغلون مناصبهم، وكانوا ينفذون الأوامر التى تصدر إليهم من عقل واحد هو عقل هانيبال.

أما من الجانب الرومانى فكان القادة غرباء أحدهم عن الآخر، وقد تولى اميليوس، وهو ضابط محنك ولكنه مزعزع الرأى، قيادة جناح الفرسان الأيمن الثقيل، وتولى قنصلان سابقان، أحدهما سرفيليوس، قيادة فرق المشاة الجزارة بالوسط، أما فارو، وكان أقل الجميع خبرة، فقد تولى قيادة كتيبة فرسان الحلفاء الضعيفة بميسرة الجيش، ولم يكن هناك رجل بمفرده مسئول عن القيادة العامة لهذه الألوف من الجنود الزاحفين.

وسارع الجيش الرومانى المتصلب قُدُمًا نحو العدو، ذلك لأنه لم يكن قد درب على أية حركة عسكرية أخرى، فهو يستطيع الضرب بعنف ولكنه يعجز عن الإتيان بحركة عسكرية أخرى، وعندما تقدم حملة الأعلام تكدست الجنود إلى الوراء كى تفسح لها، وكان من العسير الرؤية إلى الأمام، إذ كان الغبار والريح يجلدان الوجوه.

وفى مواجهتهم لم يعد القرطاجيون ينتظرون فى تجمعات قومية كما كان

الحال فى الأعوام الخالية. فقد أعاد هانيبال تشكيل جيشه إلى جماعات قليلة نظامية تجيد الحركات العسكرية. أما النوميديون وقد ألقيت مقاليدهم إلى يد مهربال الحازمة فهم وحدهم الذين احتفظوا بعديدهم دون تقسيم.

وقد تألفت الخيالة الثقيلة من الأسبانيين والإفريقيين وبعض الغال المدرَّبين على الهجوم. وأصبحت هى قوة الجيش الضاربة.

أما قلب الجيش فقد كان أضعف جزء فيه. والمفروض هو العكس -كان مؤلفا من الغال الخفيفى السلاح والكلتبريين والليبيين- ولكن على جانبى هذا القلب الضعيف كانت هناك مربعات صلدة من مشاة الإفريقيين الثقيلة فى دروع رومانية متينة.

وكان كل مربع يشغل بروزاً بالسهل قليل الارتفاع. ولذلك ظل الإفريقيون، عند بدء الاشتباك، منعزلين بمنأى عن تصادم القوات.

ولم يصمد الأسبانيون والغاليون وسط الجيش القرطاجى فتقهقروا المرة تلو المرة أمام الكتائب القوية الوسطى بالجيش الرومانى.

وعندما تقهقروا خرج القرطاجيون المنافحون إلى بقعة من الأرض أكثر ارتفاعاً، ذلك لأن سهل كناى هنا يكون نصف وادى، وكان الغلاف الصلد الذى انسحب داخله القرطاجيون المتقهقرون يصنع زاوية حادة تقف عند طرفيها بثبات تام المربعات الإفريقية الثقيلة فى أقصى الجانبين.

ووجدت الكتائب الرومانية الوسطى المتدافعة وسط العثير المتطاير نفسها وقد اكتنفتها منحدرات آخذة فى الضيق حيث أخذ عدوهم المراوغ يدقهم دقّاً، فهم الآن يتدافعون داخل الزاوية الحادة ذات الجوانب الوعرة المنحدرة، وكلما تقدموا إلى الأمام ازدادوا تكدساً وضغطاً بعضهم على بعض.

ولم يكد يمضى وقت طويل حتى تعذر على هذه الكتائب ما عدا الصف الأمامى منها تحريك أسلحتهم واستخدامها. أما أولئك الذين كانوا فى المركز

الداخلى فلم يستطيعوا سوى الضغط على رفقائهم، ولم تتكامل ساعة ثانية حتى كانت جميع الكتائب قد ضمتها أطراف الزاوية الحادة، كما لو كان بابان عظيمان قد دارا على نفسيهما حتى دخلت هذه الكتائب ثم أطبقا عليها وقد راحت تحرس البابين قوة المشاة الثقيلة، فاستدارت كتائب الجناحين الرومانية لمهاجمة الإفريقيين فى ضراوة، وقد أظمأتهم الحرارة وأنهكتهم.

"كانوا يقاتلون فى ظروف مزدوجة السوء، فقد كانوا مَكَتَّفين محصورين، بينما كان أعداؤهم يحومون حولهم بكامل حريتهم، وكانوا منهوكى القوى يواجهون عدوّاً متجدد القوة شديد البأس".

وهكذا فى منتصف الصباح قاتل قلب الجيش فى سبيل الاستيلاء على مرتفعات الأرض التى حوله، دون اعتبار لما كان يحدث فى أى مكان آخر، فلم يكن هناك قائد يراقب الموقعة الدائرة ويشرف عليها ككل لا يتجزأ حتى يتلافى ما قد يحيق برجاله من أخطارها.

وفى أقصى يسار القرطاجيين راحت كتيبة خيالة هانو الثقيلة تتواثب إلى الأمام لدى مشاهدتها لإشارة الدخان المتعارف عليها، فانقضت كالصاعقة على فرسان الرومانيين فى ذلك الجانب، فهنا كانت الكتيبة التى يقودها اميليوس تتقدم إلى الأمام بين المشاة والنهر فى خطوات قصيرة، فلحق بهم العدو وقد عجزوا عن الكر والفر بجانب النهر، كما عجزوا عن صد جموع المقاتلين المتدفقة على جبهتهم الضعيفة.

وتحطمت مقاومة الفرسان الرومانيين أمام الهجوم القرطاجى، وقد اقتحم اميليوس أقرب كتيبة رومانية منه عند تقهقره مع نفر من رجاله فأمرهم أن يترجلوا ويندمجوا فى صفوف هذه الكتيبة، وهذا ما ضاعف الخلل وزاد الطِّين بلَّةً، إذ راحت الخيول وقد خلت من فرسانها تواثب مقتحمة صفوف المشاة، وقد سقط اميليوس نفسه جريحاً بحجر من مقلاع، ورفض أن يُحْمَل بعيدا عن ساحة الوغى، ولكنه لم يعشْ طويلاً بعد ذلك.

وكرت فرسان هانو مكتسحة ما أمامها كأنها موجة المد العاتية، فنكصت خيالة الرومانيين الثقيلة على أعقابها بعد هزيمتها، وواصلت النكوص حتى وصلت إلى حيث يتلاقى النهر بالبحر ويتدفق فيه ماؤه، وهناك تشتتت فلول جنود اميليوس وباتوا من الآبقين.

وقد نفذ هانو أول الأوامر التى يحملها، ثم أعاد جناحه من الفرسان إلى النظام من جديد كى ينفذ الأمر الثانى، وكان يتصل بعمل يكاد أن يكون خيالياً -هو أن يدور حتى يصل إلى الطرف الآخر وراء الكتائب الرومانية-.

وعلى هذا الجانب من الجيش، على كثب من مرقب هانيبال، راح النوميديون يشاغلون جناح الفرسان المتحالفة بطريقتهم المعتادة فى الكر والفر وهم يلقون مزاريق من حديد بكلتا اليدين، ويركضون خيلهم السريعة العدو بأرجلهم، وإلى جانب ذلك، فهناك آثار كارثالو هرجا بوحدة معينة من خمسمائة فارس توجهوا رأساً إلى قوات فارو كأنما يزمعون الفرار من فرقتهم والالتجاء إلى الرومانيين، وما كاد مدعو الفرار يتوغلون داخل صفوف فارو حتى استلوا أسلحة كانوا يخفونها بين طيات ثيابهم وشنوا هجوما قاصراً عليهم.

وبينما كان جناح فارو يقاتل أولئك الذين انطلت عليهم خدعتهم الحربية الماهرة راحت جنود هانو الأسبانيون الظافرون يدقون مؤخرة جناحه دقا، ولا بد أن المفاجأة قد أشاعت الخلل بين صفوفه كما حدث عندما أخذتهم الصيحة ساعة هجوم كتيبة فرسان القرطاجيين الثقيلة.

وقد حاولت الفرسان المتحالفة، عندما وقعت بين النوميديين فى حركة التفافهم وهجوم العدو الدائر خلفهم، الفكاك والانطلاق بأن يخرجوا إلى أرض مكشوفة عراء، فانساقت جموعهم بعيداً عن ساحة القتال، حتى استحال تقهقرهم إلى سباق للفرار، ففقد فارو كل نفوذ كان له على كتائبه، وأخيرا حمله نفر قليل ممن لازموه وفروا به من ساحة القتال.

"اصطحب القنصل الذى فر يوم كناى خمسين رجلا فقط، أما الجيش كله تقريباً فكان مع القنصل الآخر وهو يعالج سكرات الموت".

وعند الظهيرة لم يَبْقَ فارس رومانى واحد بين مرتفعات كناى ومرقاة هانيبال الصخرية، وهناك راحت كتائب الرومانيين تموج وتمور وقد تكدست حتى استحالت إلى كتلة هائلة مصمتة.

وللمرة الثالثة عادت كتيبة الفرسان القرطاجيين الثقيلة إلى ساحة القتال، عادت كالإعصار خلف الصفوف التى بالوسط واقتحمت الكتلة المتراصة من المترجلين. أما النوميديون فقد التف بهم مهربال كى يسد ثغرة الفرار إلى النهر.

وقد حوصرت جنود الكتائب الرومانية، التى كانت لا تزال تعد بعشرات الألوف، وتحطمت صفوفهم عندما ضيق عليهم الخناق فى البقعة المنخفضة من السهل، بين القرطاجيين فوق المرتفعات والفرسان فى انحدارهم من النهر إلى البحر، فقد كانت الأرض ضدهم. وسرعة الفرسان المرعبين ضدهم كذلك، ومن المحتمل أن الإعياء الذى حل بهم كان أكبر عدو لهم.

وتقلصت طوابير الجيش الجرار حتى اقتصرت على شراذم صغيرة تلوذ كل شرذمة منها بعلم كتيبتها، وقد راحت تقاتل فى بسالة ولكن دول أمل ما، وقبيل الغروب كان معظم الجنود قد سقطوا صرعى فوق أرض السهل الذى بدءوا فيه هجومهم، وقد ارتقى ألفان مرتفعات قرية كناى للاحتماء بخرابها، وهناك أحاطت بهم فرسان مهربال، فاستسلموا لها وسلموها أسلحتهم، وأصبح جميع الفارين حينذاك بمنأى عن النهر، يفتشون عن أمكنة يختفون فيها من قوات الفرسان المطاردة.

وركب هانيبال عند الغروب ثم راح يجوس خلال السهل، وكان ضباط قومه يلتفون حوله، ويقصون عليه فى نشوة بالغة أنباء الظفر الساحق الذى

كانت قرائنه واضحة لعينَىْ هانيبال، فقد تشتت جيش اميليوس وفارو الضخم الجرار إلى عصابات من فلول الآبقين، وقد بدا هذا الظفر لضباط هانيبال كما لو كان غراس خيال سائب يتعذر تصديقه.

وقد أمر هانيبال بالتفتيش عن جرحى القرطاجيين وحملهم إلى خيام الأطباء، وعندما اتصل به أن قنصلاً رومانيا قد خر صريعاً أمر بالبحث عن جثته ودفنها مع أسلحة صاحبها وأوسمته بما يليق به من توقير.

وقد طلب رجال هانيبال إليه أن يستريح، فقال لهم إن وجبة شهية -كل ما فى طاقة الطهاة تقديمه- يلزم أن تُعَدَّ وأن تُقَدَّمَ الخمر للجنود من جميع الرتب، حينئذ انبرى مهربال أحد جنود هلمكار المحنكين القدامى، الذى كان يمقت كل ما هو رومانى فقال فى ضراوة: "هانيبال.. فى خمسة أيام تستطيع أن تقصف وتولم بمدينة روما نفسها، وسيسبقك فرسانى إليها، فيعلم الرومانيون بحلولك بينهم قبل أن يدروا بخروجك إليهم".

فتطلع هانيبال إلى مساعده العجوز وقال: "هذا مما يسهل قوله ويبهج الصدر سماعه، ولكن إمعان التفكير فى الأمر وتقليبه على وجوهه يحتاج إلى وقت طويل".

فأجابه مهربال وهو ساخط: "هانيبال... لقد حَبَتْكَ الآلهة بنعم كثيرة، فأنت تعرف كيف تحرز النصر ولكنك لا تعرف كيف تستخدمه!".

فلم يحر هانيبال جوابا، ولكنه كرر أمره بإطعام الرجال. وعند انتهاء جولته التفتيشية عاد إلى مرتقاه الصخرى لينام بين القائمين على الحراسة.

■ ■ ■

هانيبال..
ما أروع الانتصار!!



14

استدرج هانيبال جميعَ القُوَى الرومانية العظيمة إلى مصيرها المحتوم، بخطوات لا يصدقها أحد من فرط دقتها وترابطها، فقد وضع لها منهاجا لاتباعه، ابتداء من مركز القرطاجيين النائى الذى وجد مهجورا من الجنود بما يوحى بفرارهم، إلى ما شاهدوه بعيونهم من فرار فرسان البرارى السريعى الحركة صوب المعسكر القرطاجى الذى نقله فى آخر لحظه إلى ساحة القتال التى اختارها بنفسه، بحيث كانت ريح السيروكو الموسمية المحملة بالأتربة تهب خلف القرطاجيين، بينما كان ساحل البحر خلف الأعداء، ومثار للسخرية -كما يبدو فيما بعد- أن قواته فى "كناى" كانت قائمة بين الرومانيين ومدينتهم، وكما كان الحال عند بحيرة "ترازيمين" إن خط دفاع مائى كان خلف العدو كذلك كان عند بحر الإدرياتيك وهو أشد اتساعا من البحيرة.

ولإصرار القادة الرومانيين على الاشتباك مع القرطاجيين فى القتال، اقتفوا أثر هانيبال دون حساب العواقب، رغبة منهم فى مقاتلة القرطاجيين بعد أن نشروا صفوف كتائبهم فى اليوم الأخير كما لو كان هانيبال هو الذى حرك صفوفهم وفق هواه، ويقال إن قنصلا معينا هو أميليوس لم يكن راغبا فى عبور نهر أوفيدوس إلى السهل المكشوف حيث يستطيع الفرسان القرطاجيون الكر والفر كما يشاءون، بيد أنه فعل هذا.

وبعد هذا بزمن طويل عندما أعيد تدوين ثبت التاريخ فى عهد الإمبراطورية الأولى؛ وجدوا كبش الفداء عن الكارثة فى شخص ترنتيوس فارو "زعيم الدهماء وابن القصاب"، وعلة هذا أن القنصلين كانا يتبادلان إصدار الأوامر، وكان لفارو السلطة العليا يوم الكارثة، فقد أصر على الاشتباك فى القتال ضاربا بإرادة اميليوس عرض الحائط؛ وهذه خرافة دون شك يعود الفضل فى بقائها حتى اليوم إلى سحر بيان ليفى.

ويبدو أن أحدا لم يسأل لم أطاعت ثمانى كتائب أوامر هذا الغر الأبله،

والواقع أن فارو كان يتمتع بقدر كاف من سلامة التفكير وحسن التقدير وقد وفق إلى حد كبير فى قيادته لكتيبة واحدة فى الأعوام التى تلت، فإن كان لابد من توجيه اللوم إلى الأفراد فلا محيص من توجيهه إلى القادة من عشيرة اميليوس: اميليوس بولس وسرفليوس ومنيوسياس، فلجميعهم خبرة سابقة بقيادة الجيوش، أما فارو فلم تتهيأ له هذه الخبرة، وعلى أية حال فقد مات الثلاثة الرجال فى كناى.

ومجمل القول أنهم وكذلك فارو قد صدر إليهم أمر مباشر من مجلس الشيوخ والشعب الرومانى فنفذوه -صدر هذا الأمر على بعد مائتى ميل- ولحوا أن يوقفوا نشاط هانيبال الإجرامى فى النهب والسلب، وأن يشتبكوا معه فى موقعة حاسمة، ولكن هذا كله ليس هو موقع النسيج الذى يصلح لأن يصنع منه التاريخ الرسمى الموشى فى عصر العظمة العسكرية، ولذلك فقد انضم فارو إلى زميله النائب الشعبى فلامنيوس ككبش للفداء عن الكارثة الرومانية.

أما كارثة كناى فكانت بعيدة الغور، إذ فيها هلك أكثر من خمسين ألف رومانى، وأُسر بساحة القتال حوالى ٣٠٠ من المشاة وكذلك ١,٥٠٠ من الفرسان وفقد ٢٩ من ٣٣ نائبا عسكريا، ومعهم ثمانون شيخاً ومعظم ذوى الرتب العالية، حتى إن طبقة الأشراف برمتها كادت أن تنعدم، (عندما اجتمع مجلس الشيوخ ثانية فى روما كان لابد من شغل ١٧٧ مركزاً خاليا بتعيينات عاجلة دون تمحيص).

وفى صباح اليوم التالى ظهرت فداحة الكارثة - "مذبحة اقشَعرَّ لدى مشاهدتها حتى الأعداء، فقد توسد الثرَى ألوف وربوات من الرومانيين، مختلطا الحابل بالنابل، وفق الصدفة المجردة التى جمعت بينهم، فهنا وهناك كان ينتصب جريح تقطر منه الدماء، وقد فاض الألم بجروحه فى زمهرير الفجر القارس.

وقد عثر على البعض منهم وهم لا يزالون أحياء، وقد قطعت أوتار سيقانهم من الخلف، أولئك كانوا يكشفون عن نحورهم ويلتمسون من غزاتهم استنزاف آخر قطره من دمائهم. أما خسارة القرطاجيين فكانت ٥,٧١٠ بين قتيل وجريح.

وقد وصلت الأنباء إلى روما أول ما وصلت فى ثنايا إشاعات فحسب، وكمألوف العادة فى مثل هذه الحالات حملها نظاره مدنيون أو رحالة جوابون، رأوا أو سمعوا من الأمور ما يفزع، ولم يكن بالمدينة سوى نفر قليل من رجال الحكم إذ أن معظمهم كانوا قد رحلوا مع الجيش، وقد ابتدأت الجموع تزدحم عند أبواب المدينة ومعابدها، وخرجت الزوجات القلقات من عزلتهن بمنازلهن وتجمهرن بالأزقة والطرقات.

وقد تولى فابيوس مقاليد الأمور فوراً، فعين شريفين للعمل نيابة عن لجنتى الشيوخ والقضاة اللتين لم يعد لهما وجود، ثم بعث برسله جنوبا وشرقا للاتصال بضباط الجيش والوقوف على ما فى بالإشاعات من صدق وتبليغه للشريفين، وقد عادت طلائع الرسل بأنباء يتعذر تصديقها: "لا يوجد هناك أى معسكر، ولم تعد هناك قيادة للجيش، بل لم يعد هناك جيش على الإطلاق".

ومن المحتمل أنه ما كان أحد سوى كوينتوس فابيوس مكسيموس يستطيع أن يسلم بالأمر الراهن فيما يتصل بالكارثة وأن يشرع فى علاجها فوراً، وكانت أول مهمة له أن يكبت الذعر المتزايد، وأن يسترد بعض النظام فى الداخل، فصدرت هذه الأوامر إلى حراس الطرقات: "أبعدوا السيدات المتزوجات عن الشوارع.. دعوهن يمكثن داخل منازلهن.. امنعوا الأسرات من العويل.. وقروا الهدوء بالمدينة.. أحضروا حامل الأنباء فوراً إلى الشريفين، وعلى كل مواطن أن يلزم بيته حتى تصل إليه المعلومات التى تهمه."

وكان لكل أسرة تقريباً بالجيش الذى هلك عضو منها أو قريب لها، فلم يسمح لأى شخص بمغادرة المدينة، ووقف الحراس على جميع أبوابها لمنع

فرار الأسر التى ركبها الذعر فناءت تحت كلكله.

وقد حجز فابيوس قوائم القتلى والجرحى التى كانت تصل إلى الشريفين، واستعاض عنها بقوائم جديدة مفتعلة تدعو إلى اطمئنان الأهْلِين داخل أسوار روما، وقد أثار للمرة الثانية شؤون ما فوق الطبيعة ليصرف أنظار العامة وتفكيرها عما حل بالبلاد، ولما كان عضواً بكلية العرافين، فقد تيسرت له الوسائل لأن يفعل هذا.

ومن ثم أعلن فى طول البلاد وعرضها أن بعض الكبائر التى حدثت فى الماضى قد استنزلت سخط الآلهة، وللعلم نذكر أن هذه الكبائر كانت تتعلق فقط بسلوك اثنتين من عذارى فستا (آلهة العفاف بالأساطير الرومانية القديمة وكانت النيران توقد فى معابدها ليلا ونهارا دون انقطاع) حارستان النار المقدسة اللتين اتهمتا بالتفريط فى عفافهما، ولما أن كانت إحداهن قد انتحرت والأخرى وئدت عند بوابة كولينا فلم يعد هناك ما يمكن عمله معهما، وراح فابيوس يستطلع كتب الكهانة والعرافة المواتية -صحائف القدر- مرة ثانية، ثم أعلن أن هذه الصحائف أفتت بضرورة تقديم ضحايا فوق العادة.

فعل كانت هذه الذبيحة الهمجية فى القديم رمزا لإبادة أعداء روما؟ لقد وفقت، على أية حال، فى تهدئة ثائرة العامة، وما كادت طقوس الفداء هذه يتم تنفيذها حتى استعديت فصائل الجنود من اوستيا عند مصب نهر التيبر للعودة، واشترى ثمانية آلاف من العبيد الأشداء لحمل السلاح، كما جند الصبيان من سن السابعة عشرة وأقل من هذا، فتجمعت وتكاملت أربعة كتائب، ونزعت الأسلحة من المنازل والمعابد لتسليح المجندين.

وعندئذ كانت ضحايا الحرب وقتلاها قد عرفت. فعم المدينة الحدادُ، حتى شقت النساء بأظافرهن إلى أبواب المعابد كى يمسحن درج المذبح بشعرهن المرسل، وحل الخوف لدى عامة الشعب محل الترقب الحائر، وكان فزعهم من رجل واحد هو هانيبال، أيان يلقى غبار السفر؟ وعلام سيصل

وجه الدمار فى المرة التالية؟ ولأول مرة راح الهمس ينتقل من بيت لبيت: هانيبال على الأبواب.. على أبواب روما.

لماذا لم يزحف الجيش القرطاجى على روما فى اليوم الذى أعقب انتصار " كناى " الساحق؟ لقد ناقش المحدثون من الدارسين هذه القضية التى أثارها ليفى فعرض صورة لمدينة يلفها القنوط من هول ما ترقبه من هجوم لم يقع لأن هانيبال لم ينتهز الفرصة السانحة لإحراز نصر نهائى مُوَطَّدٍ، وبذلك أنقذ فراره، كما يصوره ليفى، المدينة، لأنه فى تلك الأيام الحرجة من شهر أغسطس، كان الفينيقى جالسا فى كناى لا يبدى حراكا، بل يساوم فى تلكؤ عن فدية الأسرى وبقية أسلاب الحرب، دون أن تبدو فى تصرفاته، روح الغزاة الفاتحين أو فعل القواد الآمرين.

ولكن الفينيقى كان يدرك أفضل بكثير من المؤرخ ذلك المركز الذى كان سيواجهه فى المستقبل بكناى، فقد كانت فلول القوات المعادية لا زالت خارج روما، وحوالى ١٧,٠٠٠ ممن نجوا من الموقعة لجئوا إلى المعسكرات الرومانية المجاورة، وكانت الحاميات لا زالت مستولية على مدن ذات مواقع حربية حصينة والكتائب الرومانية مستولية على خط دفاع البو والقاعدة الحربية فى صقلية، بينما كان جيش سبيو يمرح مطمئنا فى أرجاء أسبانيا، أما الأساطيل حامية البحار فكانت تقوم بتدريب الجنود فوق ظهرها.

أما عن حصار روما فقد كان هانيبال يعوزه المهندسون المهرة وكذلك الآلات فى حين أن الرومانيين كانوا يملكون الاثنين. أما رجاله من الغال فما كانوا يجيدون شئون الحصار ولم يكن من المستطاع استخدام فرسانه الأشاوس الذائعى الصيت وراء الأسوار، وإذن فلا بد لحصار روما من سد مصب نهر التيبر بأسطول بحرى محاصر. ومعنى هذا أنه لزام على قوات قرطاجة أن تقوم بإجلاء سفن العدو عن الساحل.

وكانت خطة هانيبال الحربية حتى الآن أن يستدرج جيوش العدو إلى

ساحة القتال ضد جيوشه، ثم يزج بهم فى مراكز لا يحسم أمرها ويبت فى نتائجها سوى العقل ودهائه، ولذلك تحاشى مهاجمة أى موقع حربى مُحَصَّن، فقد كانت آية حركة ضد مدينة روما من شأنها أن تتوغل بالقرطاجيين داخل لاتيوم، منطقة التجمعات المعادية، حيث يجعل الحصار جيشه عاجزا عن الحركة أمام سور مقام. أما الاعتماد على السرعة -كما حَاجَّ مهربال- لمفاجأة المدينة واختلالها، فكان هذا يستلزم قطع مائتى ميل فى زحف عاجل منهك.

ولم يكن القتال بكناى اكتساحا ميسرا صوب النصر كما كان الحال فى ترازيمين، فعشر ساعات من التلاحم والمبارزة بالسلاح قد كلفت القرطاجيين غالبا من مشاتها الثقيلة.. فكم بقى من الرجال الصالحين لاستئناف الزحف فى اليوم التالى؟.. وكم عدد الجياد التى استردت قواها لمهاجمة العدو من جديد؟.. كيف يتيسر أن تساق الدواب المحملة بالمئونة فوق دروب الأبينايين؟.. وكم عدد من يتخلفون للعناية بالجرحى، وحراسة الأسرى، والاستيلاء على معسكرات الرومانيين، بالرغم من العقبات التى لم تكن فى الحسبان؟

إن هانيبال وحده هو الذى كان يعلم الإجابة على هذه الأسئلة، فالشىء الوحيد الذى لم يستطع أن يفعله هو المجازفة بضياع جيشه، ولذلك كان من الطبيعى جداً أن يبقى عند نهر أوفيدوس، ولكنه كان يؤدى من الأعمال ويصرف من الشؤون أكثر جداً مما صوره ليفى.

■ ■ ■

نَهايةُ هانيبال .. الموتُ أفضَلُ من ذُلِّ الاستِسْلامِ !!



15

في سنة ٢٠٢ قبل الميلاد، شنت روما بقيادة "شيبون الإفريقى" هجوما على قرطاج، فلاقاه هانيبال فى منطقة زاما، إلا أن جنوده حديثى العهد بالقتال فروا من ساحة المعركة تاركين الجنود المتمرسين يواجهون الرومان بمفردهم، فأُبيد عددٌ كبير منهم، واستسلمت قرطاج لتنتهى بذلك الحربُ.

انتهت هذه الملحمة البطولية ملحمة الدفاع عن قُرْطَاج. واذا كانت هذه الحرب أسفرت عن وفاة مدينة، فقد أكدت أن الانسان أقوى من القهر، وأن ارادته لا تردع بسهولة. ولقد تأثر لهذه المأساة حتى بعض المؤرخين الأوروبيين، يقول وارمنغتون: ألقى سيبيو أميليانوس نظرة على المدينة التى ازدهرت أكثر من سبعمائة سنة منذ إنشائها، والتى حكمت مناطق كثيرة، جزرا وبحارا، وكانت ثرية فى السلاح والأساطيل والفيلة والمال، مثل الإمبراطوريات العظمى، بل والتى فاقتها فى الإقدام والشجاعة الفائقة. فبالرغم من أنها جردت من كافة أسلحتها وسفنها، فقد صمدت أمام حصار شديد، ومجاعة دامت ثلاث سنوات، ووصلت إلى نهايتها بالتدمير الكلى .

ويروى المؤرخ اليونانى بوليبيوس الذى رافق القائد الرومانى فى عملية التدمير، فيقول: إن سيبيو أمليانوس بكى تأثرا بما آل له عدوه، فاستعرض أمامه الحقيقة المتمثلة فى أن الأفراد والأمم والإمبراطوريات نهايتها محتومة، وكذلك نصيب مدينة طروادة العظيمة، ونهاية الإمبراطوريات الآشورية، والميدية، والفارسية، والتدمير الأخير للإمبراطورية المقدونية الكبيرة.. تمعن فى هذا كله ثم ردد كلمات هكتور فى ملحمة " الإيادة " الشهيرة لـ "هوميروس": سيأتى اليوم الذى تسقط فيه طروادة المقدسة، وكذلك الملك بريام وجميع رجاله المسلحين معه، وعندما سأل المؤرخ بوليبيوس، سيبيو، ماذا تقصد بهذا؟، التفت اليه القائد الرومانى وقال بتأثر: هذه لحظة عظيمة يا بوليبيوس..إن الخوف يتملكنى من أن نفس المصير سيكون لوطنى فى يوم من الأيام .

بادر هانيبال بعد انتهاء الحرب إلى العمل على تطوير قرطاج، فعدل الدستور وقاوم الفساد وسعى إلى تعزيز موارد الدولة، إلا أن روما رأت فى ذلك إعدادا لحرب أخرى، فعملت على إبعاده، وهو ما كان لها إذ لجأ القائد العظيم إلى ملك سوريا الذى كان بدوره فى حرب مع روما إلا أن هزيمة الأخير سنة ١٩٠ ق.م جعلت هانيبال ينتقل نحو شمالى البلاد بلاد الأناضول.

وهناك وضع عبقريته فى خدمة ملكها إلا أن هذا الأخير رضخ لضغوطات روما التى لم تكُفَّ عن ملاحقة غريمها القديم وأرسلت فى طلبه، وحين أيقن هانيبال بحتمية وقوعه أسيرا، آثر الانتحار مقدما آخر درس له فى رفض الإهانة والتعلق بالحرية. ولم يدخل روما.

وهكذا كشفت معركة زاما عن أقوى دولتين فى ذالك الزمن وعن أعظم قائدين عسكريَّيْن فى زمانهما. فقد واجه الرومان بقيادة بيليوس سيبيو القرطاجيين بقيادة هانيبال بركا. وفى نهاية المعركة سيطرت روما على غرب البحر المتوسط وأسست ما أصبح يعرف بأقوى إمبراطورية فى ذلك العصر.

لقد جعل نصر زاما من روما أقوى قوة عسكرية غرب البحر المتوسط. وامتدت سيطرتها على كل شبه الجزيرة الإيطالية وصقلية وكورسيكا وسردينيا وإسبانيا. ومع هزيمة قرطاجة، استطاعت روما توجيه قواتها العسكرية نحو الشرق لتهزم الإغريق. ورغم أن الأمر قد أخذ فترة قرن ونصف قبل أن تظهر الإمبراطورية الرومانية، إلا أن بذورها قد زرعت فى سهول زاما. تقاعد بعدها سيبيو ومنح لقب.. الأفريقى.. أو أفريكانوس، ونال شهرة أقوى قائد عسكرى فى زمنه.

والواقع أنه منذ عصر هانيبال، لم تستطع أية جماعة أو دولة فى شمال أفريقيا تحشيد قوة عسكرية قادرة على شن عمليات عسكرية مؤثرة خارج حدود أراضيها.

الجزءُ الثانى

عليســـــة
أميرةُ الأميراتِ

الأميرةُ الساحرةُ عليسة.. ابنةُ الحضارةِ الفينيقيَّة



1

شخصية تاريخية أُخرى قلبتْ العالم القديم رأسا على عَقِب.. أميرة ساحرة من (صُور)، وصلت تونس قبل عصر هانيبالً بكثير، فأسست مدينة عظيمة هى قرطاج واعتلت عرشها كملكة متوجة، ومن خلالها غيرت مجرى التاريخ، وأصبحت مادة ليس فقط للمؤرخين فى الشرق والغرب، وإنما أيضا موضوعا للملاحم والأشعار وأشهرها ملحمة فرجيل الشهيرة "الإنياذة".

ومن المهم للغاية وقبل أن نُسرد، بمزيد من التفصيل، قصة الأميرة عليسة أو ديدون أو إليسا أو عليشة وكلها أسماؤها التى وردت فى كتب التاريخ فى الشرق والغرب..

من المهم وقبل أن نسرد قصة هذه الأميرة آسرة قلوب وعقول المؤرخين فى الشرق و الغرب أن نتحدث قليلا عن الحضارة الفينيقية باعتبارها الإطار الحضارى الذى خرجت منه الأميرة متوجهة إلى تونس حاملة معها روح وقيم وعادات وتقاليد المجتمع الفينيقى الذى وُلِدَت وترعرعت فيه .

فينيقا هو الاسم الذى أطلقه قدماء الإغريق على الإقليم الذى تحتله الآن المناطق الساحلية من سوريا ولبنان وفلسطين المحتلة، ويمثل النَّهر الكبير الحدود الشمالية له بينما يشكل جبل الكرمل حدوده الجنوبية كذلك تَحُدُّه جبال لبنان من الشرق والبحر المتوسط من الغرب.

لا يُعرف تحديدًا أصل كلمة فينيقيا؛ ويبدو أنها قد تطورت من كلمة كنعان، التى تعنى بلاد الأرجوان وهو الاسم الذى أُطلق فى البدء على بلاد سوريا وفلسطين كانت كنعان مصدرًا مهمّاً للأرجوان الأحمر .

يعتقد بعض الناس أن الإغريق ربما استخدموا لفظة فوينيك التى تعنى الأُرْجُوان الأحمر إشارة إلى المجموعة التى كانت تُتاجر معهم فى هذا الأرجوان، لكن هناك من لا يقبل هذا التأويل. وفى النهاية أصبحت لفظة

فينيقيا، اسمًا للشريط الساحلى لبلاد كنعان .

كان الفينيقيون من أشهر شعوب العالم القديم فقد كانوا بحارةً مهرة وملاّحين وتجارًا. وقد سجل لهم التاريخ إنجازين كانوا من أوائل من أرسلوا مكتشفين وأقاموا مستعمرات على امتداد منطقة البحر الأبيض المتوسط وماوراء مضيق جبل طارق .

تطورت الأبجدية الإغريقية من الأبجدية (الألفباء) الفينيقية ثم تطورت الأبجدية الرومانية وكل الأبجديات الغربية عن الإغريقية .

ليس من السهل التمييز بين الفينيقيين والشعوب الأخرى التى عاشت فى بلاد كنعان قبل أن يفِد بنو إسرائيل هناك.

ولهذا السبب يُعرف الفينيقيون فى العهد القديم أحيانًا بالكنعانيين .

وكثيرًا مايُشار إليهم بالصيداويين نسبة لمدينة صيدا الفينيقية ويُعرف العلماء أن أوغاريت رأس شمرا الحالية مدينة الفينيقيين الشمالية، والتى تقع فى غربى سوريا كانت على اتصال بحضارة كريت منذ ١٩٠٠ق.م. وفى مابين عامى١٢٠٠ق.م و ١٤٠٠م، ازدهرت مُستعمرة مسينية فى أوغاريت .

اللغة: تحدث الفينيقيون لهجةإحدى اللغات السامية واللغة الفينيقية قريبة جدًا من اللغة العربية وتَبعُد نسبيّاً عن الآرامية واللغات السامية فى وادى الرافدين كالآشورية والبابلية.

وقد كان العلماء فى الماضى يعتقدون أن الفينيقيين قد ابتكروا أبجديتهم دون تأثير من أية جهة، إلا أن الاكتشافات الأخيرة أشارت إلى أنهم قد أخذوها من كتابات سابقة. تتكوّن الأبجدية الفينيقية من ٢٢ صامتًا (حرفًا ساكنًا) ولما استعار الإغريق الأبجدية الفينيقية وضعوا خمسة رموز لأصوات ليست فى لغتهم (كالعين والحاء... إلخ) لإعطاء الصوائت، أى الحركات وحروف المد.

ومع بداية التاريخ الميلادى أصبحت الآرامية هى لغة فينيقيا لكن أهل شمال إفريقيا حول قرطاج، المستعمرة الفينيقية ظلوا يتحدثون اللغة الفينيقية حتى القرن السادس الميلادى بلهجة تُعرف بالبونيَّة. وهناك بعض أسماء المناطق فى جنوب أسبانيا التى استعمرها الفينيقيون فى القرن الثامن ق.م أو قبل ذلك، انحدرت من اللغة الفينيقية.

فالاسم قادش (قادس، بالأسبانية الآن) جاء من الكلمة الفينيقية الحائط بابيل جاءت من الكلمة الإغريقية الكتاب والإغريق أخذوا الكلمة من مدينة بيبلوس (جبيل) الفينيقية والتى كانت مركزًا لتجارة البردى .

هناك بقايا من الأدب الفينيقى ظلت فى التراجم الإغريقية ومنذ عام ١٩٢٩م تمت اكتشافات مهمة فى موقع أوغاريت القديمة .

وقد أوضحت بعض المخطوطات الدينية التى وجدت على ألواح طينية بعض الفقرات الغامضة فى العهد القديم .

وكانت هذه الألواح قد كُتِبت بالخط المِسْمَارى بأبجدية تختلف فى طرازها عن الأبجدية الفينيقية المعهودة .

كان الفينيقيون منذ بداية تاريخهم المعروف تُجَّارًا يركبون البحر وكان المصريون على علم، بسفن جبيل منذ ٢,٩٠٠ ق.م، إلا أن فينيقيا لم تصل قمة مجدها بوصفها قوة بحرية إلا فى القرن الحادى عشر .

اشتهرت مدينة (صيدا) بصبغة الأرجوان وبتطوير نوع من الزجاج كذلك عرفت صور تصنيع صبغة الأرجوان واشتهرت بالروائح الكَريهة التى تُسببها أعمال الصباغة .

كانت فينيقيا إحدى جنان الإمبراطورية الرومانية وكانت تُصدر النبيذ والزيوت والغار وخشب الأَرز والمنسوجات ومصنوعات أخرى .

تعلم الفينيقيون معظم طرق التصنيع من المصريين فعرفوا السبك

(الصب) والطرق وحفر المعادن، كالذهب والفضة ونحتوا عدة أشياء من العاج منها قطع الأثاث ومنذ أقدم العصور عرف الفينيقيون نسج الملابس من الصوف والكتان.

وكان الحرفيون يصبغون الأقمشة وكثيرًا ما يخيطونها ثيابًا قبل بيعها. وفى وقت لاحق استعار الإغريق الكيتون وهو ثوب فينيقى يشبه القميص .

كان لدى الفينيقيين عدة معبودات، أطلقوا عليها اسم بَعْل (للسيد) وبَعْلَتْ (للسيدة). وقد عبد كل الفينيقيين نفس المعبودات الرئيسية، رغم أن المعبودين قد عُرفوا بأسماء مختلفة فى مدن مختلفة. فالمعبود (ملقارت) معبود (صُور) يمكن أن يكون بعل صور.

مارس الفينيقيون تقديم القرابين تمامًا كما فعلت الشعوب السامية الأخرى. إلا أنهم قدموا قرابين بشرية فى فينيقيا ومستعمراتهم الأخرى، الشئ الذى أكسبهم شهرة فى القسوة.

وكانت قصة عشتروت ومحبوبها أدونيس معروفة فى فينيقيا ثم وجدت طريقها إلى اليونان حيث أصبحت عشتروت هى المعبودة الإغريقية أفروديت وعرفها الرومان لاحقًا بفينوس وقد عرفت قصة موت أدونيس المأساوية، بأنياب خنزير برى وانتحاب محبوبته عليه، من الأدب الإغريقى إلى اللاتينى، ثم الإنجليزى عبر قصة فينوس وأدونيس.

عاش الفينيقيون مثل الإغريق فى عدد من الدول - المدن، ولم تُوَحَّد تلك المدن فى قطر واحد وكانت أرستقراطيات يحكمها ملوك.

وبدءًا من القرن التاسع ق.م ظهرت مجالس الحكماء لتحكم إلى جانب الملك وكان بعض هذه المجالس أكثر نفوذًا من الملوك .

وفى وقتٍ لاحق أصبحت مُعظم هذه المدن تحكمها حكومة مدنية تُسمى الشوفيت.

وقد هبط مُعظم سكان الجبال الفينيقيين إلى البحر حيث بُنيتْ مُعظم المدن القديمة على جزر مثل صور وأرواد، أو احتلوا مواقع موانئ صغيرة على الساحل على منحدرات التلال. ومن أهم تلك المدن الساحلية من الشمال إلى الجنوب: أرواد وجبيل وبيرتوس (بيروت الحالية) وصيدا وصور وعكا. والمدينة الوحيدة التى احتفظت بأهميتها حتى وقتنا الحالى هى بيروت عاصمة لبنان وأهم ميناء فيه .

كانت فينيقيا تُعَدُّ الملتقَى الطبيعى للحضارات الوافدة لأنها تقع على الطريق الرئيسى للحركة بين مصر فى الجنوب وآسيا الصغرى وبلاد الرافدين فى الشرق .

وقد فرضت مصر تأثيرات مبكرة على الفينيقيين فمنذ عهد المملكة المصرية القديمة منذ نحو ٢٦٨٦ إلى ٢١٨١ق.م كانت مصر تستورد خشب الأرز المشهور من لبنان فى عهد المملكة المصرية الوسطى أنشأتْ الدولتان علاقات تجارية مُنتظمة. كان الفينيقيون يُصدرون الأخشاب ويستوردون الذهب والمصنوعات. وخلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد أصبحت فينيقيا مقاطعة حدودية لمصر، وبقيت كذلك لنحو مائة عام وفى هذه الأثناء تأثرت مصر بالمدن الفينيقية مثلما أثرتْ فيها. فكثيرًا مازار النبلاء الفينيقيون البلاط المصرىَّ كما أثَّرت العبادات والأفكار الدينية الفينيقية فى الفكر المصرى. كذلك تأثرت فينيقيا القديمة بالحضارة البابلية فخلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان أمراء فينيقيا يكتبون بالخط المسمارى. وتعلم الفينيقيون ختم مستنداتهم بأختام بابلية.

كذلك تعلم الفينيقيون من البابليين الكثير من قصصهم الأسطورية عن بداية العالم، ومولد آلهتهم، وخلق البشر ويرى بعض العلماء أن فينيقيا كانت الممر الذى عبرت من خلاله الأساطير البابلية التى تَحكى عن الخلق وعن الطوفان. إلى العبرانيين فى الجنوب وإلى الإغريق ولفترة قصيرة خلال القرن

الثالث عشر دخلت فينيقيا فى دائرة النفوذ الحيثى، إلا أنها استعادت حريتها.

حين انهارت الإمبراطورية الحيثية وانتشرت التأثيرات الفينيقيةنالت المدن الفينيقية استقلالها فى القرن الثانى عشر الميلادى، ولمائتين وخمسين عامًا بعدها بقيت على قمة السلطة والثراء. وكانت هناك مستوطنات فينيقية فى قبرص من قبل القرن الثانى عشر قبل الميلاد وبعد ذلك التاريخ وصل البحارة الفينيقيون إلى كل سواحل البحر الأبيض المتوسط وسيطروا على تجارته ثم أنشأوا مستعمرات على امتداد الساحل الجنوبى لأسبانيا .والساحل الشمالى لإفريقيا والساحل الغربى لصقلية وربما يمكن القول أن غرب البحر الأبيض المتوسط أصبح .بحيرة فينيقية فى تلك الحقبة التى سبقت مجىء الإغريق.

أثّر الفينيقيون فى الحضارة الغربية عبر مستعمرتهم قرطاج التى تُعد كبرى المستعمرات الفينيقية فى الغرب أنشأ هذه المستعمرة جماعة من مدينة صور نحو ٧٥٠ق.م .

وكانت الملكة عليسة "ديدو" من بين الشخصيات الأسطورية التى أنشأت المدينة.

كانت هذه المستعمرات، بما فيها قرطاج، تُشابه المدن الفينيقية.وكان يعيش فيها عدد من الحرفيين والعمال والتجار والبحارة .

يرى بعض الباحثين أن التأثير الفينيقى أو ربما المستعمرين الفينيقيين قد وصلوا، إلى كورنث وطيبة فى بلاد الإغريق. إن مسألة الاستعمار الفينيقى لبلاد الإغريق أمر تغلب عليه المبالغة، إلا أن الفينيقيين قد ورد ذكرهم عند هومر حرفيين مهرة وتجارًا وبحارة.

كذلك وصلت الأبجدية الفينيقية إلى بلاد الإغريق بعد بداية القرن التاسع قبل الميلاد بفترةٍ وجيزة. أعطى التحكم على جانبى مضيق جبل طارق الفينيقيين مدخلاً إلى المحيط الأطلسى. وتمكنوا من التحكم فى تجارة

سواحل إفريقيا الشمالية وغرب أوروبا.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الفينيقيين ربما يكونون قد وصلوا إلى كورنوول فى جنوب غربى بريطانيا، واشتغلوا بالتعدين فى مناجم القصدير هناك.

أبحر الفينيقيون حول إفريقيا فى القرن السابع قبل الميلاد أى ألفى عام قبل البرتغاليين الذين لم يتحقق لهم ذلك الإنجاز إلا فى عام ١٤٩٧م. يحكى هيرودوت المؤرخ الإغريقى.هذه القصة فى المجلد الرابع من كتابه التاريخ .

سقطت المدن الفينيقية فى قبضة الآشوريين فى عام ٨٤٢ق.م، ولمائتى عام بعد ذلك بقى الفينيقيون تحت حكم آشور .كانت تلك الحقبة فترة شدة وتمرد وقمع .

وبعد سقوط الآشوريين فى ٦١٢ق.م، خضعت فينيقيا لفترة وجيزة لحكم البابليين. بعد ذلك أصبحت المنطقة جُزءًا من الإمبراطورية الفارسية التى أنشأها الملك داريوس الأول .

فى هذه الفترة أصبحت صيدا أكثر أهمية من صور وازدهرت المدن الفينيقية تحت حكم الفرس وبقى الفينيقيون بُناة سفن وبحارة متميزين .

وأثناء الحروب الفارسية (٤٩٠ - ٤٧٩ق.م) كان الأسطول الأول الفينيقى هو الساعد الأقوى للبحرية الفارسية فى هجومها على بلاد الإغريق. يقول هيرودوت. إن ملك صيدا كان يحتل المرتبة الثانية بعد أحشورش ملك الفرس (أحشورش الأول) فى هذا الأسطول إلا أن الإغريق دمروا الأسطول الفينيقى عن آخره تقريبًا فى معركة سلاميز فى عام ٤٨٠ق.م.

وقعت فينيقيا تحت الحكم الإغريقى المقدونى حين احتل الإسكندر مدينة صور فى عام ٣٣٢ق.م.

أما خلفاؤه، حكام مصر وسوريا فقد تصارعوا حول السيطرة على المدن الفينيقية والتحكم فى صناعة بناء السفن وفى مصادرها التجارية تبدلت

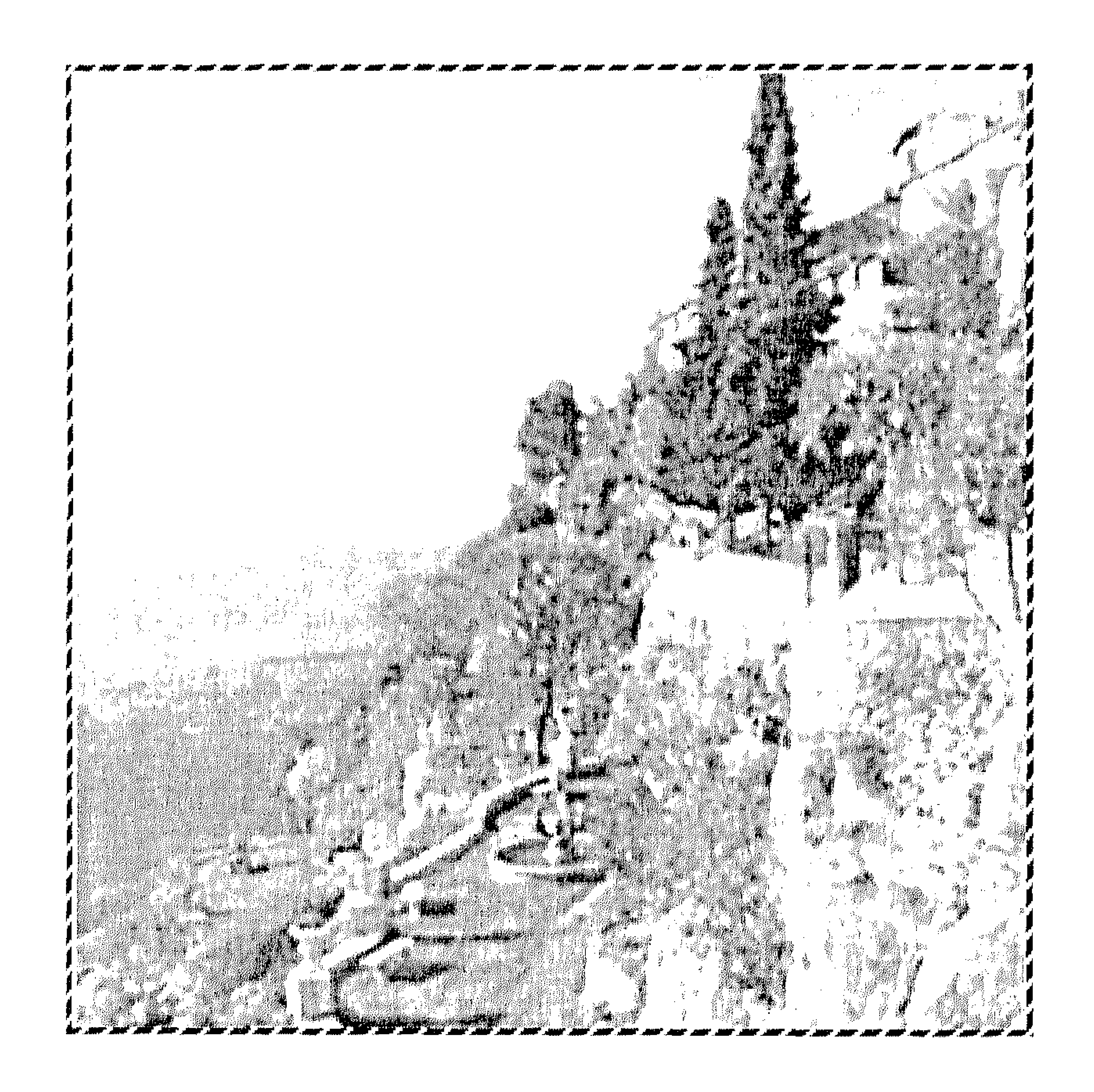
الحضارة الفينيقية فى هذه الفترة وأصبحت اللغة الإغريقية لغة الأدب والمعرفة أما الآرامية التى احتلت مكان اللغة الفينيقية فى الماضى فقد أصبحت لغة السوقة والعامة.

وهناك عدد من فلاسفة تلك الفترة انحدروا من أصول فينيقية مثل زينو من صيدا وديودوروس من صور.

وفى عام ٦٤ق.م، قام الإمبراطور الرومانى بومبى العظيم بضم فينيقيا لتصبح جُزءًا من مقاطعة سوريا الرومانية وكان الرومان قد أنشأوا مدرسة اشتهرت بتدريس القانون فى بيروت وأصبحت صُور وصيدا مركزين مهمين للمعرفة وواصلتا ازدهارهما التجارى كذلك اشتهرت صور بصناعة الزجاج وفى القرن السابع الميلادى فتح المسلمون فينيقيا وبقية سوريا .

■ ■ ■

قرطاج بينَ الأُسطورةِ والتّاريـــخ !!



2

عندما تندثر حضارةٌ ولا تترك وثائق تدلنا على تاريخها، تضيع الحقيقة وتكثر التأويلات، وتُنسج الأساطير. وهذا ما وقع لحضارة قرطاج رغم توغلها فى التقدم على كل الواجهات.

فما نكاد نفتح كتابا عن نشأة قرطاج إلاّ وتصدمنا الوثائق المعتمدة عن سرد ذلك التاريخ برائحة العداء، ولهجة التهكم والتحقير، وبلاغة المغالطات المفضوحة، والسقوط فى التناقضات الغبية.

كيف يمكننا أن نفهم أنَّ الحضارة التى أتت بالكتابة، ورسَّخت استعمال التوثيق ومسك دفاتر المحاسبة، وأرشيف التقارير، هذا كله حسب أقوال أعداء قرطاج، ومع ذلك لم تترك سطرا واحدا يدلنا على ضوابط تاريخها، سوى نقش المقابر مبعثرة فيها أسماء وتواريخ لا يمكن بأى حال أن تضبط بالدقة التى يوفرها النص المكتوب من قبل المؤرخ.

وعندما نحاول التعرف على مراحل بداية تلك الحضارة، نصطدم بضبابية يصعب الرؤية الثاقبة من خلالها. فإن كان تاريخ ميلاد قرطاج قد أجمع عليه جل المؤرخين، ٨١٤ قبل ميلاد المسيح، فإن ضبط هذا التاريخ لم يأت من خلال قراءة وثائق قرطاجية، بل عبر قراءة وثائق مختلفة متأتية من جهات عديدة من آشوريين، الذين احتلوا مدينة صور بعد ذلك التاريخ بقليل ومن صوريين "سكان مدينة صيدا" الذين عرّفونا على تواريخ ملوكهم فى تلك الفترة، وإغريق الذين كانوا يترصدون أخبار رحلات الفينيقيين إلى الجهة الغربية من حوض البحر المتوسط.

لقد كانت الأطماع الآشورية فى بداية القرن التاسع قبل ميلاد المسيح تتجه نحو احتلال موقع على ضفاف البحر المتوسط، وكانت المدن الفينيقية: صور وصيدا وبيروت وغيرها معرضة لذلك الاجتياح الذى لم يتأخر كثيرا.

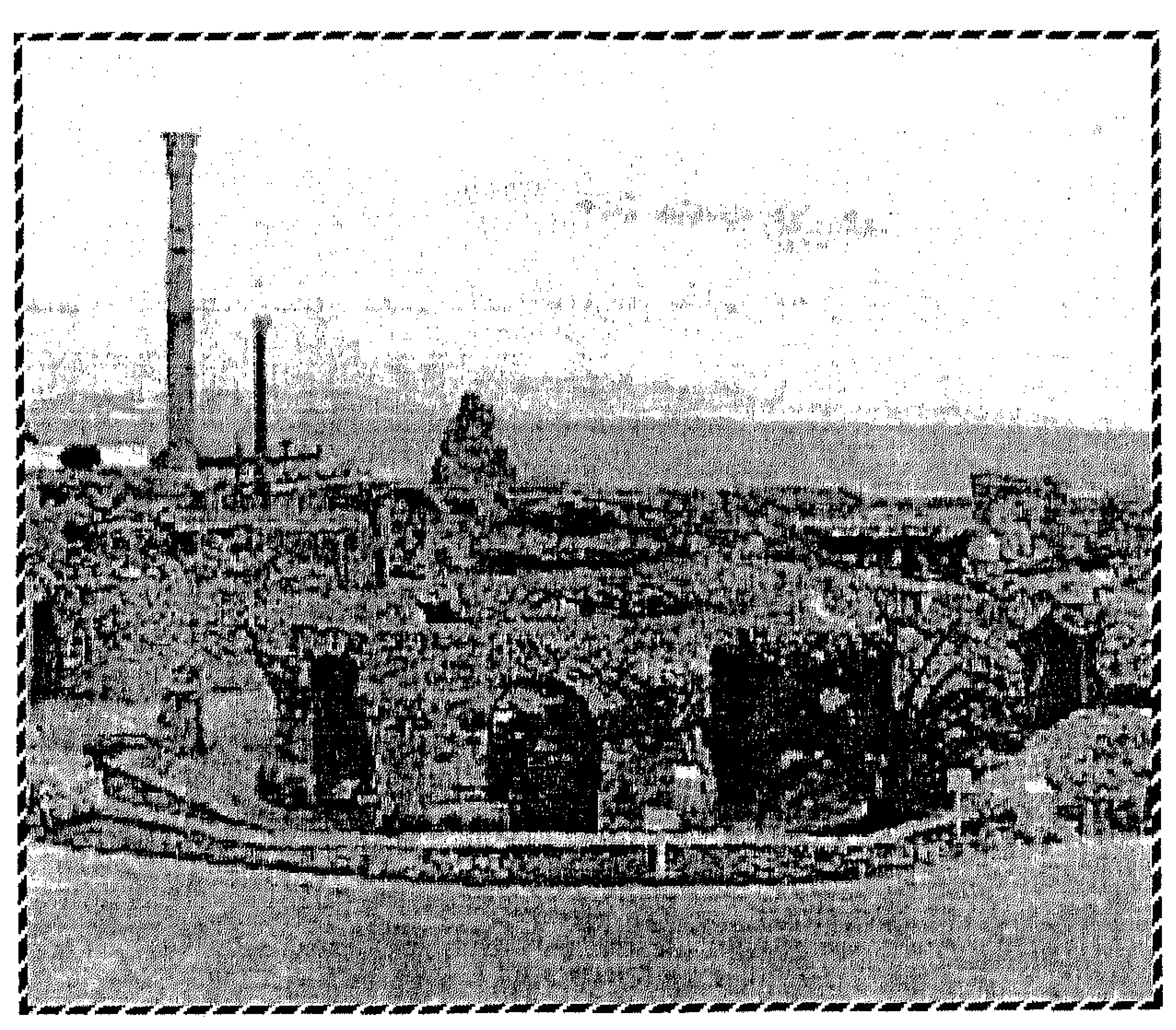
وكان ملك صور، ويدعى متّان، على بينة بتلك الأطماع، ويعرف جيدا ما

تعنيه الأطماع الأجنبية، بما أنَّ المنطقة عانت الاحتلال المصرى خلال الألفية الثانية قبل الميلاد.

حذر إذن الملك متّان خليفتيه: ابنه بجماليون وابنته علّيسة من مغبة التهاون فى تسيير دفة الحكم، فأوعز إليهما بتقاسم الحكم بعد وفاته، لأنه كان يعلم ما تتحلى به عليسة ابنته من خصال عالية.

فهى حسب الأسطورة كانت تتمتع بجمال فائق وذكاء متقد، وبعد نظر فى الحكم على الأشياء. بينما كان ابنه بجماليون حسب الأسطورة غليظ الطباع، مغاليا فى الاعتداد بنفسه، شديدا فى الحكم.

أما وثائق التاريخ، حَسْبَ ما قرأه بعض المؤرخين، فنعثر فى حوليات الملك الآشورى سلمانآزار الثالث أنه يوجد فعلا ملك يدعى متّان حكم صور فى حوالى سنة ٨٢٥ قبل الميلاد وهذا التاريخ لا يبعد إلا بعشر سنوات عن تأسيس قرطاج.



ولـمّا كـانت الأسطورة تتفق مع هذا التـاريخ وتلك الأسـمـاء فـقـد أُعـتـمـد بعضها لتحديد نشأة مدينة قُرُطَاج.

مع العلم أنّ الحفـريات الأثرية فى قـرطاج الحـالية لم تـعثـر على أى أثر لتلك الحضارة بما يفوق تاريخ القرن الثامن قبل الميلاد .

ويعـرف الجـمـيع أنَّ مـدينة قـرطاج البُونِيَّة قد وقـع حـرقـها تمامـا، وبُنيت على أنقاضها بعد قرون مدينة قرطاج الرومانية.

وربما نتيجـة لهذا الوضـع ضـاعت الآثار القـديمـة التى ترجع إلى القـرن التاسع قبل الميلاد وهو القرن الذى أُنشئت فيه مدينة قرطاج.

نعود إلى الأسـطورة فنقرأ أنّ الملك بجماليون بعد إن اعتلى عـرش صور، لم يحترم وصية أبيه، ولم يسمح لأخته عليسة من مشاطرته الحكم، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فقـد قتل زوجهـا ذاكربعل القائم على الشؤون الدينية فى مملكة صور.

وبالطبع لا توجد وثائق تدعم هـذه الأحـداث سـوى أنّ بجـمـاليـون اعـتلى سدّة الحكم بعد وفـاة أبيه الملك متّـان. لكنّ الأسطورة، وهى من نسج خيـال المؤرخين الإغـريق، تتفق وتصـوّراتهم فى نشـأة المدن، حيث أنّ المتداول عندهم أن يكون فى البـداية الخـلاف على الحكم، يعـقـبـه الاغـتـيـال والدسـائس، ثم الفرار والتألق خارج حدود الوطن.

وطبـقـا لهذا التصور، تفرّ عليسة من جحيم الحكم الجـائر الذى فـرضـه أخوها على رعـاياه، وتأخذ معها بعض أعيان صـور، أيضا الثروة الهـائلة التى كان يتمتـع بها زوجهـا بما أنه كـان القـائم على شؤون المعـابد فى بلد كـانت تحكمه الشعائر الدينية.

لكن المحللين للتاريخ، والعارفين بطبيعة الهجرات الفينيقية عبر المتوسط يقـولـون إن الصـورة التى أعـطاها المؤرخـون الإغـريق لا تتـفق مع واقـع نشـأة

المستوطنات الفينيقية، حيث أنَّ تكوين هذه المستوطنات يستجيب إلى حاجة اقتصادية وسياسية فى المقام الأول، وأنّ الطريق التى حددها هؤلاء المؤرخون لا تتفق مع المسالك التى كان البحارة الفينيقيون يتخذونها للوصول إلى الضفة الغربية للمتوسط.

تقول الأسطورة إنّ عليسة وصحبها قد استولوا على باخرة الملك بدعوى أنّها تساعدها على العثور على ثروة زوجها التى أخفاها، والتى كان بجماليون متلهفا عليها، وانطلقت الرحلة نحو جزيرة قبرص، ومنها إلى إفريقيا وجهتها الأصلية.

بينما الطريق التى كانت تسلكها السفن الفينيقية لا تمر بقبرص بل تتجه إلى الشمال متبعة الشواطئ والجُزُر اليونانية ومنها إلى جزيرة صقلية "حيث الوجود الفينيقى كان كثيفا فى تلك الفترة".

ثم تواصل تلك السفن طريقها إلى جزيرة سردينيا ثم جزر الباليار فبلاد الأندلس، ومنها تتجه إلى شواطئ إفريقيا عائدة إلى الشرق عبر السواحل الليبية والمصرية.

إذن لم تكن البواخر التجارية الفينيقية تتجه مباشرة إلى إفريقيا عبر صقلية بل تعود إليها مرورا بمضيق جبل طارق، وكان يدعى فى تلك الفترة أعمدة هرقل.

والأسطورة الإغريقية تريد إخضاع الواقع التاريخى إلى التصور الثقافى الإغريقى فجاءت بقصة محطة قبرص، وخطف ٨٠ امرأة كن يمارسن البغاء المقدَّس، وهى عادة شرقية قديمة، لم تعد سارية فى ذلك العصر.

ونرى هنا كيف أنَّ المؤرخين الإغريق يحاولون التشهير بالفينيقيين من خلال التأكيد على الطابع المتوحش لعاداتهم وتصرفاتهم. "حَوّل البغاء وخَطْف النساء". وفى أسطورة أخرى حول سفرة عليسة من (صُور) إلى قرطاج يروى فيرجيل قصة وقوع عليسة فى حب أمير إغريقى يدعى إيناز،

رافقتها إلى قرطاج ثم اختفى وترك عليسة تصطلى بلوعة الشوق التى دفعتها إلى الانتحار، فرمت بنفسها فى النار.



هذه الأسطورة ألهبت خيال الأدباء فى القرون الوسطى وحتى فى القرن التاسع عشر فألفَّوا المسرحيات والأوبرتات تخليدا لذلك العشق الشرقى الجنونى. لكن التاريخ لا يعترف بهذه الأساطير.

مع أنّ حرق عليسة ظلّ عالقا بالقرطاجيين، بل ذهب المؤرخون المعاصرون، فى بداية القرن العشرين إلى التأكيد على أنّ القرطاجيين كانوا يحرقون الأطفال تقربا من آلهتهم. والغريب أنَّ هذا التشنيع بالقرطاجيين

ظلّ ساريا حتى بعد اختفائهم من الساحة الدولية بعد أن قضت روما على الوجود القرطاجى فى المتوسط، مستعملة وحشية وصفها المؤرخ اليونانى بوليبيوس، وكان مصاحبا للجيش الرومانى، بالمجزرة التاريخية.

ومن قديم الزمان، فإنَّ التاريخ الذى يكتبه الغالبُ لا يكون أمينا، فإن كل ما قيل حول القرطاجيين من فظائع يدخل فى خانة "البربجندة" المغرضة.

وهذا ما نلاحظه حتى فى العصور الحديثة، فإنّ المؤرخين المعاصرين شوهوا ماضى تلك الشعوب وبالتحديد فى منتصف القرن التاسع عشر وخلال فترة استعمار شعوب شمال إفريقيا.

وحتى ندرك الواقع التاريخى لا بدّ من الرجوع إلى الأوضاع الجغراسياسية التى كانت سائدة فى تلك الفترة أى حوالى سنة ٨١٤ ق.م وهو تاريخ نشأة قرطاج.كانت المدن الفينيقية أثناء القرن التاسع قبل الميلاد تعيش على التجارة التى توفرها لها المستوطنات المترامية الأطراف على ضفاف المتوسط فى كل من صقلية وسردينية والبليار وإسبانيا وإفريقيا.

ومع وصول الآشوريين بدأ كثير من التجار وأغنياء هذه المدن يفكّرون فى مغادرة البلاد واللجوء إلى تلك المستوطنات.

وعندما أصبح الاحتلال الآشورى جاثما على تلك المدن، وكانت إفريقيا فى تلك الفترة بعيدة عن كل الصراعات، والأطماع الإغريقية خاصة، لكن الصدام مع الإغريق سيحصل عندما يعظم شأن قرطاج، فوقفت فى وجه الإغريق فى ليبيا، وصقلية، وإسبانيا، لتحد من تواجدهم.

فى تلك الأثناء قرر بعض التجار الفينيقيين من مدينة صور إنشاء مستوطنة جديدة فى إفريقيا تكون همزة وصل بين شرق وغرب المتوسط، قريبة من صقلية التى كان الفينيقيون يتقاسمون ملكيتها مع الإغريق، وتكون أيضا قريبة من الطريق التقليدية التى تسلكها سفن التجارة الفينيقية.

هكذا صارت قُرطاج، (قرط حدشت)، المدينة الجديدة، مشروعا اقتصاديا وربما حضاريا، يعوِّض ما خسره الفينيقيون مع الاحتلال الآشورى والفوضى العامة فى الشرق الأوسط نتيجة التطاحن والحروب التى اجتاحت المنطقة فى تلك الفترة من تاريخها.

قرطاج على بعد ٢٥٠ كلم من صقلية، قرطاج حوض بحرى مستقر، بحر هادئ ومناخ لطيف، بعيدا عن الصراعات فى الشرق وعن المد اليونانى فى الغرب. وقرطاج قريبة من المستوطنة الفينيقية، أوتيكا، أو عتيقة، أو وتيكة.

تعددت الأسماء والمستوطنة واحدة، مدينة على البحر أسسها الفينيقيون سنة١١٠١ قبل الميلاد على الشاطئ الإفريقى لا تبعد سوى ١٥ كم عن قرطاج. هذا ما يمكن أن نستخلصه من قراءة الأحداث التاريخية التى جرت فى تلك الفترة والتى دفعت بإنشاء "قرط حدشت" تلك التى ستصبح أكبر مدن البحر المتوسط، وتعيد مجد الفينيقيين، بل ستضطلع بمهمة إدخال شعوب شمال إفريقيا إلى المدنية.

السؤال الذى ما انفكّ يؤرق المؤرخين هو: لماذا لم تترك هذه الحضارة العظيمة التى علّمت سكان البحر المتوسط فنون التجارة والإدارة ومسك الحسابات، شيئا مكتوبا يدلنا على تجربتها الثرية فى ميادين كثيرة من العمران؟

لم أقرأ إلى حد اليوم جوابا شافيا عن هذا السؤال المحير. هل يعقل أن تكون الحضارة التى ابتدعت النظام الجمهورى، وابتكرت المجالس الاستشارية، وانتخاب المسؤولين عن السلطة التنفيذية، ومحاسبة قادة الجيش بعد نهاية كل حرب، لم تسجل تاريخها، ولا كتبت علومها؟ هل يعقل وهى التى كان لها باع فى صناعة السفن، وسبك المعادن، وعلوم الزراعة، حتى أنّ عدوتها، روما، اضطرت لترجمة كتاب الزراعة للعالم القرطاجى ماغون، ذلك الكتاب على ضخامته، إلى اللغة اللاتينية؟

الغريب أنّ قراءة تاريخ قرطاج يستشف من خلال تاريخ روما. لم يكتب المؤرخون القدامى تاريخ قرطاج أبدا، بل كتبوه وهم يتحدثون عن صراع روما مع قرطاج.

وكتب الإغريق تاريخ قرطاج وهم يتحدثون عن صراعهم معها. فلماذا تطلب من مؤرخ مأمور مثل بوليبيوس، وهو المؤرخ الوحيد الذى ساير حرب روما الأخيرة على قرطاج، أن يعطيك صورة حقيقية عن الحضارة القرطاجية، بينما روما تسعى بكل الوسائل أن تجعل من شعب قرطاج، "شعبا همجيا، لا دين له ولا ثقافة، أهله متوحشون، شديدو الطمع، أشحاء، لا يتوانون فى نسج الحيل للإيقاع بمن يتعامل معهم.

وليس لهم عهد ولا ميثاق، يتنكرون للمعاهدات، ولا يصادقون أحدا، ولا هَمَّ لهم سوى جمع المال وتكديسه.." هذا ما يقوله المؤرخون الرومان عن القرطاجيين. ومع الأسف أننا لا نعرف ما كانت البريجندا القرطاجية تقول عن الرومان فى ذلك العصر.

لكننا نعرف أنّ لقرطاج معاهدات سلم وحسن جوار مع روما، ولها اتفاقيات لتقاسم النفوذ فى المنطقة. كما نعلم أنّ القرطاجيين هبوا لنجدة روما فى حربها مع الأترسكيين وكذلك مع الإغريق. هذه المعلومات وثّقها الرومان وكذلك الإغريق.

كما نعلم أنّ حنبعل قد قاد تحالفا أوروبيا إفريقيا عند مهاجمته روما فى عقر دارها. ونعلم أشياء أخرى تدل على أنّه كانت بين شعوب البحر المتوسط تبادل، ومصالح، وصراعات، كما هو الشأن بين كل شعوب الدنيا.

وقد أكّد كل المؤرخين، وهم أعداء قرطاج، أنها كانت عظيمة الشأن قوية البنية، تملك ثروات طائلة، وتصدر إلى جل بلدان المتوسط الحبوب والزيت والخمر بكميات هائلة. إنّ شعبا ينتج كل هذه الخيرات لا يمكن أن يكون

همجيا، ولا جاهلا. لكن تاريخه لم يصلنا منه إلاّ ما جاد به أعداؤه !

نعود إلى سؤالنا: كيف يمكننا اليوم وقد مضى على آخر الحروب الرومانية البونية أكثر من ألفين ومائة وخمسين سنة أن نكتب تاريخ قرطاج بعيدا عن الأحقاد التى تفننت روما فى زرعها لدى كل الشعوب التى احتلتها وهيمنت عليها حالما أزاحت غريمتها التاريخية قرطاج؟ كيف يمكننا أن نتخلص من أدبيات الاستعمار الحديث الذى أعاد كتابة تاريخ قرطاج بأكثر وقاحة من الرومان أنفسهم، مستعملا البريجندا الاستعمارية لتحقير الحضارات الشرقية من أجل ترسيخ المركزية الأوروبية؟

لقد أمر موسيلينى أثناء حكمه الفاشى قبيل وأثناء الحرب العالمية الثانية، أن يُنتج شريطا عن الحرب الرومانية القرطاجية الأخيرة، وكان الشريط نسخة مشوهة مما كان الرومان يبثونه من دعاية ضد القرطاجيين.

كان لموسلينى أطماع استعمارية بدأت باحتلال إثيوبيا وليبيا، ويحلم بالزحف على تونس ليحقق ما حققه شيبيون فى هجومه على مدينة قرطاج. حتى لا يعيد التاريخ نفسه، علينا أن نعيد قراءة التاريخ، ونتمعَّن فى أطواره ومراحله. لأنَّ تاريخَنا لا يمكن أن تُترك كتابتُه لغيرنا.

■ ■ ■

عليسة والملكُ بارباس..
الحبُّ والمصِيرُ!!



3

من ينبش فى صفحات التاريخ الأمازيغى القديم باستقصاء عميق ودقة علمية وبحث متأنٍّ، فإنه بلا شك سيصادف أثناء قراءة سطور هذا التاريخ العظيم الممتع ملكا أمازيغيا وزعيما أسطوريا قيل عنه الكثير والكثير فى المصادر والمراجع التاريخية القديمة والحديثة على الرغم من قلة سطورها المكتوبة على هذه الشخصية الغامضة، واعتبروه أقدم ملك بربرى فى تاريخ الحضارة الأمازيغية.

فقد استقدم هذا الزعيم البربرى مجموعة من الفينيقيين إلى حوض البحر الأبيض المتوسط وبالضبط إلى تونس ضيوفا محترمين ونزلاء أعزاء، بعد أن سقط هذا الملك النوميدى عشيقا متيما فى حب أميرة فينيقية وهى عليسة "إليسّا" أو "عليشة" الأميرة الحسناء الشهيرة التى تلقب كذلك باسم ديدون حسب ما أورده المؤرخ اللاتينى يوستينوس فى القرن الثانى الميلادى.

إن هذا الملك الأمازيغى الذى تتحدث عنه الآداب الأمازيغية الكلاسيكية هو " يارباس " أو هيارباس، وتؤشر فترة حكمه السياسى على بداية العلاقات الأمازيغية الفينيقية، وانطلاق الملاحة التجارية وانتعاش التبادل التجارى بين البرابرة والبحارة الفينيقيين الذين سيجعلون من حوض البحر الأبيض المتوسط فضاء اقتصاديا لتعزيز التجارة بين الشعوب المجاورة وتطوير الصادرات والواردات وتعزيز نظام المقايضة واستخدام التبادل النقدى بعد ذلك.

إذًا، من هو يارباس؟ وماهى علاقته بالفينيقيين بصفة عامة وأميرة قرطاجة إليسا بصفة خاصة؟ وماهى نتائج هذه العلاقة على المستوى الشخصى والمجتمعى والحضارى والعسكرى؟

يعد يارباس أو هيارباس فى الدراسات التاريخية القديمة من الملوك الأمازيغيين الأوائل فى شمال أفريقيا، كان يحكم مقاطعة تونس، وهو من جذور بربرية ليبية، ومن قادة الجيتوليين الأوائل فى بلاد تامازغا، ومن أهم

الزعماء النوميديين المرموقين والمحترمين الذين كانت لهم مكانة مدنية ودينية ممجدة.

هذا، وقد اعتبر يارباس عند البعض شخصية أسطورية خيالية، وعند البعض الآخر شخصية واقعية حقيقية. وعرف يارباس أيضا بكونه راهبا غاتيليا (جيوتيليا) نوميديا، وقد جعل نفسه ابنا للآلهة جوبيتر آمون على غرار مجموعة من القواد الكبار كما هو الشأن بالنسبة للإسكندر الأكبر الذى عد نفسه ابنا للإله اليونانى زيوس.

وتروى الأساطير بأن الملك يارباس بنى لأبيه مائة معبد رائع، يشعل فيه النيران ويقدم القرابين والصلوات للإله جوبيتر قصد أن يزوجه من الأميرة الفينيقية الجميلة إليسا.

وتروى الأساطير أن الملك الأمازيغى يارباس أغرم كثيرا بالأميرة الفينيقية إليسا التى جذبته إليها بابتسامتها الماكرة، فاستقدمها يارباس من قبرص توا إلى تونس، بعد أن فرت إليسا من مدينة صور اللبنانية هاربة من بطش أخيها بيجماليون الذى قتل زوجها. فنزلت إليسا مع مجموعة من مواطنيها الأغنياء ومقربيها الأثرياء عند يارباس مكرمين فى ضيافته وسعداء فى مملكته الواسعة الأطراف. لذا، سمح يارباس للفينيقيين ببناء مدينة قرطاجنة التى صارت من أكبر العواصم المتمدنة والمتحضرة اقتصاديا وعمرانيا وبشريا فى شمال أفريقيا.

من المعروف أن الفينيقيين كانوا يسكنون بين جبال لبنان وساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد أسسوا بقعة تسمى بفينيقيا، واتخذوا مدينة صور عاصمة لهم.

ومن ثم، فالفينيقيون هم "سكان الجبال فى بيت لحم وحبرون (الخليل) أصلا، ثم انتقلوا شمالا إلى (صور وصيدا) وجبل لبنان، لهذا امتلكوا

الخصائص الجبلية والبحرية. وكان الفينيقيون يتحدثون بالكنعانية. فالفينيقية تساوى الكنعانية ".

واستند الفينيقيون إلى إدارة منظمة ونظام سياسى محكم، وقام اقتصادهم على رأسمالية تجارية احتكارية تقوم على المقايضة وجمع الأموال وتكديس الثروات العظيمة بفضل حبهم للتجارة وجمع الأرباح الطائلة. وشيدوا أسطولا بحريا متعدد القطع والسفن، وانطلقوا به يمخرون عباب البحر الأبيض المتوسط فى رحلات تجارية وبحرية واستكشافية كـ " رحلة حانون " و " رحلة حاملكون " .

وشيدوا عدة مدن ساحلية، وأسسوا ثلاثمائة مركز تجارى فى ليبيا وحدها، كما أرسوا مراكز تجارية أخرى فى تونس والجزائر والمغرب، وهنا نذكر: مدينة "قرطاجنة"، و"سوسة"، و"تونس"، و"بنزرت"، و"إيكوسيم" (الجزائر العاصمة)، و"سكيكدا" و"شرشال" و"سوق هراس" و"تبسة" و"عنابة "، و"مليلية" و"طنجة"، و"العرائش" و"المهدية " و"الصويرة"، و"أجادير".

وقد انتقل الفينيقيون من نظام المقايضة التجارية إلى سك النقود الخاصة بهم، ووضعوا أولى أبجدية فى تاريخ الإنسانية تأثرت بها الكتابة اليونانية والرومانية والأمازيغية وسائر الكتابات الموجودة فى تلك الفترة من التاريخ قبل ميلاد المسيح بسنوات كثيرة.

ويقول المؤرخ الجزائرى عبد الرحمن الجيلالى بأن البربر أقبلوا على اللغة الكنعانية الفينيقية، " عندما وجدوا ما فيها من القرب من لغتهم وبسبب التواصل العرقى بينهم وبين الفينيقيين".

بَيْدَ أن أهمَّ حدث يهمنا فى هذا الصدد هو بناء الفينيقيين لأكبر مستعمرة فى أفريقيا وهى قرطاجنة سنة ٨٨٣ أو ٨١٣ قبل الميلاد حسب روايات تاريخية أخرى. ولكن السؤال المطروح كيف انتقل الفينيقيون إلى

قرطاجنة؟ ومن سمح لهم بالاستقرار داخل هذا الفضاء الأمازيغى؟ وما علاقة الملوك الأمازيغيين بالفينيقيين ونذكر على سبيل الخصوص الزعيم البربرى يارباس؟

يمكن أن نحدد أربعة أسباب لهذا الانتقال الفينيقى للاستقرار فى قرطاجنة بتامازغا، فالسبب الأول يتجلى فى الصراع الأخوى حول الحكم بين الأميرة الفينيقية إليسا وأخيها بيجماليون حول امتلاك السلطة والحكم، لذا اختارت الفرار من بطش أخيها الذى قتل زوجها سيشارباس، واصطحبت معها مجموعة من الفينيقيين الأغنياء.

ويكمن السبب الثانى فى التضخم السكانى الذى أصاب المدن اللبنانية بعد ازدهارها وتحسن مستوى معيشة السكان وتطور الاقتصاد اللبنانى فى تلك الفترة من حكم الفينيقيين؛ مما فرض على الساكنة الفينيقية ضرورة البحث عن منافذ أخرى واكتشاف مجالاتٍ حيويةٍ صالحةٍ للحياة والبقاء.

ويتجلَّى السبب الثالث فى قصة عاطفية رومانسية أسطورية بين يارباس والأميرة إليسا التى أظهرت له ابتسامة حب وحرشته وجدانيا بضحكة العشق والهوى.

لذا، رجا يارباس الفينيقيين للاستقرار بين إخوانهم الأمازيغيين داخل مملكة قرطاجنة رغبة فى التقرب من العشيقة إليسا تمهيدا لطلب الزواج منها.

أما السبب الرابع فينحصر فى حاجة الأمازيغيين إلى معونة الفينيقيين فى مجال التجارة وتطوير الاقتصاد ولاسيما الفلاحى منه بالإضافة إلى تنمية المعارف والفنون وتعلم طرائق الكتابة وخوض الحروب" .

وبالفعل كان الأمازيغيون فى حاجة إليهم فى مايصنع من الأدوات والآنية والملابس وغير ذلك. ومما لاشك فيه أن الأمازيغيين عرفوا فينيقيين آخرين قبل إليسا ومرافقيها، وأنهم تعاملوا معهم فى المبادلات.

وما قدوم ديدون وتأسيس قرطاجة حوالى ٨١٤ق.م إلا تكريسا لعلاقات سابقة بين مجتمع رعوى انتجاعى وبين وفود من التجار والصناع. ".

ويقول محمد محيى الدين المشرقى فى كتابه القيم:" أفريقيا الشمالية فى العصر القديم" بأن" جماعة من الفينيقيين هاجروا من مدينة صور (Tyr) سنة٤٨٠ ق.م، وعلى رأسهم الأميرة " عليسة " أو " عليشة " .

وقد فرت من سيطرة أخيها پيجماليون حاكم بلادها المستبد الذى قتل زوجها لانتزاع الحكم من يده، ومنهم من يعتقد أن الجالية المذكورة لم تغادر مدينة صور، إلا لأنها ضاقت بعدد سكانها المتزايد يوما بعد يوم.

وسواء أصَحَّت هذه الأسطورة المأخوذة عن الشاعر اللاتينى فيرجيل - فى ملحمته الإنياذة- أم لم تصح، فإن الأقدار حملت تلك الجماعة من المهاجرين حتى ألقوا عصا التسيار بالساحل التونسى وبنوا به مدينة سميت" قرطاجنة" بمعنى " المدينة الجديدة " الهائلة التى لازالت بعض أطلالها ماثلة العيان إلى حد الآن ".

ويورد الباحث أيضا فى هذا السياق التاريخى الخاص بشخصية يارباس الرواية الرومانسية التى أدت بالفينيقيين إلى المكوث ضيوفا مكرمين فى قرطاجنة، ومضمون هذه الرواية التى اعتبرها المؤرخون قصة حكائية أسطورية:" أن الأميرة عليسة رغب فى التزويج منها ملك القبائل البربرية" يارباس" صاحب البلاد التونسية غير أنها كانت ترغب فى غيره.

ووقع أن تركها عشيقها ونزح عن البلاد فاغتمت لذلك عليشة ولم تر إلا الموت يخلصها من موقفها الحرج، فسددت السهم فى صدرها وقتلت نفسها بنفسها.. إما خوفا من أن تسقط فى يد ملك البربر وإما غَمّاً وأسفا على عشيقها الأول"!

أما هذا العشيق الذى ترك عليسة وحيدة هائمة متيمة فهو البطل إينى،

ذلك القائد المغوار الوسيم الذى غادرها متجها حيال إيطاليا لبناء مدينة روما كما يشير إلى ذلك الشاعر الرومانى فيرجيل فى إنيادته الخالدة.

وتذكر الوثائق التاريخية القديمة أن يارباس قد منح الأميرة الفينيقية إليسا قطعة صغيرة من الأرض ليستقر فوقها المواطنون الفينيقيون مقابل إتاوة سنوية اتفق حولها الطرفان: الفينيقى والجيتولى .

وبذلك، تكون إليسا قد ارتاحت من تسفارها الطويل وتعراجها اللامحدد، بعد أن عانت الأميرة الكثير فى تنقلاتها من صور إلى قبرص، وهى تبحث عن مكان آمن يحميها من هجمات العداة الذين يترقبونها كيدا ويتتبعونها غدرا.



الإنياذة، الكتاب الرابع، وفاة عليسة. من فيرجيل (مكتبة الفاتيكان)

لذا، اختارت أن تستقر بقرطاجة الشاطئية احتماء من كل مكروه قد يحدق بها. لكن الفينيقيين سيوسعون هذه القطعة الأرضية لتصبح من أكبر المدن الساحلية فى شرق البحر الأبيض المتوسط حضارة وتمدينا وقوة عسكرية.

وتذكر المصادر التاريخية بأن يارباس لم يكن الزعيم الوحيد الذى كان يحب إليسا حبا جنونيا، بل كان هناك مجموعة من الملوك البرابرة فى شمال أفريقيا كانوا يشاركونه فى حبها، ويتواددون إلى إليسا عشقا ومحبة وزواجا.

ونذكر من هؤلاء المنافسين الملك البربرى يوفاس أو يوپاس أو يوفان، بيد أن إليسا لم تمل إلى هؤلاء الملوك البرابرة العشاق، بل كانت تميل بكل جوانحها إلى الذى كانت تحبه حبا كثيرا وترتاح إليه نفسانيا وعاطفيا ووجدانيا، وهو البطل إينى اللاتينى إذا صحت أساطير ملحمة "الإنيادة " الخيالية، وما تذكره الروايات الأدبية الأمازيغية من أحداث تتعلق بالملك يارباس العشيق.

إضافة إلى هذا، فقد تأثر البربر أيَّما تأثر بالحضارة الفينيقية أولا وبالحضارة القرطاجنية ثانيا. " وليس من شك فى أنه كان لمثل هذه النهضة أكبر الأثر على نشر اللغة والتقاليد وكثير من مظاهر الثقافة والحضارة الفينيقية فى البلاد البربرية، وهى مظاهر شرقية، مصرية وإغريقية فى الغالب.

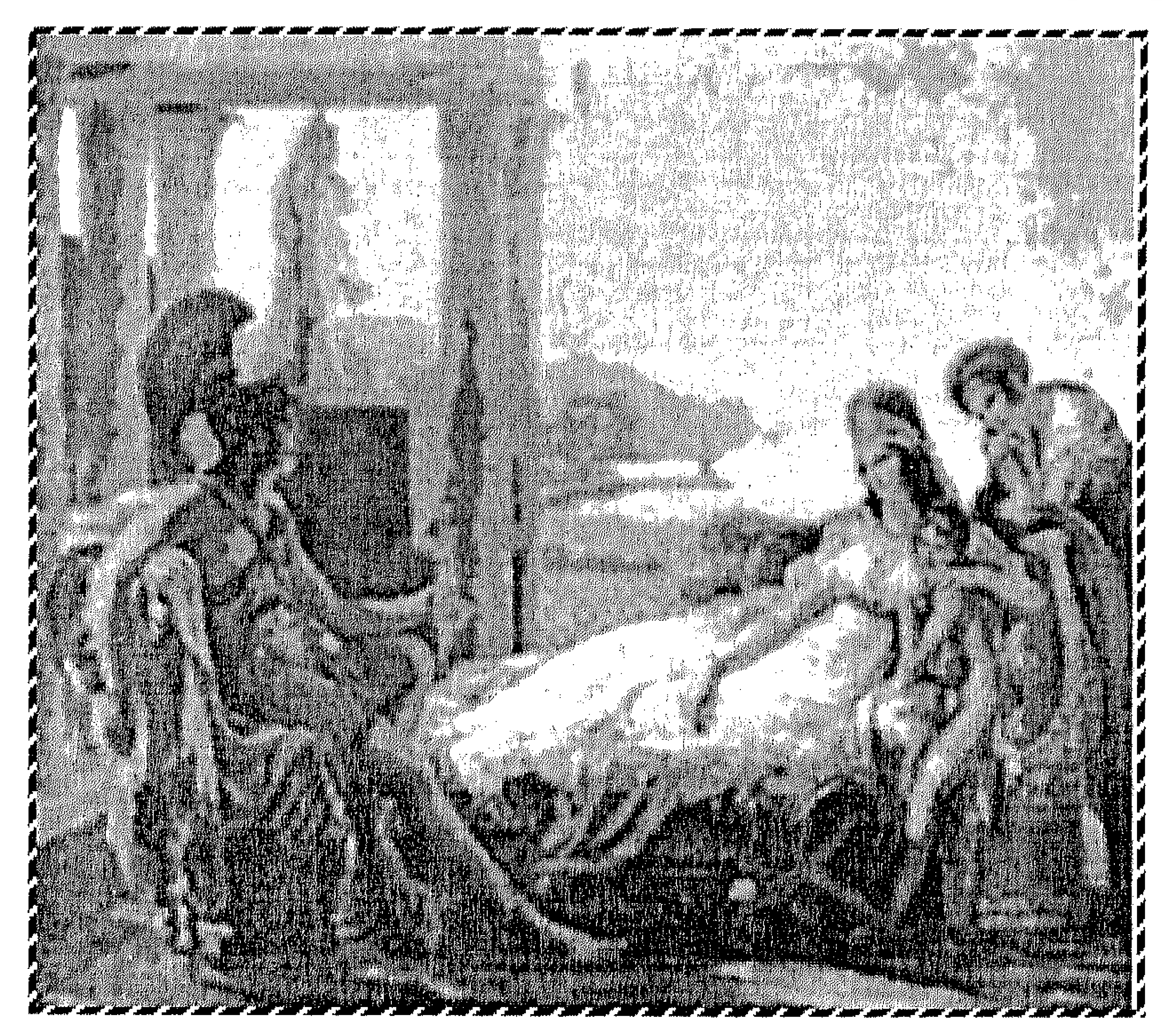
فقد سجل التاريخ أن القرطاجنيين"كان لباسهم شرقيا بحتا، فكانوا يرتدون الجبة الطويلة ذات الأكمام الواسعة عامة، وكانوا يضعون على رؤوسهم القلنسوة ويلبسون معطف السفر".

كما أن البربر شاركوا فى بناء حضارة قرطاجة، وشكلوا نواة الجيش القرطاجى، وخاضوا معهم حروبا قاسية ضد الرومان، وانصهروا فى المجتمع الفينيقى القرطاجنى انصهارا كبيرا، وتمثلوا عاداتهم وتقاليدهم.

وكان الفينيقيون أثناء استقرارهم فى قرطاجة يدفعون الإتاوَة السنوية وبعض الضرائب المتفق عليها للملوك الأمازيغيين مقابل الاستقرار فى هذه البلاد الغنية.

"ومع مرور الزمن توطدت العلاقات بين الأهالى البربر وسكان المدن البونيقية. فقد انبهر الأمراء النوميديون الذين أقام عدد كبير منهم فى قرطاج بحضارتها، وتزوجوا بنات طبقاتها النبيلة، وسموا أبناءهم بأسماء قرطاجية، وعبدوا آلهتها السامية، وحرضوا رعاياهم على العمل بأساليب ماغون الفلاحية".

وهكذا، نستنتج بأن البرابرة استفادوا كثيرا من القرطاجيين فى مجالات اقتصادية عدة، وقدسوا معبوداتهم، وتزيوا بأزيائهم، وتمثلوا طقوسهم الاحتفالية ونواميسهم الاجتماعية، واستوعبوا حضارتَهم المتمدنةَ أيَّما استيعاب، فوظفوها فى بناء حضارتهم التى كانت تسمى فى حوض البحر البيض المتوسط بالحضارة الأمازيغية أو بالحضارة البربرية.



انياس يروى حرب طروادة لعليسة، بريشة پيير-نارسيس جران. هذا المنظر مأخوذ من إنياذة ڤرجيل، حيث تقع عليسة فى حب، وخديعة، البطل الطروادى انياس

وإذا كان يارباس قد تعامل مع الفينيقيين القرطاجنيين معاملةً حسنةً، فإن الضيوف الجدد بدأوا يعاملون الأمازيغ معاملة سيئة فيها نوع من الجَوْر والحَيْف والإقصاء والعدوان، فبدأ القرطاجنيون يتخطون نطاقهم الحدودى ويفكرون فى التوسع على حساب الساكنة البربرية.

هذا ما جعل يارباس يعلن الحرب ضد القرطاجنيين. وقد يكون هذا الفعل السلوكى المقاوم الذى استخدمه يارباس ضد القرطاجنيين سببا من الأسباب غير المباشرة فى اندلاع الحروب البونيقية التى خاضها القرطاجنيون مع الرومان، كما أن رفض إليسا لطلب الزواج الذى تقدم به الملوك الأمازيغ كان من الدواعى التى أججت الحقد فى نفوس الملوك المحليين لمناهضة التوسع القرطاجنى فى شمال أفريقيا.

ويقول المؤرخ المغربى محمد شفيق فى هذا السياق بأن:" تأسيس قرطاجنة وغيرها من المراكز التجارية الفينيقية الأخرى على ساحلى أفريقيا الشمالية ستكون له مضاعفات لم يكن الأمازيغيون يريدونها، ولم يتصرف القرطاجنيون التصرف الكفيل بتلافى وقوعها، أو باحتواء مفعولها.

لقد ظلت العلاقات طيبة بين القرطاجيين ومضيفيهم مادام دورهم ينحصر فى التبادل والمتاجرة، أى طوال ثلاثة قرون ونَيِّفٍ.

ولما أخذت أنظارهم تتجه إلى الأراضى الداخلية، وصاروا يستعمرون المنطقة المحيطة بمدينتهم، وتغير الوضع شيئا فشيئا، ابتداء من أواخر القرن الخامس قبل الميلاد.

وليس من المجازفة أن يقال إن التعاون الأمازيغى القرطاجى، لو بلغ مداه فى المجالين السياسى والحربى، كما بلغه فى المجالين التجارى والثقافى، لغير مجرى التاريخ قليلا أو كثيرا.

لكن واقع الأمر هو أن التعايش السلمى انقضى عهده بسبب رغبة

قرطاجة فى التوسع خارج مجالها البحرى الذى منحت إياه عن رضا.

فنشبت بينها وبين الأمازيغيين تحرشات ابتداء من مطلع القرن الرابع قبل الميلاد. فحاصروها حصارا شديدا سنة ٣٩٦ق.م. واستغل الصقليون كل فرصة لإغراء أحد الطرفين بالآخر. ".

ونفهم من هذا، أن سياسة التوسع التى نهجتها حكومة قرطاجة على حساب الساكنة البربرية أدت إلى إشعال فتيل تمرد الجيش البربرى عن السلطة القرطاجية الحاكمة، ونشوب مجموعة من التحرشات العدائية وقيام المعارك بين الجانبين أدت إلى اندلاع الحروب البونيقية التى كان فيها الأمازيغيون طرفا بارزا وشريكا أساسيا.

ومن هنا، يمكن الحديث عن البوادر الأولى للمقاومة الأمازيغية ضد التواجد الفينيقى القرطاجى والتى شارك فيها الملك الأمازيغى يارباس بشكل ما.

ويعنى هذا أن سياسة التعايش والتعاطف انقلبت إلى عدوان وصراع جدلى ومقاومة مع الزعماء البرابرة الذين لم يرضوا بسياسة التوسع على حساب الساكنة المحلية.

ومن هنا، فقد " تطورت التحرشات إلى عداء وتباغض، فثار على قرطاجة جيشها، المؤلف فى أغلبيته من البربر، بقيادة "ماطوس" سنة ٢٤١ق.م، ولم تعد المياه إلى مجاريها إلا بعد ثلاث سنوات من التناحر، سيطرت إثرها قرطاجة على الموقف.

فشارك الأمازيغيون فى الحرب ضد روما- الحرب البونية الثانية- وحقق حنبعل، بفضل قوتهم الحربية، انتصاراته الخالدة، فى شبه الجزيرة الإيطالية. فلم يخف على الرومان دور البربر فى تلك الانتصارات كما يشهد على ذلك قول " تيتوس ليفيوس": "إن سيوف النوميدين هى التى فصلت الفصل النهائى فى معركة " قناية ".

لكن الأحقاد بين الأمازيغيين والقرطاجيين كانت قد تسربت إلى أعماق النفوس: فاستغلها الرومان بحنكتهم المألوفة ووجدوا طريقهم إلى الاحتلال التدريجى لمناطق أفريقية الشمالية المحاذية للساحل المتوسطى وما اتصل بها من الأراضى الداخلية، كما هو معلوم ".

ونصل من هنا إلى أن علاقة القرطاجنيين بالأمازيغيين كانت تتسم بالتعاطف والتعايش فى بداية أمرها لتنتقل إلى علاقة عدوان وتنافر وتحرشات عدائية.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كان القرطاجنيون بالنسبة للأمازيجيين أرحم بكثير من الرومان المتوحشين والوندال الهمجيين والبيزنطيين المجرمين. إلا أن الأمازيغيين لم يعرفوا الاستقرار الحقيقى والتمدن الفعلى إلا بدخولهم فى الإسلام مع الفتوحات العربية التى شرقت وغربت لتخرج الساكنة البربرية من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهداية.

ويتبين لنا من خلال هذا العرض الوجيز أن يارباس من الملوك الأمازيجيين الأوائل الذين استقروا بشمال أفريقيا أو من الزعماء البرابرة الذين سكنوا تامازغا. و" تخبرنا المصادر المصرية بأنه كان للأمازيغيين الليبيين ملوك، فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد." .

لذا تشير بعض المصادر اللاتينية إلى ملكين مهمين فى تاريخ ليبيا الأمازيغية وهما: يارباس ويوفاس.

وعلى الرغم مما قيل عن شخصية يارباس من قصص رومانسية وحكايات أسطورية، فإنه أول ملك يعطى الضوء الأخضر للأجانب لكى يستقروا فى وسط الأمازيغ، كما فعل مع الفينيقيين الذين تمثلهم أميرتهم إليسا.

وقد مكن انفتاح الشعب البربرى على الحضارة الفينيقية والانصهار فى المجتمع القرطاجنى أن يبنى حضارته الخاصة به، وأن يفيد الآخرين

ويستفيد منهم، واستطاع بفضل هذا التعايش والاندماج أن يستوعب جميع التناقضات، وأن يتمثل إيجابيات الحضارات المجاورة الشرقية والغربية الموجودة فى حوض البحر الأبيض المتوسط كالحضارة اليونانية والحضارة الفينيقية والحضارة القرطاجنية والحضارة الفرعونية والحضارة الرومانية.

بيد أن سياسة التعايش التى كانت تتحكم فى علاقة القرطاجنيين مع البرابرة سرعان ما تحولت إلى صراع وعداء بسبب سياسة التوسع التى نهجتها حكومة قرطاج؛ مما جعل يارباس وتابعيه من الملوك النوميديين يستبدلون سياسة التعاطف والمهادنة بسياسة المقاومة والتصدى للدخلاء.

■ ■ ■

عليسة و إنياس



4

أليسا أو ديدون أو عليسة أو عليشة فينيقيا أميرة مدينة صور اللبنانية، سليلة عرب الخليج القدامى، الذين أقاموا مدينة صور العمانية، العرب الأوائل الذين جعلوا من البحرين جنة النخيل فيما مضى.

أليسا، الأميرة ديدون أو دبدة الغاضبة على شقيقها الملك الحاكم.. الملكة الهائمة بين أمواج البحار، هربا من قهر بيجماليون شقيقها ملك فينيقيا، الذى استفرد بالحكم خلاف وصية أبيه متان الملك، وانتبز اليسار بعيدا، نزولا عند رفض الشعب مشاركتها شقيقها فى الحكم، لتتزوج اسرباس كاهن ملقرت، الذى كان يلى الملك فى مركزه.

فقتل بيجماليون إسرياس طمعا فى ثروته الكبيرة الطائلة، وغضبت أليسا على شقيقها لجريمته النكراء، وأخفت مشاعرها مصممة على الفرار من وجهه، ودبرت مع مريديها مؤامرة الهرب، معرية لأخيها رغبتها فى الإقامة عنده.

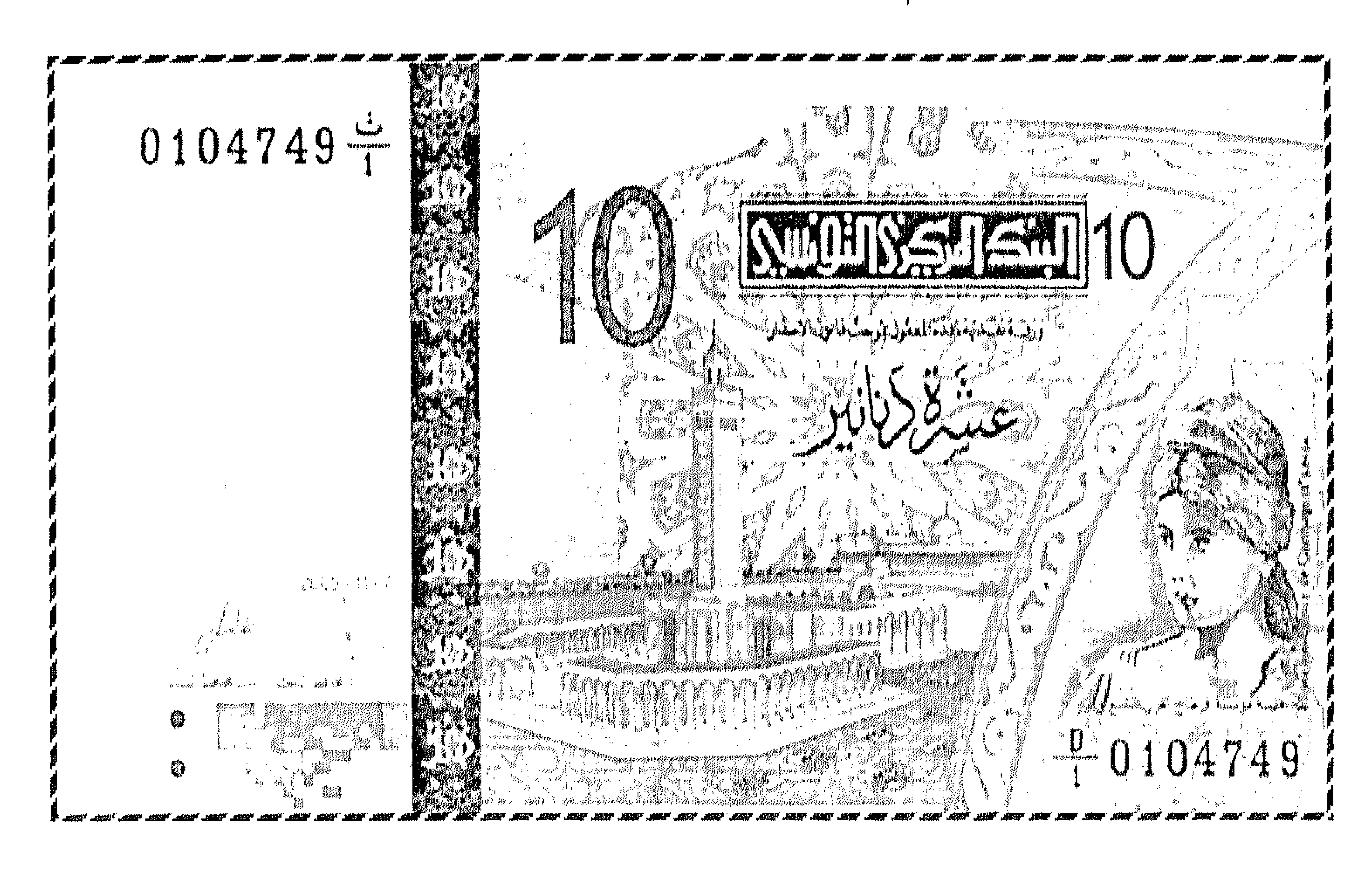
وهربت أليسا ومن معها، وأموال إسرباس لتلقى فى اليم وتبتلعها الأمواج فى الأعماق، معظمة صلاة تقيمها أليسا تكفيرا عن موت زوجها الكاهن...

لحق أليسا كثير من الأعيان، وكهنة هرقل، وكاهن جوبيتير فى قبرص، وأمرت أليسا بخطف ثمانى عذارى موقوفات نذرا لفينوس، لتصبحن زوجات مؤسسى قرت حدشت المدينة الجديدة قرطاج، والتى دفعتهم إليها الأقدار، يعبدون فيها ملقرت ملك المدينة...

أليسا، ديدون، ديدون، ديدون، تاديك قرت حدشت، الأسطورة الحلم مدينة قرطاج فى شمالى أفريقيا، التى اندثرت بعد الاحتلال، وظلت النيران مشتعلة فيها سبعة عشر يوما، فهلك قسم كبير من أهلها، وبيع الباقون عبيدا، ودمرت المدينة وجعلت فى مستوى الأرض.

أليسا، ديدون، ديدون، ديدون، تتاديك روح هانى بعل، سعد الله فى علياتها، ماذا فعلت أليسا؟! وماذ فعل مجلس شورى قرطاج؟!

روح البطولة، رمز الشرف، وفاء بالعهد، وحفاظ على العهد، وتكفير عن الذنب، ورفض للاستسلام، فعل لعبة الانتحار.



صورة عليسة على ورقة نقدية من فئة عشرة دنانير تونسية

وترتفع اليد بقوة العناد، تقرر تذييل الحياة نهاية العمر، تسدل الستارة على آخر فصل من فصول مسرحية الحب، بعدما غلبتها تجاربها ومرارتها، تستسلم النفس الأمارة بكل الأشياء، ترمى كل دفاعاتها، وتسكت كل أسلحتها الإنسانية، رافضة الوقوف لمواجهة الصعاب، حياة أطفئت فى لحظة ما، فقد تعبت النفس العنفوانية من الاستمرار فى ظل المأساة، وتعبت الروح الشفيفة من مظالم النفس، وانهار الجسد فى لحظة ضعف، واختصرت الرؤى فى طياتها طريق العذاب، فكان الانتحار فعل إخلاص ووفاء، تجسد بفعل أليسا ملكة قرطاج...

عشتروت لم تحتمل فجيعة قتل أدونيس فى جبال لبنان من وحوش القفار، فعزمت الأمر على فعل الانتحار، وفاء للحبيب الأسطورة.

كليوبترا لم تتقبل إجتياح الرومان لبلادها، ولم تتقبل الكبوة على الرفعة، فقتلت نفسها حفاظا على كرامتها أمام العدوان.

أهالى مدينة صور فى جنوب لبنان، لم يرضخوا للإسكندر المقدونى، ولم يسلموا مفاتيح المدينة لجنوده، فأحرقوا أنفسهم رفعة وعنفوانا كى لا يستسلموا.

أليسا ملكة قرطاج، تختصر كل المسافات، وتجمع كل الأسباب، ابنة متينوس ملك صور، تركت مدينتها طوعا على رأس فريق من جنودها الأوفياء، بعدما قتل شقيقها زوجها وحبيبها، خاضت مغامرات البحار، حتى وصلت إلى قرطاجة، وامتلكت قطعة من الأرض هناك، وأسست مدينة قرطاج، فكانت أكثر المدن الأفريقية ازدهارا وقوة، تجاريا وثقافيا، وباتت الملكة عليها.

التقت أليسا أنياس فى قرطاج، وهو المحارب الإغريقى الذى هرب من مدينة طروادة المدمرة لتتحطم سفينته ويجد نفسه على سواحل قرطاج. الملكة أليسا، ديدون أو عليسة وقعت فى هوى أنياس وأعجبتها شخصيته وشمائله. على ذمة ملحمة الإنياذة لفيرجيل إن ديدة كانت شخصية محترمة جداً.

وفى سبعة أعوام فقط، بعد هروبها من صور، استطاع الفينيقيون أن يبنوا إمبراطورية قوية تحت زعامتها. وكان رعاياها شديدى التعلق بها ويمجدونها.

وأصبحت محبوبة أكثر حينما آوت أنياس ورجاله بعد هروبهم من طروادة. لكن بعد أن أتى ميركورى رسول جوبيتر، كما تقول الملحمة، إلى أنياس ليذكره بأن رسالته ليست البقاء فى قرطاج مع حبه الجديد وإنما أن يمضى إلى إيطاليا ليؤسس روما، تغيرت شخصية ديدو نحو الأسوأ.

وحينما رحل أنياس أصبحت تريد الانتقام وأمرت ببناء تنور لتحرق فيه

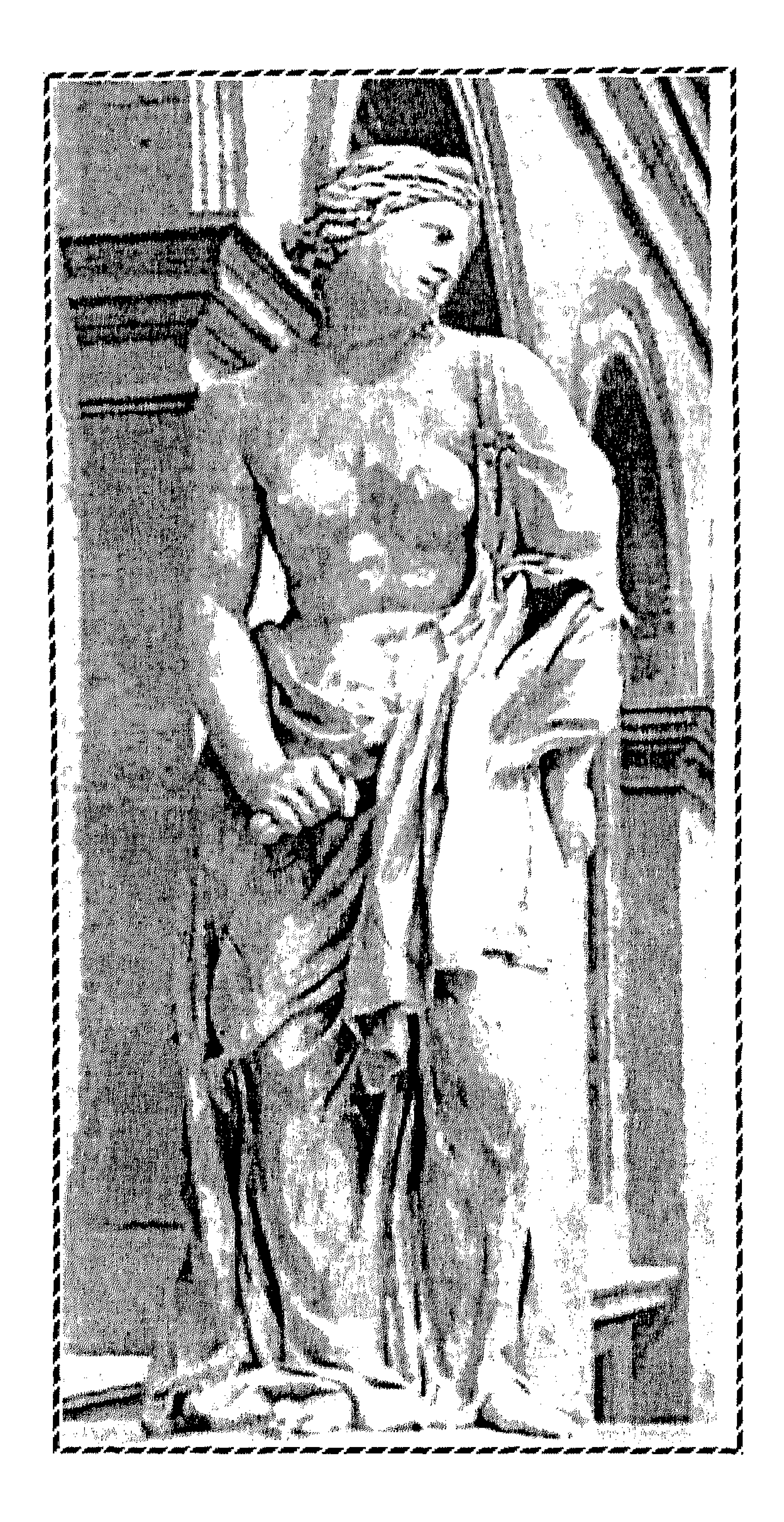
كل ما تركه وراءه من متاع. وعند هذا التنور خطرت لعليسة رؤيتها بأن قائداً قرطاجياً هو حانيبعل سينتقم لها فى المستقبل. وبعدها طعنت نفسها لتقضى على حياتها.

وأغرم بها ملك مكسيتانيا المجاورة، طمعا بغناها، ولما وجدت أن تكرار رفضها له سيعرض مواطنى مدينتها للخطر، على ذمة التاريخ، يروى أن أليسا، جمعت أكواما من الحطب لتقدم عليها الضحايا تكفيرا لخيانتها ذكرى زوجها، وفى نهايتها قدمت الذبيحة وصعدت على الحطب بعد أن أضرمت فيها النار واضعة حدا لحياتها.

وأخرى تروى، أنها صعدت إلى أعلى المقبرة التى كانت بنتها لنفسها، استلت خنجرا من خصرها وطعنت نفسها أمام الجميع، كى تثبت أن الشرف والوفاء، وعدم الاستسلام لمشيئة العدو هى من شيم القائد الناجح، الذى يبقى بطلا فى قلب أتباعه والتاريخ!!

وظلت عليسة تُعْبد وتُكَرَّم فى قرطاج ما دامت المدينة لا تُقْهَر.

بيجماليون، وكان هذا الملك غليظا فى معاملة شعبه، وكانت مملكته مهددة من قبل الآشوريين، ففرض حكما قاسيا على الطبقات الغنية فى مملكته، وقتل عمَّه ذاكربعل وهو زوج أخته عليسة والتى أوصاه أبوه، متان، بجعلها مستشارته فى الحكم، لكنه رفض. فى تلك الأجواء المفعمة بالعنف الداخلى، بسيطرة الملك بيجماليون، وأطماع الآشوريين القادمين من العراق، قررت عليسة وثلة من أعيان صور الهرب من ذلك الجحيم الذى لم يعد يطاق بالنسبة إلى تلك الطبقة الراقية من التجار والمثقفين.



تمثال عليسة بمتحف اللوفر بباريس

وباختصار شديد، وصلت عليسة والفارون معها إلى شواطئ شمال إفريقيا البربرية، والتى للتذكير كان فينيقيون من صور قد استوطنوا بها وبنوا هناك مدينة "عتيقا" منذ سنة ١١٠١ قبل الميلاد. "هذه المدينة المتواجدة على بعد ١٥ كم من مدينة تونس الحالية، رُدم جزء كبير منها عندما ابتعد عنها وادى مجردة، وغادر شواطئها البحر، حيث انزاح إلى الأعماق ما يقارب ١٥ كم".

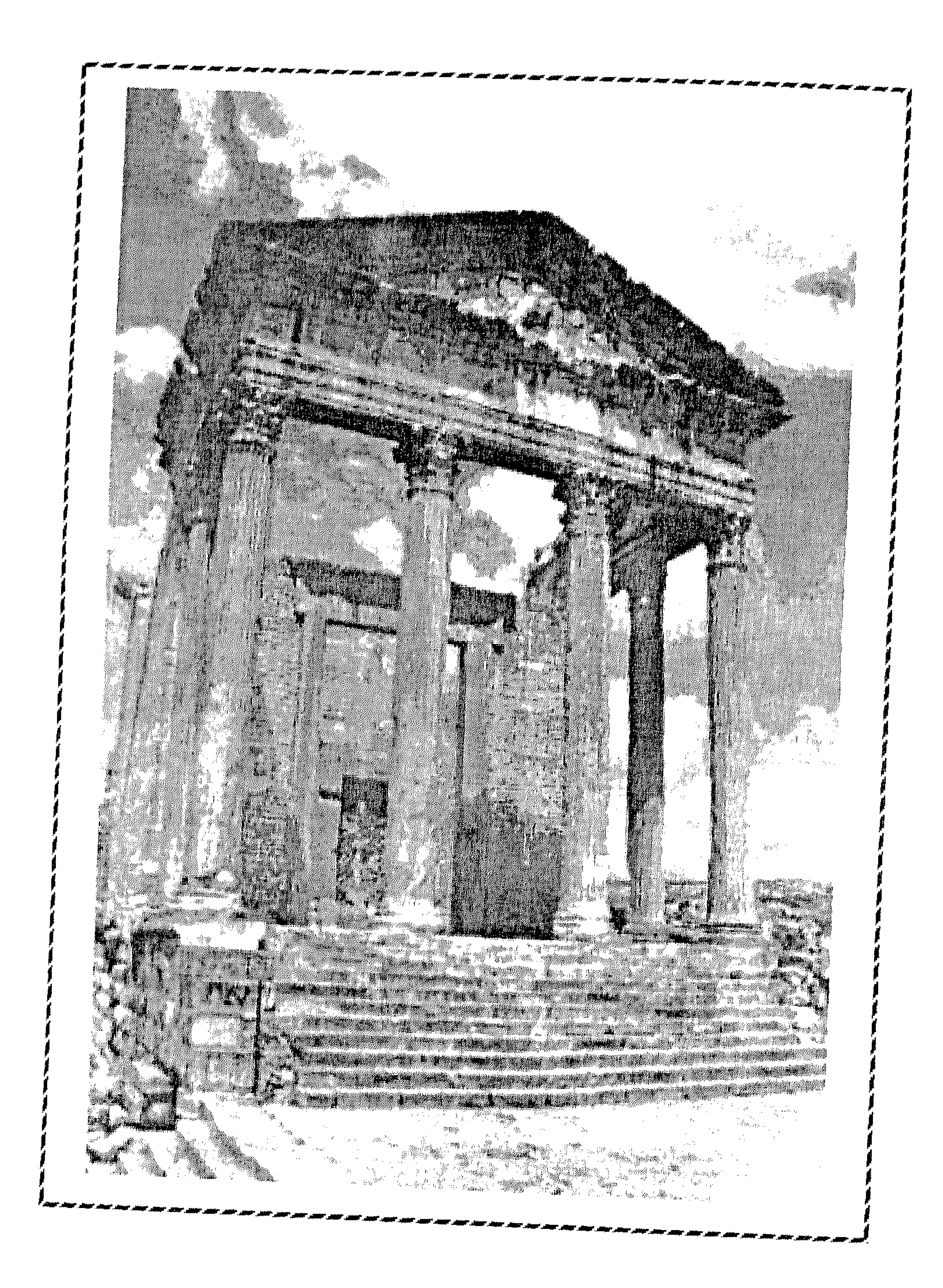
شيدت عليسة مدينة قرطاج "قرط حدشت" أى المدينة الجديدة خلافا لعتيقة، أو تبركا بها. وعليسة التى عايشت جبروت أخيها، حرصت على أن تكون مدينتها تساس بطريقة لا تسمح لشخص ما الانفراد بالحكم، هذا ما قاله المؤرخ الإغريقى هيرودوت الذى روى قصتها بكل التفاصيل.

وبما أن سكان هذه المدينة الجديدة لم تكن تجمعهم صلة القبيلة أو العائلة الكبيرة، وكانوا متنوعى النشاط: الكاهن، والقاضى، والتاجر، والمغامر، والبحار.

فلم يكن صعب تنظيم حكم يستجيب إلى رغبة الجميع أى الحكم الجمهورى الذى تسوسه المؤسسات. فكانت أول تجربة إنسانية تجعل الحكم بين أيدى المؤسسات الجمهورية.

يقول بعض المؤرخين إنَّ المدن الفينيقية الراسية على ضفاف المتوسط كانت تسوسها مؤسسة يقع اختيارها من قبل متساكنى تلك المدينة. إذن فالتجربة لم تكن جديدة، لكن مدينة قرطاج أخذت تتوسع بسرعة رهيبة. فى البداية اختلط العنصر البربرى المحلى مع العنصر الفينيقى المهاجر. فاللغة الفينيقية قريبة من اللغة البربرية، لهما نفس الجذور، والعنصر البربرى فى شكله العام لا يبعد كثيرا عن العنصر الفينيقى.

ثم كان توسع المدينة بحاجة إلى وجود بشرى ناشط. نشأ إذن من البداية على ما أعتقد عنصر جديد فينيقى بربرى، جعل مدينة قرطاج تتوسع بسرعة وتتهيأ لتكون أقوى وأكبر المدن فى الجزء الغربى من المتوسط.



حضارة قرطاج

وأعتقد أنّه لولا العنصر البربرى الذى امتزج بالعنصر الفينيقى لما رأت قرطاج ذلك النمو السريع، ولما تحولت مدينة قرطاج إلى دولة قرطاج.

فمدينة عتيقة ظلت مدينة منغلقة على نفسها لا يؤمها سوى العناصر الفينيقية، ولم تتطور إلى دولة، ولم تلعب أى دور هام فى محيطها المحلى ولا الإقليمى.

كانت هذه البداية، وكانت موفقة، ففى أقل من قرنين احتلت قرطاج التى أصبحت دولة بفعل تحالف المدن البربرية المنتشرة حولها شرقا وغربا، مكانة مرموقة فى كامل الجزء الغربى للمتوسط.

دولة قرطاج كما جاء على لسان جُلِّ المؤرّخين تتكون من مدينة قرطاج "التى عظمت وأصبح سكانها فى القرن الثالث قبل الميلاد يفوق ٧٠٠,٠٠٠ نسمة" والمدن البونية "هذه التسمية نرصدها لسكان دولة قرطاج ونعتبرها تعبيرا عن العنصر الفينيقى البربرى الذى ميز سكان دولة قرطاج والتى كان يقطنها فى القرن الثالث قبل الميلاد أكثر من ٤ ملايين نسمة. ودولة قرطاج، ومساحتها أقلّ بقليل من مساحة الجمهورية التونسية الحالية، لها حكم يسوسه مجلس الشيوخ المتكون من أعضاء منتخبين من بين أعيان مدينة قرطاج وممثلين للمدن الأخرى التى تشمل دولة قرطاج.

وينتخب مجلس الشيوخ رئيسا "يدعى لدى القرطاجيين "صبط" يوكل إليه إدارة شؤون هذه الفيدرالية من المدن. وحددت مدة حكم الأصباط بسنتين قابلة للتجديد من قبل مجلس الشيوخ الفيدرالى.

وقد أوكل مجلس الشيوخ الحكم لصبتين فى بعض الفترات التى كانت فيها البلاد تمر بأزمة. أما انتخابات مجلس الشيوخ القرطاجى فهى تقع على فترات متباعدة، ويشارك فيها ممثلون عن الحرفيين "كانت بقرطاج صناعات مزدهرة تشمل صناعة السفن، واستخراج الحديد، إذ كانت قرطاج تنتج أحسن فولاذ فى العالم فى تلك الفترة.

وقد اكتشف علماء الآثار الألمان فى الآونة الأخيرة بقايا لآلات صنع

الفولاذ فى باطن أرض قرطاج، وحللوا المواد العالقة بها، وكان استغرابهم كبيرا عندما وجدوا أنَّ القرطاجيين يستعملون الجير لصقل الحديد وإنتاج فلاذ جيد.

وقد استعمل الجير فى صناعة الفولاذ فى العصر الحديث فى بداية القرن التاسع عشر".

يقول بعض المؤرخين أنَّ الحاكم الحقيقى لقرطاج هو هذا المجلس الذى يمثل الأرستقراطية القرطاجية، وهو ما دعا بعضهم بالتأكيد على صورية المؤسسات الديمقراطية القرطاجية. لكن المؤرخين الذين يدافعون عن هذا الطرح لم يقدموا أدلّ مقنعة على ما يدعون. اعتمدوا على المؤرخ بوليبس، لكن هذا الأخير أورد هذه المعلومات للتدليل على تفوق المؤسسة الديمقراطية الرومانية. وعندما نعرف نظرة بوليبس، وانحيازه لأسياده الرومان لا يمكن اعتبار أحكامه نزيهة.

إذن دولة قرطاج أو جمهورية قرطاج تعددت مجالسها، وهى ظاهرة صحية للديمقراطية. ورغم ذلك فمنظرو الديمقراطية فى عصرنا لا يعتبرون دولة قرطاج من الديمقراطيات، ويرجعون بداية الديمقراطية مع أثينا.

بينما الفيلسوف اليونانى أرسطو "القرن الرابع قبل الميلاد" يقول إنَّ أفضل الجمهوريات هى جمهورية قرطاج لأنّها تمتاز بمجالسها الثلاثة: مجلس الشيوخ ومجلس الحكماء ومجلس الشعب.

" كانت تقام فى قرطاج مآدب شعبية، لانتخاب القضاة المائة وأربعة، كما هو الحال لقضاة سبارتة، لكن بسبارتة يُختارون من بين أناس لا قيمة لهم بينما فى قرطاج يكونون من الأرستقراطيين.

كما يقع، أثناء تلك المآدب، اختيار الحكام ومجلس الشيوخ. ولم يكن الحكام يتوارثون الحكم، ولا يقع تسميتهم اعتباطيا، لكنهم من المنتخبين وينتخبون حسب قدراتهم. أما الشعب، فليس له الحكم المباشر، إنه الحاكم

الأعلى على كل الخلافات التى تقع بين مجلس الشيوخ والأصباط".

ويضيف أرسطو: "كل المحاكمات فى قرطاج تقع أمام قضاة منتخبين، ويظلون هم نفسهم، مدى الحياة، وكانوا مائة وأربعة قاضاة".

ولأنّ الديمقراطية القرطاجية كانت فعالة، فإنها لم تتحول لا إلى إمبراطورية كما هو الشأن مع الديمقراطية الرومانية، ولا إلى حكم تيوقراطى كما هو الشأن مع الديمقراطية اليونانية حالما أخذ الحكم إسكندر المقدونى، أو إلى ملوكية مع مملكات اليونان. ظلت قرطاج جمهورية طيلة حياتها، ما يقارب السبعة قرون، ولم ينقلب عليها العسكر، ولا الكهنة، ولا الإقطاع. ظلت طيلة حياتها تنتخب مجالسها ورؤساءها وقادة جيشها، بل تحاسبهم عند الفشل وتحكم عليهم بالإعدام عند تخاذلهم أو محاولتهم الانقلاب على الحكم.

كل هذه البراهين، رغم كل ما فعله الرومان ليعتموا على هذه التجربة، تدلّ أنّ التجربة القرطاجية كانت ناجحة فى إرساء دعائم حكم ديمقراطى. والحكم الديمقراطى حسب المنظرين هو الحكم الذى ينتخب فيه الحاكم، وتسوسه المؤسسات المنتخبة. بقى أن نشير إلى نسبية الأزمنة التاريخية.

فبعضهم يسمى الحكم فى دولة قرطاج (أوليجارشى) أى حكم الأغنياء. ربما يكون هذا صحيحا. لكن هل كان الحكم فى تلك العصور وعبر التجارب الديمقراطية الأخرى خارجا عن سيطرة الأغنياء؟ فالمتطلع لجمهورية أفلاطون الخيالية التى هى بعيدة كل البعد عن الواقع التاريخى يرى كيف كان يعامل أفلاطون الفقراء والرعاع وغير الشرفاء فى جمهوريته.

ربما لو تفحصنا بدقة التجربة الديمقراطية القرطاجية لرأينا أنها كانت تعانى من عيوب الديمقراطية نفسها. فالديمقراطية التى تبنتها أوروبا الغربية وأمريكا فى هذا العصر، إن لم تكن إيلوجرشية، فهى برجوازية، أى ديمقراطية طبقية تخدم مصالح طبقة الأغنياء. فاعتراض منظرى

الديمقراطية فى الغرب على تسمية التجربة القرطاجية الرائدة بالأوليجرشى، أعتبره نوعا من التضليل، والتحقير.

فالمواطنة القرطاجية حقيقة لا يمكن الطعن فيها، ودليل على ذلك ما ذكره المؤرخون الغربيون القدامى من أنّ السلطة العسكرية القرطاجية كانت ترصد أكبر جائزة للعاملين فى جيشها من غير القرطاجيين بلقب مواطن قرطاجى.

وقد وعد حنبعل المتطوعين من الأوروبيين والبربر فى جيشه الذى حارب به روما طيلة ١٥ سنة بالمواطنة القرطاجية. والمواطنة تعنى بالأساس التمتع بالحقوق السياسية والاقتصادية وبواجبات المواطن.

عند قراءة ما يكتب عن قرطاج لدى المؤرخين القدامى فى الغرب يلاحظ القارئ المحايد مدى الحقد الذى يكنه هؤلاء المؤرخون، فتراهم يتناقضون فى سرد الأحداث وفى إعلان الأحكام، واختيار النعوت.

فنعت الديمقراطية القرطاجية بالأوليجرشى يدخل فى تلك الستراتيجيا الهدامة. صحيح أن الأغنياء من التجار ومالكى الأرض والأرستقراطية القرطاجية تصارعت على الحكم فى قرطاج، لكن ذلك كان مصير كل الديمقراطيات التى حكمت العالم القديم. صحيح أنّ الأغنياء فى قرطاج كانوا يتحاشون دفع الضرائب، ويتحايلون على الحكم بوسائل غير شرعية، لكن نرى إلى اليوم كيف تسير أمور الديمقراطية فى أعظم دولة ديمقراطية فى العالم، والمثال الواضح هو ما فعلته عائلة بوش الرئيس الحالى للولايات المتحدة "كان جدّ بوش الحالى يبيع السلاح للطغمة العسكرية الألمانية بينما كان ابنه قريبا من نيران المعارك"، وما تفعله اللوبيات المختلفة لانتخاب رئيس الولايات المتحدة والتحكم فى قرارات الحكم لا يمت لأخلاقيات الديمقراطية.

وكل من يطّلع على ما كتب عن تاريخ قرطاج، ولا يحمل أحكاما مسبقة، ولا ينطلق من تصور مريض لتصنيف البشر بين جنس راق وآخر لا يقدر أن

يصنع التاريخ، ولا يكون فريسة لما شحن به من معارف مسمومة فى المدارس الاستعمارية، لا يمكن إلا أن يقر أنّ التجربة الديمقراطية التى عاشتها قرطاج طيلة وجودها كانت من أرقى التجارب التى مر بها الحكم فى العالم القديم، لأنها خلقت التوازن بين طبقات الشعب، ومكنت كل متساكنى دولة قرطاج من أن يعبروا عن وجودهم من خلال العمل والإنتاج وروح المبادرة.

وقد قام بعض الرحالة إلى قرطاج خلال القرن الثالث قبل الميلاد بوصف سكان ومدينة قرطاج، وكانوا كلهم، أعداء ومحايدين، مبهورين بالتنوع الجنسى الذى كانت تشهده المدينة، وبالنشاط الحثيث لسكانها، وبرغد العيش الذى تتمتع به جل طبقات الشعب، بما فى ذلك العبيد الذين كان القانون صارما فى تحديد العلاقة التى تجمعهم بمالكيهم، فليس للمالك الحق فى قتل، أو تعنيف، أو إهانة، أو تجويع عبده.

بينما كان العبد فى روما يصنع به سيده ما يشاء. للديمقراطية عيوبها، وهى ظاهرة للعيان. التنافس على الحكم يخلق تصرفات لا تقبلها أخلاقيات الديمقراطية، لكنها تدخل فى قوانين اللعبة. الطبقة التى حكمت قرطاج كانت ككل الطبقات الحاكمة جشعة.

وتصرفاتها فى بعض الأزمات كانت مشينة، واستحواذها على الخيرات أدى إلى أزمات كبيرة، لكنها لم تقض على الحكم الجمهورى. ففى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد تفشت لدى تلك الطبقة ممارسات ضارة بالديمقراطية مثل الارتشاء، والتمنع عن دفع الضرائب، والتعامل المشين مع العدو، والصراعات الهامشية بين العائلات الكبرى، والنعرات العنصرية بين المواطن القرطاجى والوافدين من الفينيقيين والبربر.

وقد أدت هذه التصرفات إلى فقدان الحس الوطنى، وبالتالى إلى ضعف روح المواطنة. وانجر عنها فى آخر المطاف تفتت الدولة، وضياع الرؤية الشاملة لدولة يهيمن اقتصادها على جزء كبير من المتوسط، وفقدان

استراتيجيات الدفاع والحماية من العدو المتربص. وديمقراطية قرطاج القديمة كانت ضحية ذلك الفيروس الذى تفشى فى الجسد الاجتماعى فلم يقدر أحد عن إيقافه، فأكل الجسد بكامله، وسقطت قرطاج ضحية ديمقراطيتها. حتى محاولة (حنبعل) الخارجية التى عطلت الهجوم الرومانى الكاسح طيلة ١٥ سنة لم تفلح فى إنهاض الهمم، ولملمة ما كان ممكنا لملمته. فحالما عاد حنبعل إلى قرطاج، هاله الوضع، فاندفع يحث الناس على حماية الديمقراطية، وترشح لرئاسة السلطة، ونجح، لكن قوى الرجعية كانت أقوى مما كان يتصور. حاصرته، وتعاونت مع العدو الراسى على شواطئ مدينة عتيقة، والتجأت إلى الدسائس والمؤامرات حتى اضطرته إلى الفرار بجلده إلى الشرق الذى كان يعانى هو كذلك الانقسام والتفتت، والرضوخ لحكم الأجنبى. هذا التاريخ الذى لم يكتبه غير أعداء قرطاج لا بدّ أن تعاد كتابته برؤية علمية محايدة، من خلال البحث العلمى الجاد. لقد بدأت العقول تتغير، هناك أبحاث فى هذا الميدان قام بها مؤرخون من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وغيرها أثبتت أنّ تاريخ قرطاج قد وقع التلاعب به، وأن هذه الحضارة كانت حقا راقية.

لقد تكلمت الآثار المدفونة تحت الأرض، وقالت كلاما لا بدَّ من التمعن فى معانيه.

وللأسف الشديد أنَّ المؤرخين العرب، ما عدا الأستاذ حسين فنطر الذى خصص جزءا من حياته لدراسة هذه الحضارة.

ويكفيه فَخْرًا ما أخرجه من تحت تراب مدينة كركوان، تحفة أثرية تشهد على الرقى الاجتماعى والمعمارى الذى كان يتمتع به سكان تلك المدينة، لم يعتنوا بتاتا بهذا التاريخ، والبحوث القليلة فى هذا الميدان، والقادمة من الشرق، لا ترتقى إلى مستوى البحث. آن الأوان أن نعلن للعالم أنَّ الديمقراطية لم تنطلق من أثينا ولا من سبرتا ولا من روما، بل من قرطاج، وظلت قرطاج ديمقراطية طيلة وجودها.

مصادر ومراجع

- لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين- محمد شفيق - دار الكلام - الرباط- ١٩٨٩ .

- أفريقيا الشمالية فى العصر القديم- محمد محيى الدين المشرفى- دار الكتب العربية- ١٩٦٩ .

- قرطاج - حسين أحمد سليم آل الحاج يونس

- جمهورية قرطاج.. أهم منابع الديمقراطية فى العالم القديم قبل روما - الهادى ثابت

- من أبطال المقاومة الأمازيغية: يارباس - د.جميل حمداوى

- " أليسا" .. ابنة الساحل السورى التى بنت قرطاجة - غيد الياس بيطار- موقع الوحدة .

- هانيبال - هارولد لام - ترجمة : رشدى السيسى - دار الفكر العربى - ١٩٦٢ .

- هانيبال القرطاجى : رجل واحد ضد روما، وويل للمغلوب - جهاد علاونه - الحوار المتمدن - ٥ مارس ٢٠٠٨ .

- " الرجل الأسطورة اللغز ط - فيلم وثائقى عن هانيبال - قناة "المنار" - ٢٠٠٦

- الإنياذة - فرجيل

فهرس المحتويات

الجزء الثانى.. عليسة

عندما تقلب صفحات التاريخ يطل عليك القائد العسكرى القرطاجى هانيبال حاملا اللقب الذى خلعه عليه العالم، وظل يصاحبه طيلة قرون من الزمان وإلى يومنا هذا.. هذا اللقب هو "أعظم قائد فى التاريخ".

نعم هذا هو هانيبال، الذى أذل روما القديمة فى أوج قوتها وعنفوانها، حتى أطلق عليه الرومان "كابوس روما الأسود"، والذى يتوارى خلف عبقريته العسكرية قادة عظماء كبار خلدهم التاريخ أمثال الإسكندر الأكبر ونابليون بونابرت.

وعندما تقلب صفحات التاريخ أيضا ستخرج عليك امرأة ربما تكون الأشهر بين ملكات التاريخ، وستفاجأ أيضا أنها كانت مؤسسة وملكة مدينة قرطاج، التى قدمت للعالم-فيما بعد- هانيبال العظيم، وهى لا تقل عنه عظمة أو شهرة، حتى إنها احتلت مكانة كبيرة فى كتب التاريخ فى الغرب، وكذلك أخذت حيزا كبيرا من ملاحم شعراء اليونان والرومان كما نرى فى الملحمة الخالدة والشهيرة لفرجيل، والمعروفة باسم "الإنياذة" ..هذه الملكة الخالدة هى عليسة الأميرة الفينيقية ابنة (صور) التى وصلت سواحل تونس وأسست قرطاج.

وهكذا ترتبط مدينة قرطاج بشخصيتين تاريخيتين غيرتا مجرى التاريخ القديم.. عليسة ومن بعدها هانيبال ..وهما موضوع هذا الكتاب الذى يتتبع مسيرة كل منهما، منذ الولادة والنشأة، والعوامل التى أثرت فى تكوين شخصيتيهما، انتصاراتهما، إخفاقاتهما، وكيف اشتركا فى نفس النهاية المأساوية، حيث فضلا الموت على حياة الذل والضعة والهوان.





W.Salama 010 15 17 873


I.S.B.N. 978-977-376-563-1

